أساطير الحب والجمال

عند اليونان

دراسة ونصوص

المجلد الأول

دريني خشبة

الكتاب: أساطير الحب والجمال عند اليونان (المجلد الأول)

الكاتب: دريني خشبة

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

خشبة ، دريني
أساطير الحب والجمال عند اليونان (المجلد الأول) / دريني خشبة
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣١٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٨ – ٢٢ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ٩٧٠٥ / ٢٠٢٠

أساطير الحب والجمال

عند اليونان

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

هذه الأساطير اليونانية

نشأتها، وتطورها وأوجه المجاز فيها

هذه طائفة من الأحلام اليونانية الرائعة كان يحزنني ألا يعرفها قراء العربية، على طول ما سمعوا بها، وعلى كثرة ما داعبت خيالهم، وغزلت أحلامهم، فأنا أقدمها إليهم اليوم، بالطريقة التي آثرت أن أروي بها هذه الأساطير.

أحببت أن أسجل ذلك، حتى لا يدور في روع أحد أنني نقلت ما نقلت من آيات ذلك الأدب الذي أُغرمت به، نقل ترجمة، ولكن نقل رواية، وهي الطريقة التي آثرها شعراء أوروبا الحديثة حين قدموا لبلادهم ذلك التراث اليوناني التليد، وهي الطريقة نفسها التي أقرها، وجرى عليها الأستاذ الانجليزي الكبير "توماس بلفنش" (١٧٩٦– ١٨٦٧)، حينما نقل إلى الانجليزية معظم الأساطير اليونانية عن أوفيد وفرجيل... فرب أسطورة ليس لها في أصول ذلك الأدب إلا سطر أو سطران، رواها هو في صفحة أو صفحتين، ليباعد بينها وبين جفاء العلم، وليجعلها سائغة في أذواق مواطنيه.

وهكذا فعلت...

وما دمت قد أشرت إلى الأستاذ بلفنش، فلابد من الإشارة إلى الأستاذ هـ. أ. جربر H. A. Guerber الذي انتفعت بكتابه الخالد[١] في تسوية أساطيري هذه، والذي أغراني إغراء شديداً برواية هوميروس كله، في

(١) أساطير اليونان ورومه Myths of Greece and Rome.

ملحمتيه العظيمتين "الإلياذة" و"الأوديسة"، كما أغراني بعد ذلك برواية ذلك الأدب التمثيلي اليوناني البارع، الذي بقي للمدنية وللذهن الإنساني، من شعراء الإغريق القدامى: اسخيلوس، وسوفوكليس، ويوريبيدز، مما قدمته إلى قراء العربية في الصحف والمجلات..

أما أساطير اليوم، فهي من غير شك الفصل الأول من ديوان الأدب اليوناني الحافل، الذي أشفق العرب من نقله إلى لسانهم، خوفاً مما يفيض به من وثنية، على الدين الجديد.. ولم يعد لنا عذر في أن تحول تلك الحجة بيننا وبين الانتفاع بالأدب اليوناني، ولاسيما في طفولته الأولى الجميلة التي أبدعت لنا تلك الأحلام...

ولابد هنا من الاعتذار عما كان لابد من إيراده في بعض تلك الأساطير، من ذلك اللون من الحب الذي يوشك أن يكون صارخاً.. فقد أردنا أن نعطي القراء صورة صادقة عن الفجر الأول لذلك الأدب اليوناني.. وليس من الصدق أن نخفي بعض ألوان تلك الصورة.. وإن كنا قد حرصنا على ألا نثبت منها إلا أقربها– أو ما يكاد يكون أقربها– إلى ما نأخذ به أنفسنا من كريم تقاليدنا.

أما أن هذه الأساطير التي أُقدمها إلى القراء اليوم، هي السفر الأول من ديوان الأدب اليوناني، فذلك الحق الذي لا مراء فيه.. فهي على قلتها، اتفقنا على كثير من أعلام الميثولوجيا اليونانية، وخصائص آلهتها وأنصاف آلهتها وعرائس غابها وبنات مائها وسائر سكان ذلك الأولمب العجيب، بما كان يسيطر عليه في عالم الخيال من قبائل السنتور والأوسيانيد والنيريد، مما يجده القراءِ مبثوثاً في ثنايا هذا الكتاب، تلك الأسماء التي آثرنا منها ما هو أكثر شيوعاً في الأدب الأوروبي الحديث، الذي يؤثر الأسماء اليونانية أحياناً، ويؤثر الأسماء الرومانية أحياناً أخرى.

فهذا الكتاب إذن هو مصباح لابد منه للتمتع بجنة هوميروس، وجنات الشعراء الأفذاذ الذين جاؤوا من بعده، فشادوا على بنيانه صرح ذلك الأدب.. والنور الذي يرسله هذا المصباح كفيل بتبديد ظلمات ذلك التراث الذهني القديم الذي أبدعته لنا شقيقتنا في ذكريات الماضي.. هيلاس المجيدة.

* * *

أساطير القدماء هي أحلامهم الذي أخذت تعمر أخيلتهم حينما شرعوا ينتقلون في سلم التطور، من الحياة البدائية الفجة، إلى حياة التمدن والاستقرار، ثم التفكر في أسرار هذا الكون، وتعليل القوى الخارقة التي تستتر وراء هذا العالم، فتسبب الحياة والموت.. وتسهر على الأجنّة، وتنتقل بالمخلوق من حال إلى حال، وتدب في البذرة فلا تلبث أن تحيلها دوحة باسقة ممدودة الأفنان، وتتسرب إلى القلوب فتعمرها بالحب مرة وبالكراهية والبغضاء والحقد وسائر ألوان الرذيلة مراراً.

أخذ الأولون يفكّرون في هذا كله تفكيراً سهلاً يقوم أكثر ما يقوم على الخيال والعاطفة، ويبتعد أشد ما يبتعد عن العقل والمنطق.. ثم أخذ تعليل الظواهر الطبيعية يكثر.. كما أخذ يتشابه طوراً، ثم يتنافر أطواراً.. فهو يتشابه في هذا الإقليم من مصر مثلاً، ثم يتنافر في كثير من أقاليم مصر في الوقت نفسه.. وليس يحدث هذا في مصر وحدها.. بل هو يحدث في الهند وفي الصين وفي جزائر الملايو.. ثم في بابل.. وفي آسيا الصغر، وفي الأقاليم الواقعة على البحر الأسود.. وبحر الأرخبيل.

وأخذت هذه التعليلات تستقر في أذهان الناس.. وأخذ الكبار يضعون للظواهر الطبيعية الأسماء، ويلفقون لها القصص، ويقصونها على الصغار.. ثم استحالت هذه الأسماء وتلك القصص، آلهة، وقصصاً إلهية.. مع مرور الزمن، وكثرة التكرار.

أما أي الشعوب سبق الشعوب الأخرى إلى ذلك كله، فذاك سؤال فج لا يحسن أن نحتفل به، لأن الشعوب كلها كانت تفكر منذ طفولتها في هذا العالم.. من خالقه، وكيف نشأ، ومن الذي يمسكه.. وهل خالقه إله واحد، أو آلهة متعددة؟ وهل هذا الخالق مثلنا نحن البشر؟ وهل له زوجة أو زوجات وهل له أبناء وأحفاد، وأحفاد أحفاد؟.

فكرت الشعوب كلها في ذلك.. وكان أسبق الشعوب إلى الحضارة أسبقها في الاهتداء إلى الخالق.. أو أسبقها إلى الحلم بهذه الأساطير التي كانت محاولات ساذجة في سبيل تفسير هذا الكون وما يزخر به من ظواهر النور والظلمة والليل والنهار، والحياة والموت، والنوم واليقظة، والبر والبحر، والأرض والسماء، والشمس والقمر، والرياح والسحاب، والغاب والينابيع، وما يعمر الأرض والبحر والهواء من إنسان ودواب وأسماك وطير.

وكانت مصر أسبق الأمم إلى ذلك كله.. لأنها كانت أسبق الأمم في سلم الحضارة... وسرعان ما أصبحت أساطير المصريين جزءاً لا يتجزأ من دينهم، بل أصبح دينهم هو مجموعة تلك الأساطير كلها.

غير أن الأساطير المصرية لم تلبث أن صارت شاحبة، فيها من قسوة الصحراء ورتابة البيئة وخمول الحر واستبداد الفراعنة وجهالة الكهنة الشيء الكثير.. ومع ذلك فقد تأثرت الأقطار القريبة من مصر بهذه الأساطير المصرية.. إلا أن بابل التي تلت مصر في سلم الحضارة قد أثرت في جاراتها أضعاف ما أثرت مصر.. والموازنة السريعة بين شجرة أنساب الآلهة البابلية، ثم أشجار أنساب الآلهة السومرية والحيثية والآشورية واليونانية، تثبت هذا التأثر بصورة واضحة لا تقبل الجدل.. ونحن نأسف لعدم الخوض في هذا كله هنا، لأن موضعه كتاب مستقل يلم أطراف الموضوع.. وحسبنا أن ندل

القارئ على طائفة من الكتب الثمينة لعدد من العلماء الذين تخصصوا في هذا الموضوع(٢).

والآن.. وبغضِّ النظر عن تأثر اليونان بغيرهم من الأمم، ولاسيما بابل وفينيقية، فكيف بدأ اليونانيون يحلمون؟ وبالأحرى: كيف بدأوا يفكرون في نشأة هذا العالم بكل ما فيه، وكيف تصوروا الدنيا التي يعيشون فيها؟

لقد كان للبيئة اليونانية نصيبها الأوفى في طرائق التفكير اليوناني، فالطبيعة في البلاد اليونانية طبيعة جميلة مسماح، ولاسيما في هذه الألوف من الجزائر المنتشرة في البحر، وفي تلك الخلجان التي تعد بالمئين حول الشواطئ، وفي شعاف تلك الجبال

---

(٢) فمن هذه الكتب:

أ- كتاب تاريخ العالم (الترجمة العربية التي تصدرها وزارة المعارف المصرية) ونخص بالذكر الفصول التالية: ١- فكرة الإنسان عن خوارق الطبيعة لاليت سمث. ٢- قيام المدنيات المنظمة للأستاذ ج. ل. ميرز. ٣- حياة المصريين وثقافتهم في عهدهما الأول، للأستاذ أريك بيت. ٤- دول المدن في أرض الجزيرة قبل قيام بابل (للأستاذ ليونارد وولي). ٥- دولة بابل أيام حمورابي لكامبل طمسون. ٦- نظرة عامة في ثقافات البحر المتوسط لماكالستر. ٧- آلهة السحر، لستانلي كوك- وهذا كله في المجلد الأول.

ب- The Myths of Greece and Rome

هـ. أ. جربر By H. A Gueber

جـ- أساطير بلفنش Bulfinch's Mythology

د- آلهة اليونان The Gods of Greece

للويس داير By, Louis Dyer

الدين في الأدب اليوناني Religion in Greek Literature

تأليف ب. ر. كامبل By, Pr. L. Campbell

AHandbook of Classic Mytholgoy
By, G. Howwe, G. A. Harlet

ز- Gods and Goddesses in Art and Legend لهرمن وشلر

ح- الترجمة الإنجليزية لكتاب Abbé Buuer

The Mythology and Fables of Antiquity Explained From History

ط- قصة الحضارة لول ديورانت وترجمة أستاذنا محمد بدران- الأجزاء الخاصة بالشرق الأدنى والصين والهند ومصر.

السامقة التي تلهب الخيال وتذكيه، وبطون الأودية التي تبعث في النفس أسمى سجاياها.

وقد أكسب توزيع الجبال كثيراً من الأقاليم اليونانية استقلالاً محلياً كان نواة لنظام دون المدن المستقلة فيما بعد.. ثم كان هذا النظام معيناً لا ينضب لأساطير الشجاعة والشجعان، حفلت به صحائف الأدب اليوناني في جميع أضربه.

وكان للجو نصيبه هو الآخر في ترقيق الأمزجة هناك.. إذ قلما يعرف أهل اليونان قسوة المناخ التي تعرفها الأقطار الشرقية، أو معظم الأقطار الشرقية.. إذا استثنينا قلة من الأقاليم الداخلية اليونانية التي تحجبها الجبال، فتحرمها من نسيم البحر صيفاً وشتاء.

وقد ساعد هذا كله على ولوع اليونانيين بالحرية، ومقتهم للذل والاستعباد، ففكروا حين فكروا، تفكير الأحرار الذين صفت أخيلتهم، ورقت أمزجتهم، وسمت عقولهم، فكانوا أسبق الأمم إلى تلك الحضارة الذهنية العظيمة التي كانت مزيجاً عجيباً من الشعر في أرقى صوره وأضربه، والتمثيل في أعجب طرائقه وعبقرية القائمين به، والفنون في كل ما تتألف منه من نحت وتصوير وزخرف وبناء وصناعة، والرياضة بكل ما يعرف العالم من جري وسباحة ومصارعة ورمح وقذف، والفلسفة بكل ما تتناوله من نظر فيما وراء المادة، وبحث في المادة نفسها، وكلام في السياسة والأخلاق والنفس، واللغة وعلومها المختلفة، من نحو وصرف وفقه وبيان... إلى آخر المعارف الإنسانية المختلفة التي أتاحت لليونان منزلة فريدة بين الأمم، لا تقل في عالم الذهن عن منزلتها الخالدة في تاريخ الحرب، حينما خضدت شوكة فارس قبل ذلك، وهزمتها في سلاميس وماراتون.

على أن هذا السمو الذهني العجيب لم يأتِ طفرة، بل جاء بعد أن أخذت اليونان تحلم أحلامها الذهبية الغريبة، متأثرة بما نقلته إليها كريت وغير كريت من

أحلام المصريين والبابليين والسومريين والحيثيين والشعوب الضاربة شمالي البلقان وفي جزائر البحر المتوسط وأشباه جزائره.

فكيف بدأوا يفكرون إذن؟(٣) ومتى بدأت أحلامهم التي انتهت إلى تلك الطائفة العجيبة الخلابة من أروع ما دار في أذهان البشر من الأساطير؟

---

(٣) يقول الأستاذ توماس بلفنش Thomas Bulfinch (١٧٩٦– ١٨٦٧) في أساطيره ص ٢٤٠:

"... وللفلاسفة عن نشأة الأساطير نظريات كثيرة منها:

أ– أن جميع الأساطير مشتقة من الكتب المنزلة، وإن تكن الحقائق الأصلية قد بُدلت أو أُخفيت معالمها. فليس ديوكاليون إلا اسماً آخر من أسماء نوح، كما أن هرقل هو نفسه شمشون، وآريون هو يونان. الخ... ويقول السير والتر رالي في كتابه "تاريخ العالم" إن جوبال، وثوبان، وتوبال قايين إن هي إلا أسماء لمركيوري– أي هرمز اليوناني– وفلكان وأبوللو ارباب المراعي والحدادة والموسيقى– وأن التنين الذي كان يسهر على حراسة التفاحات الذهبية هو الأفعى التي خدعت حواء، وأن حادثة صرح النمرود هي نفسها محاولة المردة الثورة على زيوس. وثمة بلا شك طائفة من المتشابهات الأسطورية التي اتفق وقوعها في عصر واحد.. إلا أنها لا يمكن أن تشمل الأساطير كلها.

ب– أما النظرية التاريخية فتقول إن أبطال الأساطير وآلهتها ما هي في أصلها إلا أبطال البشر، والقبائل البدوية القديمة، أخذ الرواة ينسجون حولهم الأقاصيص الضافية، التي كلما جاء جيل وذهب آخر أضيفت إليها الزيادات والحواشي، حتى ارتفع هؤلاء الأبطال في أذهان الناس إلى مصاف الآلهة، فايولوس Aeolus رب الرياح مثلاً، ليس إلا ملكاً من ملوك الجزائر في البحر التيراني، وقد حكم قومه بالعدل، وعلمهم فنون السفر في البحر ومعرفة مهاب الريح وتقلبات الجو.. ونحو ذلك قدموس الذي تذكر الأساطير أنه زرع أسنان التنين فأنبتت جيلاً من المحاربين المسلحين، وما هو إلا أحد المهاجرين الفينيقيين الذي نقل إلى بلاد اليونان أحرف الهجاء وعلمها للأهالي هناك، فكان عمله القبس الأول للحضارة اليونانية.

ج– وتقول النظرية المجازية إن جميع أساطير القدماء ليست إلا رموزاً ومجازات تنطوي على مغزى أدبي، أو غاية دينية، أو معنى فلسفي، أو حقيقة تاريخية... ثم انتهى ذلك كله، وبمضي الزمن، إلى مادة أدبية صرفة في أذهان الناس.. فساتورن مثلاً Saturn هذا الهولة الذي يزدرد أبناءه، إن هو إلا رمز للزمن الذي يسميه اليونان كرونوس Cronos والزمن لا يعفي من الدمار شيئاً من آلاف آلاف الموجودات التي يأتي بها إلى الوجود.. وهذه الفتاة البائسة يو Io (الجزء الأول من كتابنا هذا) ما هي إلا رمز للقمر، وما الوحش آرجوس إلا رمز للسماء ذات البروج التي لا تفتأ تحرس القمر... القمر المسكين الذي لا يفتأ يذرع السموات هائماً لا يدري إلى أين ينتهي.

د– أما النظرية الطبيعية التي تقول بأن العناصر الأربعة (التراب والماء والهواء والنار)، كانت في الأزمان السحيقة أصل العبادات الأولى، وأن الآلهة الرئيسية لم تكن إلا رموزاً، لقوى الطبيعة، ولم يكن أيسر من الانتقال من تجسيم العناصر إلى تصور آلهة عليا مسيطرة على الظواهر الطبيعية.. وهكذا تصورت قرائح اليونان المرحة أن كل شيء في هذا الوجود... من شمس أو قمر أو نجم أو شجر أو نهر أو نبع.. يخضع لإلهٍ خاص به، لا تراه الأعين وهو يرى كل شيء.

أما كيف، فكما بدأت جميع الأمم... وأما متى؟ قبل القرن العاشر قبل الميلاد... وقبله بقرون قليلة غير موغلة في القدم.. وقد كانت أساطيرهم خرافات مما تلوك الألسن، ويُروى حول المواقد، ويحكيه الرعاة والملاحون... ولم يدون من هذه الأساطير شيء إلا في القرن الثامن قبل الميلاد، حينما نظم الشاعر اليوناني الخالد "هسيود Hesiod" منظومته الطويلة "شجرة أنساب الآلهة"(٤): Theogony التي روى فيها كيف خلق هذا العالم، بأرضه وسمائه، ونجومه ومائه وأناسيه ونباته وحيوانه.. كما روى فيها نشأة الآلهة أجداداً وآباء وأحفاداً.

وللشاعر اليوناني الآخر: هومر، أو هوميروس، فضل كبير لا يقل عن فضل هسيود، في التعريف بشطر كبير من الأساطير اليونانية، فقد كان يبث الكثير منها في ثنايا ملاحمه.. مما تناولناه بالتفصيل في مقدمة "قصة طروادة" التي أصدرناها منذ عدة سنوات.

أوفيد Ovid على أن الرجل الذي ندين له بمعظم الفضل في حفظ هذه

ولكل من هذه النظريات نصيب كبير من الصحة، وفي وسعنا أن نقول إن كثيراً من تلك الأساطير كان مصدره رغبة الناس في تعليل أصول الخليقة، فكانت هذه الأساطير، ثم جاء الشعراء فأطنبوا في خصائص الأرباب ووصف قواهم وتصوير ملامحهم.. وبهذا فتح الميدان للفنانين من مثالين ومصورين، فأبدعوا في نحت التماثيل، وتصوير الصور، لأرباب الأولمب، وكان أعظمهم جميعاً المثال العبقري الخالد، فدياس، الذي نحت تمثال زيوس، سيد الآلهة، فكان آية الآيات في تماثيل اليونان القديمة.. إذ كان يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، وارتفع قاعدته اثني عشر قدماً، وهو تمثال يبدو فيه الإله الأكبر جالساً على عرشه، وقد كفت أجزاؤه التي تشير إلى اللحم بالعاج والذهب في أصل من الخشب أو الحجارة، بينما كانت الثياب والحلي من الذهب الخالص، والجواهر، وقد كلل رأس الإله بإكليل من أغصان الزيتون، وقبضت يمينه على صولجان ويسراه على تمثال صغير للنصر- أما العرش فكان من خشب الأرز المكفت بالذهب والجواهر الثمينة.

وقد اعتمد فدياس في نحت تمثاله على وصف هومر لسيد أرباب الأولمب الوارد في الجزء الأول من الإلياذة.

ثم صنع فدياس تماثيل أخرى، كان في مقدمتها تمثال مينرفا العظيم الذي كان يزين بهو البارثينون.

وقد كان لهذه التماثيل الرائعة أثرها العميق في غرس تلك الديانة اليونانية الأسطورية في قلوب الشعب.

(٤) شك الشاعر بوزايناس (٢٠٠ ق.م) في نسبة هذه المنظومة إلى هسيود، إلا أنها صحت أنها له وإن اشتملت على أجزاء ليست له قطعاً، ومن ذلك الفصل الذي يحمل عنوان "درع هرقل" الذي يبدو عليه الأثر الهوميري.

الأساطير هو بلا شك أوفيد الروماني (Publius Ovidius Naso) المولود في سنة ٤٣ ق.م والمتوفى سنة ١٧ من ميلاد المسيح. وقد كان من كبار رجال القانون في رومة، ثم ترك القضاء، وتفرغ لقرض الشعر والانكباب على معاقرة اللذات حتى نفاه الإمبراطور أوغسطس إلى بلدة تومي Tomi على نهر الدانوب، حيث توفي متأثراً بسوء الأحوال الجوية، بعد أن عاش فيها غريباً فريداً، لا أنيس له فيفهمه، ولا جليس فيواسيه.. وقد كانت أشعار أوفيد الأسطورية تمتاز برشاقة الأسلوب، وتدفق العاطفة، وجمال الوصف، ورقة التعبير، وقد ساعده على ذلك يساره الجم ونشأته المخصبة، وتربيته في جنات من نعيم، فقد أتيح له السفر إلى اليونان نفسها للتعلم وثقف ما فيها من معارف، وهناك تفرغ لجمع أشتات تلك الأساطير الرائعة، المدوّن منها وغير المدوّن، حتى إذا عاد إلى روما، وتولى مناصبه القضائية فيها، لم يشغله ذلك عن نظم هذه الأساطير، وبعث الحياة فيها، فنظم مجموعته الطويلة الأولى، Metamorphoses أو الخرافات الشعبية ثم أردفها بمجموعته الثانية Fasti[٥] والمجموعة الأولى هي التي حفظت لنا جميع ما وصلنا من أساطير اليونان والرومان، وقد لعبت يد أوفيد الصناع في تلك الأساطير فهذبها ذوقه الفنان، وطبعه الصافي، وأسلوبه الشائق، وقدرته التي لا تحد على وصف الجمال وسحر الطبيعة، وخلجات الأنفس.. وذلك كله هو الذي ضمن لها الخلود، وكتب لها أن يقرأها الشباب فيُسحَر بها، ثم يعيدون تلاوتها شيوخاً فتبعث فيهم أروع ذكريات الشباب، وأحر أحلام الصبا.

فرجيل Virgil- Virgilius Moro

أما فرجيل.. شاعر الرومان الأشهر، فقد كان يكبر أوفيد، إذ ولد ومات قبل الميلاد (٧٠– ١٩ ق.م)، لكن أوفيد أدركه وتأثر به، وإنياذة فرجيل الـ Aeneid

---

(٥) أما أشعار أوفيد في المنفى فقد كانت كلها آهات يترجم بها عن أحزانه، وأهمها: الـ Tristia ثم خطابات من يونتس أي البحر الأسود– وهي الرسائل التي كان يبعث بها إلى أهله وخلانه من هناك.

التي ربط ناظمها بينها وبين الأساطير اليونانية بوشائج النسب، هي من الصور اللامعة التي تنعكس فيها الآلهة اليونانية، والأخيلة اليونانية، ولكن في ثياب رومانية، وأسماء رومانية.. فقد نقل الرومان ديانة اليونان الوثنية إلى بلادهم واتخذوها لهم ديناً، دون أن يغيروا في هذه الديانة شيئاً ذا بال.. إلا ما بدلوه من أسماء آلهتها.. وقد كان في عملهم هذا صون لهذه الديانة الأسطورية وإبقاء على أساطير اليونان– وإن استحدث الرومان أساطير جديدة لها بهجتها ولها روعتها.

فهؤلاء إذن هم أصحاب الفضل في حفظ هذه الأساطير البديعة التي تخب ألبابنا اليوم، وإن كان لابد من أن نضيف إلى أسمائهم أسماء أخرى، فلا ضير من ذكر أسماء الشعراء المسرحيين، وفي مقدمتهم اسكيلوس وسوفوكلس ويوريبيد ز من شعراء المآسي اليونانيين، وأرستوفانز شاعر الملاهي الفكه.. ثم من سار على نسقهم من شعراء المسرح الروماني، وفي مقدمتهم بلوتوسي وتيرانس وسنكا.. ممن نرجو أن نقدمهم في كتاب خاص غير هذا الكتاب إن شاء الله...

خيوس وزوجته نيكس:

لقد كان العالم، قبل أن يأخذ شكله الحالي "هيولي" أو كما كان اليونانيون يقولون خيوس Chaos أي شيئاً كبيراً مضطرباً لا يستطيع أحد أن يتبينه.. لأنه لم يكن يوجد أحد في هذا العهد السحيق الذي يسبق الأزل! ولأن الكون كله كان يخبط في ظلام قاتم دامس.. إذ لم يكن ثمة ضوء يزيل الظلمة التي كانت تضرب بجرانها على كل شيء.

واعتبر اليونانيون هذا "الخيوس" أو تلك المادة، ربهم الأول، وكانت منهم طائفة تعتقد أن هذه الهيولى شيء.. والإله المسيطر عليها شيء آخر.. وإن يكن اسمه هو الآخر "خيوس".

وكان خيوس يجلس على عرش هذه الهيولى وإلى جانبه زوجته نيكس Nyx أو نوكس Nox ربة الليل الزنجية، التي لم يكن محياها الأسود، وثيابها الدجوجية تستطيع أن تنشر حولها إلا الظلمة التي تضرب في الظلمة، والسواد الذي يضاعف السواد.

إربوس:

ومضت القرون.. وتتابعت الأحقاب.. وأحس الزوجان بملل شديد ينتابهما، فحياتهما الرتيبة التي لا تتغير أصبحت شيئاً بغيضاً لا طعم له..

ورأى خيوس أن يستعين بولده أربوس Erebus (أو الظلام) لتبديل هذه الحال، فاستدعاه إليه، وشاوره في الأمر، فقهقه أربوس، وصارح أباه بأنه لم يعد يصلح لحكم هذا العالم، لأنه شاخ، وتقدمت به السن، ومن الخير له، ولذلك الكون أن يترك مقاليد الحكم لولده الذي يعيش عيشة فارغة، لأنه بلا عمل.. فإذا رضي هذا الرأي، وجب أن ينزل لولده عن زوجته نيكس، أي أم أربوس، كي تكون لابنها زوجة!!.

وقد ثار خيوس لهذه القحة.. لكن ابنه عبث به، وخلعه من الحكم، واغتصب أمه.. ومن ثمة أصبحت له زوجة.

أثير وهيميرا:

وعاشا أدهارا طويلة يسيطران على الهيولى الضاربة في الظلام الشامل الدامس حتى أصابهما الملال كما أصاب خيوس من قبل، حتى شب ابناهما أثير AETHER (الضوء) وهيميرا (النهار) عن الطوق، فتآمرا فيما بينهما على خلع أبويهما من الحكم، والسيطرة على مقاليد العالم.. وقد أفلحا في ذلك.. وفي اليوم نفسه الذي أفلحا فيه شع نورهما في آفاق هذا العالم المضطرب الذي لا نظام فيه، فلما تبيناه، أسفهما أن يرياه على تلك الفوضى فصمما على خلق شيء جميل يكون قوة للعين، وبهجة للنفس، من تلك الهيولى السائبة، التي تخبط في الفضاء اللانهائي على غير هدى. وكما صنع أبوهما من قبل، استدعيا إليهما ولدهما:

ايروس:

وهو نفسه أمور.. أو إله الحب (!) وعقد الجميع مؤتمراً لبحث تلك المشكلة، ثم شمر الثلاثة عن ساعد الجد، فخلقوا (بونتس Pontus) أو البحر، ثم جايا، أو جي- أو الأرض.

وابتهج الآلهة الثلاثة حينما وفقت جهودهم إلى تلك النتيجة.. لكن ايروس لم يكن كثير الابتهاج مثل أبويه.. فقد نظر فرأى الأرض شاحبة مجدبة، فساءه ألا تكون شيئاً أجمل من هذه الصحراء التي تضل فيها العين، وتكرث بها النفس، فتناول سهامه التي تشيع الحياة في كل شيء تمسه أو تغيب فيه فجعل يصوب منها عدداً كبيراً لا حد له في مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها.. ولم تكن إلا لحظات، حتى اهتز وجه الأرض، وأخذ يتشقق عن الخضرة والصفرة والحمرة.. تمتلئ بها الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وتطن فيها أسراب النحل، وتغني جماعات الطير، ويبسم أشتات الزهر، ويستطيل الدوح الباسق، والأيك الفارع، والغاب المنبسط، والقصب المصفر... ثم إذا آلاف المهى، وآلاف الحيوان من كل نوع، تندفع إلى هذا كله، فمنها ما يأوي إلى وجار، ومنها ما يستقر في غابة، ومنها ما يمشي على أربع، أو يزحف على بطنه، ومنها ما يأكل العشب، ومنها ما يفترس الحيوان الضعيف الذي لا حول له، ولا يملك أن يدفع عن نفسه بمخلب أو ناب! حتى الماء... لقد امتلأ بمثل ما امتلأت به الأرض.

وأصبح كل شيء جميلاً الآن.. وأخذت الحياة تدب في كل شيء.. وأخذت البهجة تغمر الأشياء جميعاً.

واستيقظت الأرض- جي- نفسها آخر الأمر.. فأعجبت بكل هذه الآيات التي صنعتها سهام ايروس، لتجعلها أجمل شيء في هذا الوجود.. فضحكت..

وعرفت أنها ربة.. ثم أدركت أن شيئاً ينقصها.. إله ذكر.. كما للآلهة الأخرى آلهة ذكور... فخلقت أورانوس Uranus أو السماء[٦]!

* * *

هذا العالم:

هذا، وقد كان اليونانيون يعتقدون أن للأرض قرص دائري بلادهم في وسطه، وأن جبل الأولمب Olympus مأوى الآلهة هو مركزها تماماً، وكانت الدنيا في رأيهم– تنقسم قسمين كبيرين يقع بحر بونتس (البحر المتوسط والبحر الأسود) بينهما، ثم يجري حولهما بحر الأوقيانوس الأعظم Oceanus وذلك البحر الذي لا تثيره ريح ولا يمسه لغوب.. وهو مصدر جميع الماء الذي تفيض به البحار والأنهار والقنوات والينابيع.

أرض الطوبى:

وكانوا يعتقدون أن الأرض التي تقع شمال بلادهم مباشرة هي أرض الطوبى، أو أرض الطيبين الطاهرة، أو أرض الهيبربوريين الأبرار: Blameless Hyperboreans الذين ينعمون بخير دائم وربيع لا ينتهي في جنة حريزة لا يمكن الوصول إليها بالبحر أو بالبر، لا يصيبهم فيها نصب ولا مرض ولا هرم ولا فناء.. وكانوا على فضل عظيم، وهدى لا ينحرف، بحيث كانت الآلهة تزورهم، وتتردد عليهم وتشارك في ولائمهم وأعيادهم وألعابهم. وكانت الشمس لا تغرب عن بلادهم.. وظلالها تتفيأ أبداً، ذات اليمين وذات الشمال.

---

(٦) وبعد فهذا هو أشهر أسفار التكوين– إن صح هذا التعبير– التي آمن بها اليونان القدماء في دينهم الأسطوري.. وثمة سفر آخر يزعم أن أريوس وفيكس خلقا بيضة ضخمة خرج منها ايروس، إله الحب– ليتولى بنفسه خلق الأرض.

وكانوا يعتقدون كذلك أن أرضاً طيبة أخرى كانت تقع جنوب بلادهم، وكانت تشبه طوبي الشمال في كل شيء، وكان يسكنها قوم أبرار يدعون الأثيوبيين Ethiopians الذين كانت الآلهة تحبهم وتزورهم وتساهم في أعيادهم وحفلاتهم.

جزائر الأبرار أو جنة اليزيوم:

وكانت لهم جنة ثالثة، فيما روى هومر في الأوذيسة، موضعها بعض جزائر الأوقيانوس التي تدعى "جزائر الأبرار" أو "فردوس" اليزيوم. ويرجح بعض الشعراء، أنها مجموعة جزائر (الخالدات تجاه شاطئ أفريقيا الغربي) وإلى هذه الجنة يذهب الصالحون الذين ترضى عنهم الآلهة، فلا يرون فيها برداً ولا زمهريراً، ولا يصيبهم فيها مرض ولا تنتهي فيها مسراتهم البريئة أبد الدهر، ولهم فيها ما يشتهون، ويستطيعون أن يروا فيها آلهتهم فتغمرهم أضواؤها كلما أرادوا[*]، ولهذه الجنة شمسها الخاصة، وقمرها الخاص، وسماؤها ونجومها.. وربما المقيم هو الإله رادامانتوس (ردمنتوس Radamantus)، وهو ابن زيوس من أوروبا.

عهد أورانوس وجي وقصة الجبارين:

ثم جاءت نوبة أورانوس وجي، فانتزعا السلطان من أثير وهميرا، واستبدا بالحكم من دونهما.. ولم تطل إقامتهما على قمة جبل الأولمب، حتى وجدا أنهما والدان لاثني عشر مارداً من الجبارين Titans كان كل منهم في قوة أورانوس وشدة بأسه، حتى لقد فزع أبوهم منهم، وجعل يتناول كلاً منهم، فور ولادته، ثم يقذف به

---

[*] أخذ علينا بعض نقادنا الأفاضل أننا نستعمل الأسلوب القرآني في معرض هذه المشاهد الوثنية، ونحن ننتهز هذه الفرصة فنذكرهم (مشكورين) أن هذه الأوصاف قد وردت على ألسنة الشعراء القدامى- ومنهم هسيود وهومر- وتكاد ألفاظنا العربية (وإن طابقت أسلوب القرآن) تكون ترجمة للأصل الذي قيل قبل المسيح بقرون طويلة، وأرجو ممن يثقف اللغة الانجليزية أن يرجع إلى ترجمة كوتيرل Cotterill الشعرية للأوذيسة، أو ترجمة إلتون Elton الشعرية لهسيود، أو ترجمة دريدن Dryden وكنج King لاوفيد أو تراجم بوب وبريانت Bryant وتشابمان لهومر ليقتنع بأن استعمال الأوصاف القرآنية فيما يشبهها تمام الشبه أوصاف الأقدمين شيء لا حرج فيه ولا أروع منه.

في وهدة تاتاروس Tartarus حيث توضع الأغلال في أعناقهم، ثم يقرون فيها أبد الدهر، وذلك كيلا يصنعوا في أبويهما ما صنع هذان في أبويهما من قبل.

سكان تارتاروس وانتصار كرونوس:

أما هذه الوهدة فكانت في أعمق أعماق الأرض، وقد قذف أورانوس إليها بأولاده الذكور الستة: أوشيانوس وكويوس وكريوس وهيبريون[٧] وبايتوس.. ثم كرونوس، كما قذف إليها ببناته الست: ايليا، ورها، وثميز، ومينوميزين وفوبيه.

ولم يمضِ على هؤلاء زمن طويل حتى انفتحت بوابة تارتاروس الضخمة النحاسية ليلقي أورانوس ثلاثة من مردة السيكلوب (أو الكيكلوب) ذوي العين الواحدة، ممن ولد أورانوس وجي فيما بعد.. أما هؤلاء فهم: برونتس (الرعد) وستيروليس (البرق) وآرجيس (البرق المنتشر) وقد اضطربت تارتاروس بورود هؤلاء، وجعلت تدوي وتنتفض، لأنهم أثاروا إخوتهم وجعلوهم يضجون طلباً للحرية..

ثم لم يلبث أورانوس أن قذف بثلاثة من أبنائه آخرين، أعنف من كل من قذف من قبل، أوشد بأساً.. وحسبك أن تعرف أن لكل منهم مائة يد بمائة ذراع جبارة.. وهؤلاء هم: كونوس، وبرياريوس، وجيجيز.

ويطلق اليونان على هؤلاء الثلاثة الأخيرين الـ سنتماني Centimani (أو الكنتماني).

ولم تكن جي راضية عن تصرف زوجها قط، بل كانت لا تفتأ ترجو وتلح في

---

(٧) هيبريون Hyperion هو والد الشمس والقمر والفجر في الميولوجيا اليونانية، ولما تمت الغلبة لزيوس على المردة (التيتان) نزع زيوس سلطان هيبريون على الشمس وعهد به إلى ابنه أبوللو.. وسلطانه على القمر وعهد به إلى ديانا.. وسلطانه على البحر وعهد به إلى أورورا.

ثم عهد زيوس بسلطان أوشيانوس على الماء إلى أخيه يوسيدون "نبتيون.

هذا.. وسنعود إلى وصف تارتاروس في كلمتنا عن بلوتو.

الرجاء أن يطلق سراحهم وينقذهم من تارتاروس، لكنه لم يقبل لها رجاء، ولم يبالِ بما كانت تقاسيه من حزن وشقاء، حتى اضطرت أمهم المسكينة إلى النزول بنفسها إلى وهدة تارتاروس، ثم راحت تحرضهم على الثورة على أبيهم، وانتزاع صولجان الملك من يده.. إلا أن أحداً منهم لم يجرؤ على ذلك، فلما ايست منهم، انفردت بأصغر أبنائها كرونوس وأنشأت تحرضه وتحضه، حتى ثارت نخوته، وأقسم برأسها ليخلصن العالم كله من شر أبيه..

وكرونوس هو نفسه (الزمن!) وهو ما يطلق عليه الرومان اسم (ساترن Saturn) وقد أطلقت أمه سراحه، ثم سلحته بمنجل، وزودته بنصائحها، وأرسلته ليؤدب أباه، وليخلعه من عرشه.

وانتصر كرونوس على والده، ثم وضع الأغلال في عنقه ويديه ورجليه، ونزع منه الملك، واستوى هو مكانه على عرش العالم، ليحكمه إلى الأبد..

وقد غضب الإله الشيخ– أورانوس– ولعن ابنه... ثم تنبأ له بأن الذي صنعه به، سيصنعه به أحد أبنائه... وسيقع هذا قريباً!

وهز كرونوس كتفيه، ولم يبالِ بنبوءة أبيه.. ثم ذهب من فوره إلى تارتاروس ففتح بوابتها وأطلق سراح أخوته وأخواته الذين أذهلهم تحرير أخيهم لهم، ولم يدروا كيف يشكرونه... فاتفقوا جميعاً على طاعته، والخضوع لحكمه...

وكانت رها Rhea (أو سيبيل Sybell أو أوبس Ops) أجمل أخواته جميعاً، فاتخذها زوجة له، ثم عين لكل من أخوته جزءاً بعينه من الكون ليحكمه، ويهيمن عليه.. فمنح أخاه أوشيانوس وأخته زيتيس– التي أصبحت زوج أوشيانوس– ملك البحار وجميع ما يجري على وجه الأرض من أنهار وترع وقنوات.. كما منح أخاه هيبريون، وأخته فوييه، الهيمنة على مداري الشمس والقمر.. الخ..

زيوس:

ثم ساد السلام ربوع الأولمب... وانتشى كرونوس بخمرة هذا النصر السريع الحاسم على والده الشيخ.. ولم يبالِ أن تمضي الأيام.. حتى قيل له إن زوجته رها قد جاءها المخاض وإنها تعاني من آلام الوضع ما تعاني.. وهنا.. تذكر الإله الشاب لعنة أبيه الإله الشيخ، وتذكر ما أنذره به من أن أحد أبنائه سوف ينتقم منه فيخلعه من الملك كما صنع هو بأبيه.

تذكر هذا فوجم.. ثم نهض من فوره فذهب إلى غرفة رها.. ولبث بجانبها حتى وضعت طفلها الغلام الذكر، فأخذه بحجة تدليله، والاستبشار بالنظر إليه، لكنه لم يلبث أن فتح فمه الكبير الرحب، ثم قذف فيه بالغلام الذي تردى في لهاته، ثم نزل يهوي إلى معدة أبيه ورها تنظر وتتحسر!...

ويضحك كرونوس ويبتهج.. وينظر إلى رها مداعباً.. ويذكرها بلعنة كرونوس.. ونبوءته فتهدأ إلى حين.. لكنها تهدأ وفي القلب حسرة وملء جوانحها لوعة.

ثم تلد رها مرة أخرى.. ولا يكون المولود الجديد أسعد حظاً من أخيه السابق... ثم تلد رها مرة ثالثة.. ثم رابعة.. إلا أن كرونوس لا ينفك يبلع أبناءه جميعاً..

وهكذا تتجدد الحسرة...

ولكن رها تصمم على أن تضع حداً لهذا كله الذي ينزله بها كرونوس... هذا الزمن... الذي يخلق دائماً... ليفني دائماً!!

ثم ولد لها آخر الأمر ولدها زيوس الذي أقسمت ألا تسلمه لأبيه أبداً.. لكن كرونوس عرف أنها وضعت هذا الغلام الذكر، فأسرع إليها ليتسلمه منها.. وحاولت رها أن تثير في قلب الوالد غريزة الحنان التي يؤمن اليونانيون أنها خلقت قبل أن تخلق الآلهة! ولكن.. عبثاً حاولت رها ذلك.. وهنا لجأت الأم المسكينة المضعضعة إلى الحيلة، فقد أخفت ولدها عن عيني كرونوس وسمعه، ثم جاءته بحجر ثقيل ملفوف في

قماش كثير ناعم.. وقدمت إليه على أنه وليدها الجديد، وراحت في الوقت نفسه تتشبث بحملها وهي تقدمه إلى الإله الغبي.. وتبكي.. وتسترحم.. مما جعل الإله يسرع فيلقي بالحمل كله.. إلى فمه... ليدفعه الفم إلى اللهاة.. واللهاة إلى البلعوم فالمعدة...

ثم يقهقه الإله الغبي قهقهة عالية.. ثم ينصرف لا يلوي على شيء.. غير شاعر بهذا الحجر الثقيل الذي قذف به إلى جوفه.. وأي معدة أقوى على الهضم.. حتى هضم الحديد، من معدة الزمن؟

* * *

وفرحت رها بانطلاء حيلتها على زوجها الساذج.. ثم أسلمت وليدها إلى طائفة من عرائس[*] جزيرة بحر ايجه ليربينه، ويسهرن عليه، وينشئنه التنشئة الخليقة برب المستقبل، وسيد الأولمب، وجبار الأرض والسموات!

وانتقى العرائس أحسن عنزة لديهن– العنزة أمالثيا[٨]– لترضع الإله الطفل... في كهف سحيق من كهوف جبل ايدا.

وأمرت رها بحشد عدد هائل من الكهنة حول الإله الطفل كي يسبحوا حوله تسبيحاً عالياً مدوياً، ولاسيما حينما يصرخ أو يهتف أو يرفع صوته في مناسبة من المناسبات... وذلك حتى لا يسمعه أبوه المستوي على عرشه فوق جبل الأولمب، فيكشف أمره، ويسرع ليودي به... فكان هؤلاء الكهنة[٩]– أو الكوريبانت– لا ينفكون يسبحون ويرقصون ويهتفون بالهتافات الحربية، وينشدون أناشيد القتال، ويدقون على دروعهم دقاً شديداً، حتى يخفوا عن كرونوس صيحات ولده الصغير

(*) العرائس الميلوسيات نسبة إلى جزيرة ميلوس The Melian Nyphs

(٨) Amalthea.

(٩) Coryhant (or) Curetes.

الجبار.. الذي كان ينمو نمواً سريعاً خاطفاً، ويبشر بأنه سوف يكون أقوى الآلهة جميعاً..

ولم تجد جميع تلك الاحتياطات في إخفاء هذا الأمر عن كرونوس، فقد جاءه آخر الأمر نبأ زيوس.. فاضطرب.. وذكر لعنة أبيه التي توشك أن تتحقق...

وبادر الإله الشيخ من فوره إلى الاستعداد كي يبطش بولده.. لكنه قبل أن يذهب شطره، بادر إليه زيوس، وقد اشتد اليوم عوده، وقوي ساعده، ثم بدأت المعركة بالكلام، ولم تلبث أن صارت حرباً طاحنة تهتز لها جوانب الأرض، وترعد من هولها آفاق السموات وتتلوى أفلاك الكواكب...

وانتصر زيوس، وقبض من فوره على صولجان الملك، ولم تدعه أمه في هذه الظروف الحرجة قط، بل كانت تزوده بنصائحها، وتفتح له مغاليق الأمور بمشوراتها.. ثم ذكرته بإخوته الذين بلعهم أبوه.. والتمست معونة الفتاة ميتيس Metis ابنة رب البحار أوشيانوس، والعارفة بأسرار الأعشاب، فصنعت جرعة من أقوى هذه الأعشاب، وأشدها أثراً... وأجبر زيوس أباه على شرب الجرعة، فشربها، ولم تمضِ فترة حتى أخذ يخرج أبناءه، الذين أزدردهم في قديم الزمان.. فخرج يوسيدون وبلوتو.. ثم هستيا وديميتير وحيرا(١٠)، الأولان ذكران... والآخر أنثيات..

ثم أخرج الحجر الذي ابتلعه مكان زيوس.. وقد خلد هذا الحجر في دلفي فيما بعد، وأخذ الحجاج يلتمسون منه البركات!

وراح زيوس يوزع ملكوت العالم على إخوته.. فنصب أخاه يوسيدون على ملك الماء.. وجعل أخاه بلوتو على ملكوت العالم الآخر.. على دار الموتى!!

---

(١٠) ويسمى الرومان هؤلاء على التوالي نيثيون وبلوتو- وفستا وسيرس وجونو- كما يسمون زيوس جوبتير أو جوف- ومن أسماء بلوتو دليس وهيدز أو هادس.

وأوركوس وايد ونيوس (انظر الفصل الخاص ببلوتو فيما بعد)..

حرب المردة:

وقد رضي بعض عقلاء المردة (من التيتان Titans) بهذا التوزيع، واستسلموا لنظام الحكم الجديد، وكان من هؤلاء أوشيانوس وهيبريون، ثم منوميزين (أم ربات الفنون فيما بعد) وتيميس.. إلا أن مردة آخرين أحفظهم هذا التوزيع فثاروا عليه. وأعلنوا الحرب على سيد العالم الجديد، لأنهم لم يرتضوا أن يحكمهم زيوس إلى الأبد.. وهم أعمامه وأحق بالحكم منه.. ناسين، أو متناسين، أنه ابن أخيهم كرونوس، الذي قهر أباهم أورانوس، وأنقذهم من وهاد تارتاروس ذات اللظى.. والنار الكبرى..

وكان زيوس أعقل من أن يتصدى لحرب هؤلاء الجبابرة وحده، وهم عصبة أولو بأس شديد وعزم من حديد.. فراح يلتمس له أجلافاً وأعواناً.. وقد ذكر أن السيكلوب لا يزالون في وهدة تارتاروس، فانطلق من فوره فأطلق سراحهم، وأعاد إليهم حريتهم، على أن يمدوه بصواعقهم الفتاكة التي لا يحسن أحد صنعها مثلهم.

ولم يبخل السيكلوب بها على منقذهم، بل راحوا يصنعونها له بالآلاف، وأنشأ هو يقذف بها أعداءه في حرب لا تهن ولا تضعف، طيلة عشر سنوات قاست منها الأرضون والسموات أمر الأمرين... وحارب فيها ثوار التيتان حرباً حمراء محاولين أن ينتزعوا ملك أبيهم من غاصبه.. ولكن هيهات! لقد ثبت زيوس، ولم يفتأ يقذفهم بصواعقه حتى استسلموا آخر الأمر، بعد أن أيسوا مما كان نفوسهم تصبو إليه.. إلا أن زيوس رأى ألا يصفح... بل أجبرهم على العودة إلى تارتاروس، ليبقوا فيها أبد الدهر، في حراسة بوسيدون رب البحار.

أما ميدان هذه الحرب الطاحنة فقد كان بطاح تساليا في شمال اليونان، حيث أخذ التيتان الثائرون يراكمون الجبال فوق الجبال كي يصلوا إلى زيوس رب الصواعق، المستوي فوق قمة جبل الأولمب!

انسحاب كرونوس:

وقد فزع كرونوس نفسه من هول هذه المعركة الحامية الطويلة، فانسحب إلى إيطاليا (!) وكانت تدعى في ذلك الوقت "هسبريا Hesperia" حيث أنشأ له ملكاً خاصاً، وعرشاً عتيداً، وظل يحكم- بعيداً من ضجيج الأولمب، وصخب آلهته- أدهاراً طويلاً.. ويقولون إنه أصبح في شيخوخته إلهاً كريماً نبيل الخلق رقيق المزاج...

التيفون:

وقد ساء انتصار الربة جي- أو جايا- أو ربة الأرض- وهي كما قدمنا زوجة أورانوس وأم التيتان وغيرهم من المردة الجبارين- لقد ساءها أن ينتصر حفيدها زيوس على أبنائها.. وأن يذلهم هذه المذلة بردهم إلى وهدة تارتاروس، بعدما نجوا منها، فأقسمت لتسلطن على زيوس وجميع من ناصروه في تلك الحرب مخلوقاً بشعاً عظيم الجبروت، لا يملكون هزيمته، ولا يستطيعون الوقوف في وجهه، فخلقت هذا المارد الجبار تيفون: Typhon أو تيفويوس Typhoeus- الذي جعلته هولة لم يرَ الكون أضخم ولا أقوى منه، وأنبتت في جسمه مئة تنين هائل تنفث السم، وآلافاً من العيون المتأججة التي ترمي بالشرر، الذي تكفي الواحدة منه لإزالة جبل راسخ من موضعه.. أما صوته فصخاب مدوٍ كهدير البحار كلها مجتمعة، أو رعد السحب جميعها تراكم بعضها فوق بعض.

خلقته جي.. ثم أرسلته على الأولمب، فكان مفاجأة مفزعة لزيوس، وجميع من حوله، إنهم لم يثبتوا لحظة لهذا التيفون العجيب، بل لاذوا بأذيال الفرار من قصورهم البلورية في شعاف الجبل المقدس هلعين مفزعين، ميممين شطر مصر، ليختفوا في رياض القصب التي تملأ مستنقعات الدلتا (!) ولم يكتفوا بذلك، بل آثر كل منهم أن يستخفي في صورة حيوانية.. فسحر زيوس نفسه فصار "كبشاً" وسحرت أخته وزوجته حيرا نفسها فصارت بقرة!

ثم مضت أدها-... وضحكت جي شامتة.. ثم فاء زيوس إلى أمره.. فخجل من جبنه خجلاً شديداً.. وجلس يفكر!

وصمم آخر الأمر على أن يعود إلى الأولمب، وأن يتقدم لمحاربة التيفون الهائل، وأن يسلط عليه صواعقه.. فعاد.. وانتصر.. وقتل التيفون.. ووقف على جثته العجيبة مستهزئاً بجي!! ثم ذهب فاستوى على عرش الأولمب، لينظر ماذا تصنع جدته الرهيبة!

أنكيلادوس:

وغيظت جي.. واشتد حنقها على زيوس.. فخلقت له جباراً هولة لا يقل عن التيفون بشاعة وشناعة.. وهذا هو الـ أنكيلادوس، الذي أفزع زيوس وقذف الرعب في قلبه.. إلا أن محنة التيفون كانت درساً لسيد الأولمب، فلم يهرب ولم يغادر الأولمب، بل شنها حرباً شديدة على الجبار الجديد، حتى انتصر عليه، ولم يدعه يفلت حتى اضطره إلى الدخول في كهف ضيق سحيق تحت جبل أطنة، حيث قيده فيه بالسلاسل والأغلال الغليظة.. وتركه يقاسي الوحدة والوحشة، ويرسل الأنين والآهات والتوجعات، مختلطة أحياناً كثيرة بألسن النيران، وكثيف الدخان.. وكلما تقلب على جمراته اضطربت الأرض وزلزلت زلزالها.

وقد مضت الآن أدها- وأدها- على أنكيلادوس وهو منبطح تحت جبل اطنه.. وقد تعود حاله هذه.. فخف ضجيجه، وقلت حممه.. لكن الناس لا يزالون يخشون بأسه، ولا يقتربون منه إلا بمقدار!

* * *

ثم دعا إليه أخوته وأخواته من جديد، وشرع يحكم العالم غير مدافع ولا منازع واحتفظ لنفسه بحق الإشراف على عالمي أخويه، يوسيدون وبلوتو متى أراد.

أما التيتان فقد استسلموا إلى الأبد.. بعد إذ لم يجدوا بداً من هذا الاستسلام وكانوا قد تزاوجوا في أيام سعدهم.. فتزوج كرونوس رها كما ذكرنا، وكان ايابيتوس Iapetus قد رأى إحدى الأوسيانات- بنات أوشيانوس- واسمها كليمين Clymene فشغفته حباً، ثم تزوجها، فأنجبا أربعة من أشهر المردة المحبوبين، وهم أطلس (حامل القبة

الزرقاء)، ومنيوس، ثم برومثيوس(*).. وايمثيوس(**).

ولهذين الأخيرين مكانة ملحوظة في الأساطير اليونانية، فهما خالقا الإنسان، وأولهما عادى زيوس من أجل البشر.. وسرق النار المقدسة من شعاف الأولمب ليهديها إليهم فعلمتهم الفنون، وبذلك أثار عليه نقمة سيد الأولمب، الذي أمر ولده فلكان بتصفيده ودقه في جبال القوقاز، وتسليط نسر باشق ينهش كبده من مشرق الشمس إلى مغربها كل يوم، حتى أنقذه هرقل آخر الأمر. وقد كرهت الآلهة هذا الإنسان، مخلوق برومثيوس، وأرادت أن تصب جام غضبها عليه، فخلقت له "المرأة" وأهدتها إليه!...

(*) ومعنى برومثيوس البصيرة، وفي مقدوره التنبؤ بالماضي والمستقبل.

(**) ومعناه الفكر الطارئ.

الإنسان في هذه الأساطير

وفي المعركة التي نشبت بين زيوس والمردة (التيتان) انحاز بروميثيوس وأخوه الأصغر ابمثيوس إلى جانب سيد الأولمب، بالرغم من انحياز أبيهما إلى جانب أعداء زيوس... وقد سر زيوس لذلك سروراً عظيماً، واختار بروميثيوس ليخلق كائنات حية تعمر وجه الأرض.

وقد فرغ بروميثيوس هو وأخوه لهذه المهمة، فخلقا بدائع من الطير والحيوان والدواب، مما يمشي على أربع، ومما يزحف على بطنه ومما يطير في الهواء وما يسبح في الماء.. وكانا يخصان كل صنف منها بشيء يميزها من سائر المخلوقات، فهذا حيوان تميزه القوة، وذاك حيوان يميزه الجمال، وذاك طائر يتفرد بأصباغه وحسن ألوانه، وهذا طائر آخر ساء حظه فجاء أسود اللون كاسف الهيئة.

ثم أراد بروميثيوس أن يخلق شيئاً لا تستطيع الآلهة نفسها أن تخلق مثله.. فأخذ قطعة من الصلصال فصورها على صورة أرباب الأولمب، لقد جعلها تقف على رجلين، وترنو بعينيها إلى السماء.. وجعل لها ذهناً جباراً مفكراً.. ذهناً يفكر في كل شيء.. لا كذهن الحيوانات التي لا يعدو تفكيرها طعامها وشرابها وصغارها.

لقد خلق بروميثيوس الإنسان! ولم يبالِ أن يكون زاهي اللون كالببغاء، أو حسن الصوت كالبلبل، أو ضخم الجثة كالفيل، أو فاتك المخالب كالأسد، أو رشيق الوثبة كالفهد؛ أو كحيل العينين كالمهاة، أو حلو اللفتة كالغزال.. كلا.. لم يبالِ بروميثيوس بشيء من ذلك وإن كان قد أودعه شيئاً قليلاً من كل ذلك.. ولكن الذي عنى به بروميثيوس هو رأس مخلوقه الجديد، وروحه ويده.. وهي هذه العجائب الثلاث التي لم تتيسر مجتمعة حتى للآلهة!

ولاحظ برومثيوس أن أخاه ايمثيوس يسرف في إهداء الكثير من المنح التافهة للحيوانات التي يخلقها، ومن هذه المنح: الألوان، وسحر العيون، والصوت وسرعة الانقضاض وحدة البصر.. فجلس يفكر في شيء يكون أعظم من ذلك كله.. يهديه إلى الإنسان، ليفتق ذهنه ويكبر من روحه،ويوسع آفاق مداركه..

ثم ضحك برومثيوس.. ووضع سبابته على طرف جبينه فجأة.. وذهب نحو مستنقع قريب فانتزع من مياهه قصبة، ثم طار نحو الأولمب، ويمم نحو النار المقدسة خفية، ودس قبساً صغيراً في القصبة، وعاد إلى حبيبه الإنسان فأهدى إليه النار، وجلس يعلمه أسرارها ليستعين بها على اقتحام عالم الفنون.

ونظر زيوس من قمة الأولمب فشهد النار تتأجج في طرف من أطراف الأرض، فغيظ وأحنق.. لأن النار إلى ذلك الوقت كانت حبساً على الآلهة، لا يجرؤ على استعمالها غيرهم، فأما أن يجعلها برومثيوس لعبة فيقدمها لهذا الإنسان العجيب الذي خلقه ليلهو به، فجريمة يجب أن يعاقب بسببها هذا المارد.

وقد أمر زيوس ابنه فلكان بأن يذهب إلى برومثيوس فيصحبه إلى جبل القوقاز فيضع الأغلال في عنقه، ثم يدقه في الجبل من أطرافه، ثم سلط عليه باشقاً من النسور يظل ينهش كبده من مشرق الشمس إلى مغربها.. ثم يتركه النسر لتتدمل جراحه في الليل وينضج كبده، حتى إذا أشرقت الشمس عاد إلى نهشه من جديد تأديباً له وتهذيباً...

وصدع فلكان بأمر أبيه.. وظل برومثيوس في ذلك العذاب صابراً مصابراً حتى مر به هرقل، الذي تحركت في قلبه عوامل النخوة والشفقة، فقتل النسر، وفك أغلال برومثيوس وأنقذه من عذابه الطويل، غير آبه بسخط سيد الأولمب الذي لا يرحم[*]!

---

[*] يحدثنا أسكيلوس في مسرحيته (بروميثوس المصفد) أنه ظل في عذابه هذا ثلاثين ألفاً من السنين.

وغيظ زيوس مرة أخرى.. وسخط على الإنسان هذه المرة، وجلس يفكر في وسيلة ينتقم بها منه، ويعكر بها صفوه.

فأمر بخلق المرأة! وإهدائها إليه! فصنعها فلكان من نفس الحمأ أو الصلصال الذي صنع منه برومثيوس إنسانه.. ثم اشترك جميع الآلهة في تزويدها بزيادات لابد منها.. مما سنتحدث به في مكان آخر من هذا الكتاب.. حينما نقص أسطورة يندورا.

من عصر إلى عصر:

وقبل أن تجيء يندروا، كان الإنسان يعيش في جنة دانية القطوف، موفورة الخيرات، ولم يكن لذلك يعرف الكدح، ولا تصيبه الأمراض، ولا تلم بساحته المصائب، ولا تلطخ نفسه المثالب.. وكان النسيم يهب رخاء، والجنة من حوله تتفيأ ظلالها، والماء العذب يتدفق سلسبيلاً.. وكان الزمان.. كله ربيعاً، فلا حر ولا زمهرير.. وكان الإنسان مع ذاك يزجي وقته في فنونه العليا التي تزيده سعادة.. ولم يكن قط كسولاً ولا متراخياً..

وهذا هو العصر الذهبي.. الذي يشبه تلك الأيام الحلوة التي قضاها آدم في الجنة قبل أن يعرف حواء!

ولم يكن برومثيوس قد سرق النار المقدسة بعد، ليهديها إلى الإنسان، لكنه مع ذاك كان يرعى الإنسان ويتعصب له.. وكان الإنسان بفطرته طموحاً جباراً، وكانت لا تعجبه في زيوس طباع كان يجدر بالإله الأكبر أن يتجرد منها، وأغرى ذلك الإنسان بسيد الأولمب، فلم يبال أن يدعي لنفسه ما ليس له.. بل ما هو خاص بالآلهة، بل وقف على زيوس نفسه... وكان زيوس حليماً.. فلم يعجل العذاب للإنسان، لكن فعلة من فعال الدهاء بدرت من بروميثيوس جعلته ينقم من بروميثيوس، وينقم على الإنسان.. ذلك أن خلافاً ثار بين بروميثيوس وبين الآلهة عن أي أجزاء الأضحية يكون من نصيب الآلهة، وأيها يكون من نصيب الإنسان؟

فلم يشأ بروميثيوس أن يتكلم في هذه المشكلة بشيء، لكنه لجأ إلى الحيلة ليكون الحكم فيها حكماً عملياً.. فقد ذبح مرة عجلاً جسداً في مقتبل الشباب، ثم جعل اللحم كله تحت جلد العجل، وجعل فوق ذلك شيئاً زرياً من الحشايا والأمعاء.. ثم جعل العظام كلها في كومة، وجعل فوق الكومة شيئاً كثيراً من الشحم أو ما يشبه الشحم، وقليلاً من اللحم، ودعا زيوس نفسه ليختار نصيب الآلهة، ليتقرر بهذا الاختيار نصيب السماء...

وعرف زيوس الحيلة.. ومع ذلك.. فقد اختار العظام المغطاة بالشحم، أو ما يشبه الشحم.. ليبرر مقدماً، ما أراد أن ينزله بالمارد المخاتل من العقاب الذي ذكرنا.. وما أضمره من تعكير صفو هذه الجنة التي أطغت الإنسان، وجعلته يرنو بعينيه إلى ما هو من حقوق الآلهة خاصة(*).

وقرر زيوس أن يضع حداً لهذا العصر الذهبي الذي تقلب فيه الإنسان على بساط من النعيم، فخلق نظام الفصول الأربعة.. وبهذا لم يعد الزمان ربيعاً كله، كما كان...

واضطر الإنسان إلى تكييف حياته، ومواجهة هذا النظام الجوي الجديد.. وقد هاله، أشد ما هاله، فصل الخريف الذي يشحب فيه وجه الأرض، ثم لا تلبث أن يدركها الشتاء بعواصفه وزوابعه، وأمطاره وثلوجه، وبرده الذي كلف الإنسان، عناءً طويلاً لم يكن له به عهد.. ولعل هذا هو الذي دفع بروميثيوس إلى التفكير في سرقة تلك الجذوة من النار المقدسة الأولمبية(*)، ليهديها إلى حبيبه الإنسان!

فبهذا التغير الجوي الفجائي، فقد الإنسان جنته.. وانتقل من العصر الذهبي

(*) تقول بعض الروايات أن زيوس قد خُدع بالفعل، فثار ونكب بروميثيوس والناس.

(*) في رواية أن هذه هي المرة الثانية التي سرق فيها بروميثيوس النار المقدسة، والتي عاقبه زيوس عليها بدقة في جبل القوقاز- وقد تناول Byron ذلك بشعره الرائع في منظومته: Prometheus.

الناعم، إلى العصر الفضي الذي أخذ يلقى فيه بعض العناء.. واضطر إلى أن يشمر عن ساعد الجد وإلى الكدح، بعض الكدح.. فزرع، وغرس الأشجار، وصاد الحيوان، وربى الدواجن، وطرح الشباك ليمسك السمك!

ولم يكتفِ زيوس بذلك، بل فكر في عذاب أشد ينزله بالإنسان.. فأمر بخلق المرأة.. على النحو الذي قدمنا.

وبمجيء المرأة (يندورا) إلى الأرض، بدأ العصر النحاسي، بسبب تلك الأشباح السوداء، والخفافيش الكئيبة، أشباح الأمراض والعلل، وآفات الفقر، التي انطلقت من صندوق يندورا، فطافت بالإنسان، وأحدقت به، وملأت أركان الأرض بمختلف ألوان الشدائد.. وسكن كثير منها في أغوار روحه..

ويا ليت العصر النحاسي قد دام للإنسان البائس.. فقد تصرم ذلك العصر هو الآخر، وبدأ العصر الحديدي.. العصر الذي اشتدت فيه دنيا الناس، وتغلغلت في نفوسهم الخطيئة، وتمكن منهم الإفك، وأصبحوا يتكالبون على الأرزاق، فقتل بعضهم بعضاً.. وكاد بعضهم لبعض.. فغضبت عليهم الآلهة، وهجرتهم أرباب الأولمب، حتى آسترايا: Astraea نفسها، آسترايا ربة البراءة، ابنة تيميس Themis ربة العدالة.. التي يحلم شعراؤنا اليوم بعودتها هي وابنتها.. حينما يبدأ عصر جديد ذهبي للإنسان، ينعم فيه بشفائه من سائر الأضغان[١١]!

الطوفان:

والعجيب أن يسخط زيوس على البشر الذين تكاثروا الآن، وازداد عددهم، وأن يشتد عليهم غضبه، بسبب المعاصي التي جعلوا يترددون فيها، وهو الذي أهدى إليهم هذه المعاصي، لأنه هو الذي حشدها لهم في صندوق يندورا.. وهو الذي تعمد

---

(١١) للشاعر الانجليزي العظيم جون دريدن منظومة رائعة في ذلك تكلم فيها عن البعث Restoration نوصي بقراءتها واسم المنظومة: Astraea Redux.

أن ينغص عليهم عيشهم، ويثير في فردوسهم العواصف.

ولم يشأ زيوس، مع ذلك، أن يغضي عن خطيئات الناس، بل أراد أن يطهر ظهر الأرض منهم.. فجمع الأسرة الأولمبية كلها عنده، وأدلى لهم برأيه، وطلب إليهم أن يفتوه في خير الطرق لمحق البشر والبشرية.

وأخذ الآلهة يدلون بآرائهم.. وكان منهم من أشار بتسليط صواعق زيوس على الناس في مشارق الأرض ومغاربها.. وقد طرب زيوس لهذا الرأي، وأوشك أن يأخذ به وينفذه.. لولا أن وقف بعض عقلاء الأسرة– ولعلها مينرفا– فحذر الإله الأحمق من تنفيذ هذا الاقتراح لأن صواعق زيوس تشب النيران الفظيعة حولها في مساحة واسعة شاسعة، ويدوم احتراقها أياماً طويلة.. فما بالك بآلاف من هذه الصواعق تقذف على الناس في وقت واحد! إنها تفتك بالأرض نفسها بعد فتكها بالناس.. وإذا فتكت الصواعق بالأرض، زلزل الأولمب زلزاله وتحطم عرش زيوس، وباد مأوى الآلهة؟.. ويكون زيوس لم يجن على الناس فحسب، بل جنى على الآلهة وعلى نفسه!

وأفيق سيد الأولمب، وأهمل هذا الرأي..

ثم أشار إله آخر بأن أحسن الطرق لإبادة البشر هو الطوفان! وكان هذا هو الرأي الأسد، والاقتراح الأرشد.. وقد طرب له زيوس.. وأمر بتنفيذه في الحال! فأشار إلى أخيه يوسيدون– رب البحار– فانطلق يقلب الموج ويصنع منه جبالاً يقذف بها على الأرض.. ثم صرخ بجميع أرباب الأنهار وربات البحيرات والعيون وعرائس الماء في كل فج، ففاضت جميعها بماء فاتر.. في نفس الوقت الذي أمر فيه زيوس آلهة الريح فأثارت السحاب الذي جعلت تصب منه الماء مدراراً.

وريع الناس.. وأخذوا يلوذون بقمم الجبال، ويتعلقون بالخشب والشجر وكنت ترى الأب والأم وأبناءهما يقتتلون حول عصا عائمة لا تكاد تحمل فرخ طير.. ومع ذاك فلم يغنهم ذلك شيئاً.. وأخذوا يموتون بالألوف.. لأن الماء جرفهم جميعاً.

ديوكاليون وبيرها:

ولم يبق من البشر إلا رجل وامرأة.. رجل وامرأة فحسب.. هما ديوكاليون الصالح، ابن بروميثيوس نفسه، وزوجته الجميلة الشابة، بيرها، ابنة ايمثيوس من زوجته يندورا..

لقد كانا يذرعان رحب الطوفان فوق رمث لم يزل يتخبط في ظلمات الماء حتى إذا أيقنا من الغرق، أرادا أن يودع أحدهما الآخر بقبلة، فرآهما زيوس فرق لهما.. فقرر الإبقاء عليهما.. وهكذا رسا رمثهما عند قمة جبل بارناس، وسلمت البشرية مرة أخرى بسلامتهما.. مما تجده في موضعه من ذلك الكتاب..

وأمر زيوس آلهة الرياح الأربع فعادت إلى غيرانها، وأمر بوسيدون فجذب أمواجه إلى البحار السبعة، وأمر أرباب الأمطار فأقلعت.. وحينما غيض الماء، نزل الزوجان السعيدان ليصلا من عمر الإنسانية ما انقطع.

هيلاس، والشعب الهيلاني:

ثم أنجبا طفلاً سمياه هيلان (!) وهو الذي أصبح بعد جد هذا الشعب الهيلاني، أو اليوناني العتيد، كما تسمت اليونان كلها (هيلاس) باسمه..

ثم أنجبا أطفالاً آخرين منهم ايولوس– جد الشعب الأيوليوي، ودوروس– جد الشعب الدوري.. ومن أحفادهما– أحفاد ديوكاليون وبيرها– جد الأيونيويين، وأخايوس جد الآخيين.

الأسرة الأولمبية بعد التكوين

زيوس:

معناه السماء.. وهو القوي المتعال.. محدث البروق ومثير الرعود.. ملك الملوك وسيد الآلهة.. المسيطر على الكون.. رب البشر القاهر (!!). ورب السموات والأرضين وما بينهما.. حامي النظم وراعي الأمن ومقيم السلام (!) سيد الأولمب!

يطيعه كل شيء إلا ربات المقادير Fates التاويات في هيدس (هيدز)، اللائي يجري قضاؤهن على زيوس نفسه!

وزيوس، وإن يكن صاحب هذه الألقاب كلها، له قلب كقلوب عباده من اليونانيين والرومانيين. قلب يطرب ويحزن ويحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويصبو ويأثم.. إلا أن إثمه ليس إثماً عند من كانوا يعبدونه.

وكان له وحده حق دعوة الآلهة ليشاورهم فيما يشاء من الأمور.. وهو لهذا كان إلهاً ديمقراطياً.. وإن دلت تصرفاته في الأساطير على ميله إلى الاستبداد، ووقوعه في كثير من الظلم والإفك!

أما طعام زيوس فكان الفالوذ Ambrosia وأما شرابه فالرحيق الإلهي Nectar وهما طعام الآلهة جميعاً وشرابها.

وكان مهبط وحيه في حرج من أحراج البلوط، قريب من دودونا، حيث يفسر كهنته ما يستفتون فيه على صدى ما يسمعونه من الأصوات التي تنبعث من خلال أغصان هذه الأشجار.

وكان فنانو اليونان يتخيلون زيوس في صورة الرجل الفارع الطويل ذي المهابة، وكان شعر رأسه ولحيته كثاً مجعداً ذا خصل. وكان يقبض بإحدى يديه على صولجانه الذي كان أشبه بعنقود من الصواعق، وبالأخرى على تمثال النصر.. وكانوا يلقون على كاهله أحياناً عباءة من المخمل، وعلى صدره بدرع من السحب الداكنة.. أما موطئ قدمه فكان الكون كله.

حاشية زيوس:

وكانت لزيوس حاشية تتكون من أصدق خلصائه وأحبهم إلى نفسه، غير زوجاته طبعاً.. وكان في مقدمة هؤلاء نيقة Nike أو Nice (أو فكتوريا الرومانية) ربة النصر، ولم يكن زيوس يترك تمثالها الصغير من يده أبداً.

وكانت ندمانته حاملة كؤوسه تدعى هيبة Hebe (أو هيب(*))، وكانت جميلة فاتنة، وكانت ربة للشباب أيضاً، فلما تزوجها هرقل، اضطر زيوس إلى البحث عن ندمانة غيرها، فاتخذ صورة نسر، وذهب يحلق في وجوده الضخم، حتى رأى الراعي الجميل جانيميد نائماً فوق ربوة من ربى الأرض(**)، وكان الجمال يشع بأضواء المحاسن من وجهه الفاتن، فأيقظه، وطار به إلى الأولمب.. واتخذه ندماناً مكان هيب.

والرومان يجعلون من حاشية زيوس: فاما Fama ربة الشهرة ذات الألسنة المائة! وفورشيونا ربة السعد، أو ربة البخت وحسن الطالع، التي لاتني تنثر طوالع الحظ على الناس أينما سارت.

أما في حفلات الأولمب فكان ابنه هيفستوس (فلكان) يشترك في حمل الكؤوس وتقديمها لأبيه بنفسه.

(*) أو جوفنتاس Juventas.

(**) أو فوق جبل ايدا.. ويذكرون أن جانيميد هذا هو أحد أبناء ملك طروادة.

زوجات زيوس وأبناؤه:

١- حيرا: Hera (or) Here

ومعناها الهواء الأزرق، أي الجو، أو الضوء السماوي.

وهي شقيقته، ويسميها الرومان Juno افتتن زيوس بجمالها الرائع فخطبها على نفسه، واستأثر بها من دون أخويه، وأقيمت حفلات الزواج على قمم الأولمب، وفي ليلة الزفاف خلع عليها زيوس ألقاباً جمة، منها: مليكة الأولمب، وربة السماء، وراعية الزواج.

ولعل الرومان هم الذين أضافوا إلى حيرا، أو جونو، كثيراً من ألقابها الأخرى التي منها: حامية النساء جميعاً، فهي جونو ناتاليس التي يلتمس عونها في أعباء ميلادهن، وهي جونو جوجالس، التي يتبركن بها عند زواجهن، ثم هي جونو لوكينا عندما تضع كل ذات حمل حملها، وكانوا يقيمون لها عيداً عظيماً في أول مارس. وكانوا يطلقون عليه اسم الـ ماثرونواليا.. كما أطلقوا اسمها على شهر يونيو الذي كانوا يستبشرون بعقد زيجاتهم فيه، وكانوا يقيمونها ربة لدنيا المال.. ويسمونها لذلك جونو مونيتا، وقد أقاموا لها معبداً سنة ٣٤٤ ق.م بهذا الاسم لم يلبث أن تحول داراً لسك النقود.

وقد أنجبت له ولديه: هيفستوس (أو فلكان)– رب النار والكير– الإله الفنان الأعرج.. ثم مارس (أو آرس) Ares رب الحرب، ورمز السماء العبوس والجو القمطرير.. ثم هيب ساقية زيوس وربة الشباب.

ويرون أن الصفاء لم يدم طويلاً بين ملكة الأولمب، وزوجها سيد الآلهة، لأنها كانت ربة ذات غيرة شديدة، ولأنه كان إلهاً مشغوفاً بالجمال، نهازاً للفرص، لا يبالي أن يصبو قلبه إلى غير زوجته الأولى ولو كانت أنثى من البشر، مما نجد ذكره في

أسطورة كاليستو وأسطورة يو، وأسطورة منو مبزين.

ولم يبالِ زيوس بغضب حيرا وغيرتها، بل راح يتزوج كما شاء وينسل الآلهة العظام، مما سنعرضه هنا.. يفعل هذا، وكأنما نسي حبه الأول، وضراعته إلى أخته، وافتتانه بجمالها، وتحوله وقواقا (طائر الكوكو) حينما رفضت الزواج منه فسحرت نفسها أنثى من إناث هذا الطائر.. ولم يزل بها حتى رضيته بعلاً..

أما وصيفة حيرا فكانت ايريس Iris ربة قوس قزح..

وأما طائرها المحبب فكان الطاووس..

مارس

وقد ولد مارس في تراقيا (!) واسمه مشتق من اسم الإله الهندي ماروتس Marust ومعناه المحطم أو الطحان (!) وقد كان مقسوماً أول الأمر أن يكون إلهاً للعواصف والرياح الهوج.. ولكن أباه عدل عن هذا فرسمه رباً للحرب وآلامها وأوجاعها.. هذا، واشتهر مارس بصلاته الدنسة باخته، وزوجة أخيه فلكان.. وقد أنجب منها أبناءها الثلاثة كيوبيد وهرمون وأنتيروس.

إنشاء رومة:

على أن حبه ذاك لفينوس– ربة الجمال والحب– لم يمنعه من أن يصبو إلى إحدى عذارى فستا (ارجع إلى أسطورة حلم الراهبة) واسمها إليا Ilia وقد استطاع أن ينال منها وطره بالرغم من أن عذارى فستا يعاهدن ربة معبدهن على ألا يقعن في إثم، ولا يقارفن حبا، حتى ينتهي أجل إقامتهن في الهيكل.. فلما ظهرت عليها إمارات الحمل ثار أبواها، وطلبا أن ينفذ فيها حد ذاك الإثم، وهو يقضي بأن تقتل صبراً بعد أن تضع حملها، وأن يترك من تلده في العراء لتفترسه الذئاب، وسباع البرية.. وقد نفذ الحكم في الأم التي وضعت غلامين ذكرين.. تُركا في البرية، فعثرت عليهما ذئبة،

فعطفت عليهما، وغذتهما بلبانها حتى كبرا.. ثم لقيهما أحد الرعاة فاتخذ منهما ولدين له وسماهما روميلوس وريموس.. ولما بلغ الولدان أشدهما هجرا الراعي العطوف، وانطلقا يبحثان لهما عن ميدان يتسع لما خبأه القضاء لهما.. وقد بسم لهما الحظ ردحاً من الزمن، ولاسيما عند هذه المرتفعات التي تشرف على نهر التيبر، ولما اتسعت دائرة أعمالهما فكرا في بناء مدينة ثمة.. لكنهما لم يلبثا أن اختلفا على اسم هذه المدينة.. هل يشتقانه من اسم ذاك أو من اسم هذا.. ثم اشتد الخلاف فرفع روميلوس آلة كان يعمل بها ثم أهوى على رأس أخيه فقتله..

وانضم إلى روميلوس بعض الأفاقين ممن هم على شاكلته. فأتموا بناء المدينة، وأطلقوا عليها اسم: رومة.. واتخذوا من روميلوس ملكاً عليهم.. لكن روميلوس حكم الشعب حكم الطغاة المستبدين، فكرهوه، وتمنوا موته؛ ثم حدث كسوف للشمس بينما كان نواب الشعب مجتمعين في مؤتمر ما.. فانتهزوا هذه الفرصة.. وقتلوا حاكمهم المستبد ومزقوه إرباً، ثم دفنوه نجوماً في أماكن متفرقة، فلما انتهى الكسوف الذي ترك رومة في ظلام دامس، وسأل الشعب عن ملكه، قال النواب إنه قد ذهب للقاء الآلهة ولن يعود إلى الأبد، لأنه أصبح واحداً منهم، وسيعبده أهل روما منذ ذلك اليوم، باسم الإله كويريناليا Quirinalia.

فلكان:

كان فلكان Vulcan (لمعان الذهب) أو هيفستوس Hephaestus رب النار وإله الصناع في الميثولوجيا اليونانية، وكان قلما يحضر جلسات الآلهة في عروش الأولمب ولذلك سبب قديم طويل، يرجع إلى ما كان ينطوي عليه من حب شديد لأمه حيرا (جونو)، وما كان يواسيها به في تلك الأزمات البائسة التي كانت تحل بها، كلما صبا قلب زوجها سيد الآلهة إلى زوجة أو حظية أخرى.. فيهجرها.. ويتركها لآلامها وهواجسها.. لقد كان فلكان عند ذلك ثرثي لأمه، ويجتهد في أن يفرغ عليها من برداء الصبر الجميل ما يثلج قلبها.. أو يخفف على الأقل من برحائها..

وقد حدث مرة أن ثارت ثائرة حيرا على زوجها.. فغيظ سيد الأولمب، وأمسك بزوجته الأولى فربطها في سلسلة طويلة ذهبية.. طويلة مثل الفلك.. ثم دلاها من السماء، وتركها تتأرجح في الفضاء اللانهائي الأثيري، لتذوق وبال أمرها.. وحقدها!

ورآها ولدها فلكان فرثى لحالها.. وأخذ يطوي السلسلة الذهبية بكل ما في ساعديه من قوة، وكل ما أوتيت نفسه من جلد.. لينقذ أمه من محنتها، وكان فلكان كلما اقتربت أمه طرب، وملأ نفسه الجذل.. ثم لم يبق إلا أن يشد شدة أو اثنتين لتكون أمه مطلقة الصراح، لكن أباه الذي كان يفتح نافذة غرفة العرش من قمة الأولمب رآه عندئذ، فصرخ به صرخة هائلة.. ثم أقبل نحوه وأمسك به، ورفعه رفعة جبارة.. وقذف به من ذروة السماء.. ليظل ينقذف في الفضاء يوماً كاملاً طويلاً.. ثم ليندق فوق الأرض دقة عنيفة تكسر عظام ساقه فوق صخور جبل موسوخلوس، من جبال جزيرة لمنوس.. وليعيش بعد ذلك أعرج طول حياته.. بل ليعيش معطوب الجسم مشوه الوجه.. لا تميل إليه عذارى الأولمب، ولا ترضى به رباته زوجاً ولا حبيباً...

وحز في نفسه ألا تبالي أمه- سيدة الأولمب- بهذا المصاب الذي حل به.. بل هي تهمله إهمالاً شديداً.. فلا تسأل عما أصابه في سبيلها من هذا الويل.. ويحز في نفسه أكثر ألا يجد له في قلب أمه نصيباً من حنان الأمومة ولا فضلاً من رحمتها، فيشتد حنقه، وتغلي مراجل قلبه بالحقد على هذا الأولمب الكريه، وعلى من فيه من أرباب وربات، فيهجره ويضرب في الأرض، حتى يصل إلى مغاور جبل أطنه، حيث يبتني كيره العظيم المتأجج أبداً في صميم الجبل، وذلك بمعونة السكالية (جمع سيكلوب) من قبيل المردة، الذين أخذوا مع فلكان في صنع مقادير كبيرة من مختلف المصنوعات، التي أتاحتها لهم تلك المقادير الضخمة من المعادن الذائبة في بطن الأرض هناك.

ولم يكن اشمئزاز فلكان من مسلك أمه يبارح ذاكرته قط.. وقد فكر في الانتقام منها بالفعل ولكن كيف؟

ثم هداه تفكيره إلى صنع عرش عظيم ممرد من الذهب، مكفت باللآلِىء واليواقيت يغري من يراه بالجلوس عليه، والاستواء فوقه.. ولا يكاد أحد يفعل، حتى تنطبق عليه كلابات كثيرة من كل جهة، تمسك به فلا تفلته.. وقد أهدى فلكان هذا العرش إلى والدته التي سحرها مرآة، ولم تتمالك أن استوت عليه في الحال.. وفي الحال أيضاً انطبقت عليها الكلابات الكثيرة التي أخذت تخز ربة الأولمب، وتؤلمها إيلاماً شديداً، لم تستطع منه فكاكاً.. فراحت تشكو، وتستصرخ.. وتستغيث.. ولكن هيهات فقد أسرع إلى نجدتها جميع آلهة الأولمب، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن ينقذها من لعنة هذا العرش الذهبي...

ثم أرسلت الآلهة رسولها هرمز ليسفر بينهما وبين فلكان، كي يتفضل بالحضور إلى الأولمب لينقذ أمه من أغلال تلك الكلابات.. ولكن فلكان أبى أن يذهب إلى الجبل المقدس، بالرغم مما أبداه هرمز من أساليب الفصاحة والبيان.. فعاد الرسول يجر أذيال الخيبة.. ليبلغ الآلهة نتيجة إخفاقه.

ورأى أحد الآلهة إرسال باخوس– رب الخمر والمرح– إلى جبل أطنه، عسى أن يحتال لفلكان فيجيء به، كي ينقذ أمه...

ووصل باخوس، ومع زق سحري من زقاقه الموموقة، فأسقى فلكان حتى ارتوى.. وأخذت الخمر الإلهية تلعب بلب رب النار، الذي عرض على إله الخمر خدماته...

وهنا.. ذكر باخوس أنه يرجو رب النار أن يصحبه إلى الأولمب، كي يقوم له بعمل صغير هناك...

ولم يكن في طوق فلكان أن يرفض.. بل ذهب من فوره مع باخوس.. وهناك.. شرع يفك الكلابات السحرية واحدة بعد واحدة.. حتى أطلق آخر الأمر سراح حيرا.. حيرا اللدود الكنود.. التي لم توجه إلى ولدها كلمة.. ولا شملته بنظرة..

وضحك الآلهة جميعاً.. وتوسطوا بين زيوس وفلكان، فصفح الأب عن الابن.. وعهد إليه بصنع صواعق، فقبل فلكان.. ثم ضحك زيوس مرة أخرى.. وعهد إليه بصنع سهام كيوبيد بنوعيها الذهبية والرصاصية.. فتعهد أن يقوم بكل ذلك...

لكنه استأذن في العودة إلى اطنه، وأصر على ذلك.. فأذن له أبوه في أن يعود إلى حيث كيره العظيم..

وهناك.. فرغ فلكان للكثير الذي لا ينتهي من فنونه العليا.. وقد بدأ فصنع لنفسه فتاتين عذراوين من الذهب.. أضفى عليهما كل ما كان يحلم به من جمال الحسان الناضرات من ربات الأولمب، اللائي رفضن حبه، وأبين أن يتزوجن منه، حينما تقدم لخطبتهن.. وقد افتن في صنع الفتاتين افتناناً عجيباً، ونفخ فيهما فصارتا فتاتين حيتين من ذهب.. ذهب حي يمشي ويتحرك.. ويتكلم.. ويبسم.. ويغازل.. ويستطيع أن يحب!!

ولكن.. واأسفاه.. لقد رفضتا أن تحبا فلكان.. لقد كان مسخاً.. وكان قبحه أثقل على أي قلب من أن يثير فيه مشاعر الحب!!

لقد أحب فلكان ربة الحكمة مينرفا.. وطلب إليها يدها.. لكنها اعتذرت لأنها تعتزم أن تعيش طول حياتها عذراء!

وأحب بعدها فينوس.. فينوس كلها!.. ربة الجمال والحب.. فسخرت منه، وأشبعته هزوا واحتقاراً.. وقد ألم فلكان لذلك.. فلما صالحه أبوه.. قضى سيد الأولمب أن تتزوج فينوس ولده الأعرج الشائه..

وصدعت فينوس.. إلا أنها صدعت لتكيل الإهانات لزوجها الأعرج.. ولتصبأ إلى أخيه مارس..

هذا.. وقد استطاع فلكان آخر الأمر أن يجد من يرضى به بعلاً.. وكانت هذه المرة إحدى ربات المحبة (Graces).. ولم تلبث أن هجرته بعد حياة لا هانئة ولا رغيدة.. بعد أن ولدت له الهولتين كاكوز وبريفيتس(*).

ثم تزوج فلكان أمة تُدعى أوكريزيا Ocrisia كان يزورها في هيئة شعلة لا تزال ترقص حولها دون أن تمسها بأذى.. وقد أولدها توليوز Tullius ملك رومة السادس.

فلكان في الفن:

درج الفنانون على تصوير فلكان رجلاً قميء الجسم مكتنز العضل، إحدى رجليه أقصر من الرجل الأخرى، له شعر أكرت محلق تتوسطه طاقية (بيريه) مما يلبس الصناع، وكان يلبس ثوباً قصيراً تغطيه (فوطة أو مريلة– ميدعة) أقصر منها، وفي يديه بعض عدد الحدادة..

الفلكاناليا (أو الهيفستيا):

لما أدخل الملك تيتوس تاتيوس عبادة فلكان في رومة انتشرت سنة إحياء عيد الفلكاناليا: Vulcanalia تقديساً لهذا الإله في الثالث والعشرين من شهر أغسطس في كل سنة، وكانت ألعاب المضامير (السرك) أهم مظهر لهذا العيد، الذي كان له نظيره عند اليونان باسم (الهيفستا)...

هذا، ولا ننسى أن فلكان هو الذي صنع الأنثى الأولى التي أهديت للإنسان

(*) Periphetes, Cacus والأول كان هولة لصاً وقاطع طريق يقيم في كهف بجبل افينين Avenine وقد حدث مرة أن سطا على ماشية لهرقل فذهب إليه البطل وقتله.

الأول انتقاماً من بروميثيوس...

٢- لاتونا.. (أو ليتو Leto ومعناها الليل):

وهي ضرة حيرا الأولى، وكانت شديدة الجمال، عظيمة الأسر، استولت على مشاعر سيد الأولمب حتى أنسته زوجته الأولى، التي حنقت على لاتونا، وانتهزت فرصة اشتغال ملك الملوك ببعض شؤون الكون، ونفث لاتونا إلى الأرض (!) فهامت المسكينة على وجهها، وانطلقت تسير على غير هدى، حتى اشتد بها الظمأ وأجهدها السير.. ثم انتهت إلى نبع فانحنت تبل غلتها من مائة.. لكن بعض الفلاحين الذين كانوا عنده سمعوا صوت حيرا يأمرهم بأن يطردوها فلم يملكوا إلا يفعلوا، فلما لم تسمع إليهم، نزلوا في النبع، وجعلوا يضربون الماء بأرجلهم حتى جعلوه طيناً لازباً.. فذرفت لاتونا ما ذرفت من دموعها.. وهامت على وجهها من جديد حتى أتت شاطئ البحر، فجعلت تنادي ربه.. نيتيو.. وتصلي به.. حتى سمعها الإله الغارق في أعماق الماء.. وعرف شكاتها.. فدفع إليها من مقره هناك بجزيرة صغيرة لم تزل تعلو حتى ارتفعت على مستوى الماء.. ثم تقدمت لاتونا فكانت فيها، وانحبس الماء الحلو تحت قدميها فشربت، وأطفأت غلتها..

وحنقت حيرا حينما شهدت ذلك.. فحاولت أن تقلب الأرض والسماء على رأس لاتونا.. ولكن.. هيهات.. لقد دفع نيتيون بالجزيرة إلى بحر الأرخيل (بحر ايجه) ثم ربطها هناك بمئات من أغلاله.. ولم تلبث أن نبت فيها الكلأ الأخضر، وتفجرت أرضها عيوناً ومسارب، ونما فيها الدوح العظيم وأشجار الفاكهة.. وما هي إلا أيام حتى وضعت لاتونا طفليها من زيوس أبوللو وديانا في هذه الجزيرة المشرقة.. فأرق ميلادهما عيني حيرا.. حتى أنها لم تذق المنام من يوم أن سعد العالم بمولدهما.

أبوللو وديانا:

وفرح زيوس بطفليه فرحاً شديداً، وقد ضاعف هذا حنق حيرا.. فسمى الطفل

الذكر فويبوس Phoebus (رب الحياة والضوء) وسماه صول Sol وهيليوز (الشمس) وكنتيوس Cynthios وبيثيوز.. وأبوللو (الشمس).. ورسمه رباً للشمس والطب والموسيقى والشعر وسائر الفنون الجميلة...

ثم سمى الطفلة كنتيا Cynthia وفويبه، Phoebe وسيلينه Selene وأرتميس.. وديانا.. ورسمها ربة للقمر وللصيد...

وأبوللو في الأساطير اليونانية مثال الإله الخائب في مغامراته الغرامية دائماً.. وقد شهدنا ذلك في أسطورة دفنية، وأسطورة الغراب الأبيض، وفي غيرهما..

ولشدة إعجاب زيوس بابنه أبوللو، وضع في خدمته، ودائرة سلطانه بناته التسع عرائس الفنون مما سيجيء ذكره فيما بعد.

وقد أقيمت لأبوللو معابد شتى في كثير من أرجاء اليونان، وكان أعظمها في جزيرة ديلوس، مسقط رأسه! ثم في دلفي حيث يوجد مهبط وحيه الذي كانت تنطق به كاهنة تدعى بيثيا Pythia وإلى هذه الكاهنة كانت تنسب الألعاب البيثية التي كانت تقام حفلاتها الرائعة سنوياً في دلفي باسم أبوللو.

وكان لأبوللو في جزيرة رودس تمثال ضخم كانت السفن تمر تحت ساقيه الجبارتين ناشرة شراعها وهي تدخل الميناء أو تخرج منه، وكان هذا التمثال واحداً من عجائب الدنيا السبع.

وكل صور أو تماثيل أبوللو– إلا ما ندر منها– تحمل إكليلاً من الغار على رأسها، أو قوساً أو قيثارة في يدها.

هذا، وبالرغم من سوء بخت أبوللو في الحب، فقد أفلح مرة في الاتصال بإحدى العرائس واسمها كليمينة التي أولدها ابنه فيتون (أسطورة يوم قيامه) وبناته الثلاث فيتورا ولاميتيا وايجله.

أورورا (أو إيوس Eos):

وأورورا– أو ربة الفجر ذات الأنامل الوردية– هي أحب وصيفات أبوللو إلى قلبه. وكانت تتولى فتح بوابات المشرق اللؤلؤية لرب الشمس يومياً، كي تخرج عربته (الشمس طبعاً) لتأخذ دورتها اليومية.

ولأورورا مغامرات غرامية سنورد منها أسطورة (غرام أورورا).

أسكولابيوس.. إله الطب:

وممن أفلح أبوللو في وصل أسبابه بأسبابهن العذراء الجميلة كورنيس التي أرادت أن تلهب غرامه بها فارتكبت فعلة من فعال النزق بمغازلتها حبيباً آخر، لكن أبوللو وقف على سرها فقتلها بسهامه (أسطورة الغراب الأبيض) وقد ولدت له كورونيس ابنه آسكولايبوس.. إله الطب الذي قتله زيوس غيرة من تفوقه عليه في فنون التطبيب.. وقد ترك آسكولايبوس ثلاثة أبناء ورثوا جميعاً فن والدهم وعبقريته في علاج المرضى.. منهما ولدان اسمهما ماخاوون Machaon ويودالبريوس.. ثم ابنة كسفت شمسها نجمي أخويها واسمها هايجييا Hygeia ربة الصحة الخالدة.

أبوللو في خدمة الملك آرميتوس:

وقد اشتد حزن أبوللو على ولده آسكولايبوس، وصمم على الانتقام له من قبيل السيكلوب صانعي صواعق زيوس التي قتل بها ولده.. لكنه لم يكد يبدأ حربهم بسهامه حتى غضب عليه أبوه زيوس وقضى بنفيه إلى تساليا لخدمة ملكها آدمينوس عاماً كاملاً، مما تجد أخباره في أسطورة (وفاء الملكة).

أما ديانا.. فقد آثرت أن تظل طول عمرها عذراء، وسنعرض سبب ذلك في أسطورة (التمثال الحزين) ومع ذاك فقد كان لديانا قلب يحب أو يخفق لرؤية الجمال (أنديميون)،... ومع ذاك فقد كان هذا القلب نفسه يتحول فيكون قطعة من الصخر

لا ترق ولا ترحم (نهاية اكتيون).

وأبوللو وديانا من أحب الموضوعات للفنانين اليونانيين. وكانت لهما هذه المنزلة أيضاً عند المثالين الرومانيين.

والفنانون يضفون ما كانوا يضفونه من الجمال والسحر على تماثيل هيبريون على تماثيل أبوللو الذي خلفه على كل شيء.

أما ديانا فيصورونها في صورة غادة ميساء ناعمة اشتملت لباس صيدها القصير، ومعها قوسها وكنانة أسهمها، وعلى رأسها المعقوص هلال صغير، وقد أمسكت برأس ظبي من صيدها. ويظهرونها في الصور الغرامية عذراء ناعمة ممتلئة الجسم، ذاهلة عن كل ما حولها.. إلا قبلتها التي تنسى فيها نفسها، وهي تطبعها على شفتي أنديميون (ومعناه الشمس الغاربة) بعد أن تسلمه لنوم عميق.

٣- ديون.. (ومعناها الرطوبة):

وممن هام بهن زيوس– ديون Dione– أو ديونة– ربة الرطوبة.. وهي إحدى التيتانيات.. وقد ولدت لزيوس أجمل بناته جميعاً.. فينوس (!) وقد ذكر هومر ديون، في إلياذته تواسي فينوس حينما جُرِحت تحت أسوار طروادة.

فينوس.. (ومعناها الفجر- أو السحر):

وقد سماها أبوها باسم أمها: ديون، ثم سماها كيثيريا Cytherea ولعلها كوثر! ثم أفروديث.. وفينوس.

وأفروديت.. معناها: المولودة من الزبد The: Foam- born.

وثمة رواية عن مولد فينوس تقول إنها ولدت من صدفة كبيرة طفت على وجه البحر فلم يزل بها زفيروس– رب النسيم– يدفعها ويهدهدها حتى بلغ بها شاطئ

جزيرة كوثيرا.. ومن هنا تسميتها: كيثيريا.. ثم دفع بها رب النسيم مرة أخرى إلى جزيرة قبرس.. ومن هنا تسميتها: الربة القبرسية.

وهناك تلقاها سرب من عرائس البحر فحملنها في عناية وإجلال وتوجهن بها إلى كهوفهن المرجانية حيث شرعن في إرضاعها وتربيتها حتى إذا بلغت سن الرشد وتم نضجها حملنها إلى سطح البحر فتلقتها عرائس القريتون والأوسيانيات والنيرييد فسبحن بجمالها وسجدن لحسنها وقدمن إليها الطرف من لآليء البحر ومرجانه، ثم حملنها على صفحة الماء، يدفعهن زفيروس، إلى جزيرة قبرس، حيث تلقتها الهورات الأربع Horae أو ربات الفصول الأربعة، وهن بنات زيوس من ثميز ربة العدالة، فرحبن بها، وقدمن إليها أينع الزهر وأشهى الثمر، وكان في صحبتهن ربات المحبة الثلاث كذلك (Gratiae؛ Graces؛ Charities) وهن بنات زيوس من يورينوم Eurynome ربة المحبة والمحاسن وأسماؤهن آجلايا (الإشراق) ويوفروسين (المرح) وثاليا (النعيم) وقد ظللن في صحبتها ورسمهن زيوس ربات للرياضة البدنية والرقص والأعياد وراعيات للشعر والفن، بالاشتراك مع عرائس الفنون التسع، وكن يظهرن دائماً في صورة كواعب أتراب يتراقصن وقد أمسكن أطراف أصابعهن في أطراف بعض..

ولم تكد فينوس تمس رمال الشاطئ بأصابع قدميها الجميلتين حتى سجد الكون جميعاً.. وسحرت الكائنات كلها.. لكن فينوس نفضت قطرات الماء من شعرها، وأومأت إلى موكبها، وبدأت رحلتها إلى الأولمب في صحبة هيميروس Himerus إله الهوى، وبوثوز: Pothos رب المودة، وسويديلا رب الغزل وهيمين Hymen رب الزواج.

وأعد للربة الهيفاء عرش ممرد من ذهب، في أشرف قمة في الأولمب، ولما استوت عليه، كانت قد استولت على قلوب الآلهة.. الآلهة الذين تسابقوا إلى خطبتها.. لكنها رفضتهم جميعاً.. فغضب أبوها.. وعاقبها بتزويجها من ولده فلكان!.. الفنان الحداد الأعرج، فكرهته، وضاقت به، وصبت إلى أخيه مارس الذي

أولدها ابنها كيوبيد إله الحب.. وابنتها هرميون التي تزوجت قدموس ملك طيبة، ثم ابنها انيتروس رب العاطفة، وكان أبوها قد رسمها ربة للجمال والحب، وولاها على دولة الحدائق والمحبين، وقد تقدس باسمها زهر الزنبق والخزامى والنرجس والزعفران.. ثم عقدت لواء الزهر كله للورد، وإن كان لزهرة الخشخاش نصيبها في ذلك جميعاً، كما كان لشجرة الزيزفون نصيبها كذلك. أما في دولة الحيوان فقد تقدس باسمها الحمام واليمام والعصفور الدوري والبجع ثم الدلافين.

كيوبيد:

ومن أسمائه: كيوبيد والرغبة وايروس وأمور.. وقد أورثه زيوس صناعة ايروس القديم وألقابه.... وبالرغم من أنه ابن زنى (أي أنه نفل) فقد جعله زيوس رباً للحب– وللبغض أيضاً– وأمر فلكان– بالرغم من خيانة فينوس– بأن يصنع له سهامه الذهبية وسهامه الرصاصية التي كان يصوبها إلى قلوب الناس والآلهة على السواء، فتثير فيها الأولى أشد ألوان العشق، كما تثير فيها الثانية أنكى ألوان البغضاء.

وقد لاحظت أمه فينوس أن جسمه لا ينمو، وأن جناحيه صغيران ضعيفان لا يكادان يحملانه، فكلمت في ذلك تيميز– التي أنبأتها أن الحب لا يكبر بدون العاطفة، وقد حارت فينوس في تأويل ذلك اللغز، فلما ولد ابنها انتيروس Anteros رب العاطفة أخذ كيوبيد يكبر في الحال.. فعرفت فينوس ما كانت تعنيه ربة العدالة.. ومع هذا فقد أصر الفنانون على تصويره طفلاً صغيراً عارياً ذا جناحين، ويضفون عليه مسحة من السذاجة والبهجة... وقد يعصبون عينيه أحياناً.. أو يغمضونهما وقد يجعلونه أعمى.. كناية على أنه لا يعدل في قذف الحب في قلوب الناس.. وقد يجعلون في يده شعلة وكنانة أسهم.. وقيثارة أحياناً، لأنه هو الذي يشيع الانسجام بين عناصر الكون كله!

وثمة من يشك في أبوة كيوبيد.. فهو عند البعض ابن فينوس من مارس، وعند

البعض من زيوس نفسه (!) وعند آخرين أنه ابنها من هرمز (!)

وأسطورة غرام كيوبيد بحبيبته يسيشبه من أروع أساطير الحب المؤلم الخالد.. والأسطورة رمز عند بعض مفسري الأساطير اليونانية لامتزاج الجسم بالروح– أو الامتزاج الزوجي الذي يتم دون وعي الزوجين.. وعند البعض أنها نشأت من تلك العادة القديمة التي كانت تقتضي ألا ترى الزوجة زوجها إلا بعد أن تضع طفلها الأول..

٤- مايا.. (ومعناها السهول):

وافتتن زيوس بربة السهول والمروج الخضر– مايا– فتزوجها، وقضى عندها فترة من أسعد أوقاته، بل شطراً من أخصب أيامه، وذلك في غار جميل مزهر من غيران جبل كولينه Cyllene في أركاديا، حيث رزقا غلامهما البديع الصناع هرمز.

هرمز.. (أو مركيوري):

واسمه يعني (نسيم صبيحة من صبيحات الصيف).. وقد رسمه أبوه رباً للرياح جميعاً، ثم عهد إليه بأعمال أخرى كبيرة.. منها الذهاب بأرواح الموتى إلى مستقرها الأخير، في جنات اليزيوم، أو في دركات الجحيم..

ولأنه رب الرياح، فهو الذي ابتكر الموسيقى.. وهل الموسيقى إلا أنفاس الرياح، وآهاتها، التي تحرك الأشجان، وتبعث في القلوب البهجة، وتثير فيها تباريح الحب والشوق، وتترجم عن كوامن الخوف والأمل.. بل القنوط أحياناً!

وفي الأساطير من أنباء هرمز أخبار شتى.. ولعل أظرفها أنه حينما ولد، حدث له ما لم يحدث لإله غيره من الآلهة.. إذ لم تمضِ سويعات حتى شب عن الطوق، واكتمل بناؤه، وتمت بنيته، وانطلق من فوره إلى قطعان أبوللو (وترمز هنا إلى السحب) فساق منها قطعة كبيرة خمسين ثوراً إلى مكان سحيق، بعد أن ربط حوافرها

في أفنان الشجر الغضة حتى لا تترك وراءها أثراً، ثم ذبح منها ثورين سمينين شواهما في نار أشعلها، ثم أكلهما جميعاً، واستسلم لنوم عميق..

وافتقد أبوللو قطعانه فلم يجد هذه الثيران الخمسين.. وعندما تذكر أن ذلك الطفل– هرمز– الذي ولد صبيحة ذاك اليوم فقط– قد رسمه أبوه أميراً للصوص، لم يشك في أنه السارق.. فانطلق من فوره إلى قمة جبل كولينه حيث وجده غارقاً في نومه العميق فأيقظه، وسأله عن ماشيته فأنكرها.. فساقه أبوللو إلى الأولمب، حيث شكاه إلى أبيهما سيد الآلهة... الذي قضى أن يرد هرمز ماشية أبوللو.. فاضطر هرمز إلى رد الثيران الباقية، أما الثوران اللذان أكلهما فقد دفع ثمناً لهما، تلك القيثارة العجيبة التي صنعها فور ولادته من صدفة سلحفاة.

وقد سر أبوللو بالقيثارة سروراً كبيراً، فأهدى إلى هرمز عصا سحرية تسمى كادوكيوس: Caduceus قال له أبوللو إنها تستطيع أن تذهب الغضب من قلوب الغاضبين، والأحقاد من نفوس الحاقدين.. وقد أراد هرمز أني جربها في الحال، فرأى ثعبانين يتناوشان فأشار بها عليهما فسكنا ثم علقا بها، وأخذ كل منهما يقبل أخاه.. ولا يزالان إلى اليوم عالقين بها.. ولا يزال هرمز يستعمل عصاه السحرية في أغراض شتى، بعد إذا اتسع مدى اختصاصها.

ولكون هرمز رب الرياح قاطبة فقد رسمه أبوه رسولاً للآلهة، يسفر بينهما في عظائم الأمور، ولكي تضاعف الآلهة سرعته زودته بنعلين مجنحتين أطلق عليهما اسم تالاريا Talaria كما خلعت عليه (طاقية!) مجنحة لرأسه تدعى بيتاسوس Petasus.

ثم تعددت ألقاب هرمز بعد ذلك، وكثرت وظائفه، فهو رب الفصاحة والتجارة، والمطر وأمير القصاصين وراعي المسافرين، وحامي الرعاة.. ورسول الأحلام.. وراعي المصارعة والألعاب الرياضية.. وحين يصحب أرواح الموتى إلى مستقرها الأخير فهو بسيكوبومبوس Psychopompos وحينما يسوق الأحلام إلى

النائمين فهو أونيقوبومبوس Oneicopompus.

وهرمز، بعد هذا كله، من آلهة الأولمب الاثني عشر الرفيعي الدرجات.. وكانت معابده وأضرحته واسعة الانتشار في العالم القديم، وكانت تماثيله ذات منزلة قدسية، حتى لقد كان يُحكم بالإعدام على من يمسها بأذى..

ومركيوري هو اسمه الروماني.. وكان الرومانيون يقيمون له في شهر مايو من كل سنة أعياداً كبيرة يسمونها مركيوراليا Mercuralia.

٥- سمليه Semele (الأرض!):

سملية هي أجمل زوجات زيوس على الإطلاق.. وهي من حفيدات يندورا (حواء) لأنها ابنة قدموس من هارمونيا.. وكان جمالها من النوع الفذ.. لقد خلقت من الرشاقة نفسها، وكان جبينها يشف عن جمال ذراريها.. وبالرغم من شعورها بهذا الجمال كله فقد كانت خجولاً حيية.. حتى اضطر زيوس إلى لقائها في صورة بشر رائع الجمال هو الآخر.. وإن كانت تعرف أنه زيوس، سيد الأولمب، وكبير أربابه، وقد ولدت له ولده باخوس.

وترجمة إديسون لأسطورة سملية، عن الشاعر الروماني الخالد: أوفيد، من أروع القصص الأسطوري في أدب العالم كله.. ونحن ندين لها بقسط كبير في رواية أسطورتنا.

باخوس: ديونيزوس:

ولا بد للإحاطة بحياة هذا الإله العجيب من الرجوع إلى أسطورتنا المذكورة آنفاً.. وفقهاء اللغة اليونانية مختلفون حول كلمة باخوس.. ومعظمهم يرى أنها لم تستعمل في اليونان إلا حوالي عصر هيرودوس.. وهي وإن كانت مرادفاً للاسم الآخر (ديونيزوس) إلا أنها كانت تعني الناحية الخبيثة من آثار الخمر– وكان استعمالها عند

الرومان على نطاق أوسع، ومع ذاك، فقد كانوا يفضلون استعمال اسم ديونيزوس عليها.

وعندما دخلت عبارة باخوس بلاد الرومان امتزجت شخصية باخوس بشخصية إله محلي يُدعى ليبر Liber كان رباً للزراعة والحدائق.

ومن أعياد اليونان الخالدة عيد الديونيزيا أو عيد الكروم وعصر الخمر، وكان عيدا للمسرح عندهم، بل كان أكبر أعيادهم، وقد انتقل إلى الرومان باسم الباخاناليا Bacchanalia إلا أنه انقلب في روما إلى عيد للفسق وألوان الدعارات، حتى اضطر مجلس الشيوخ إلى الغائه سنة ١٦٨ ق.م.

ولباخوس صلة كبيرة بنشوء المسرحية والأغاني العنزية اليونانية، ولا يتسع المجال هنا لتناول هذا الموضوع، لأن مجاله كتاب آخر.

والباخوسيات هن تابعات باخوس أو راهباته، وهن الباشيات Bacchae اللائي كن يقعن بالخلاعات في عيد باخوس في روما.

أما موكب باخوس فكان يتألف من رجال ونساء وعرائس (جنيات) و(فونات وساتيرات)، (حيوانات خرافية رأسها آدمي وجسمها عنزي- ذكران وآناث). وكانوا جميعاً يلبسون أكاليل اللبلاب في مواكبهم.

* * *

وتتلخص حياة باخوس بعد وقوع كارثة أمه فيما يلي:

رفع زيوس روح سلمية إلى سمائه، وجعلها إحدى الربات الخالدات(!)

ثم عهد بباخوس إلى خالته اينو زوجة الملك أثاماس، ملك طيبة، فعُنيت به عنايتها بابنها.. ولخوفها من سخط حيرا أرسلته مع هرمز إلى عرائس النيسياد

Nysiades ليسهرن عليه، وليكون بمنجاة من مليكة الأولمب الظالمة..

وقد غيظت حيرا، وسلطت التيزيفون Tisiphone الهولة على زوجها فأصابه بالجنون حتى لقد قتل أولاده.. وهربت اينو مع ولدها الأصغر إلى البحر فخاضته.. ورقت الآلهة حالها فحولتها ربة باسم ليوكوثيا.. وحولت ولدها رباً من أرباب البحار باسم باليمون.

لكن باخوس كبر مع ذاك، ورسمه أبوه رباً للخمر والمرح، وعهد به إلى صيلينوس الساتير ليهذبه.. مما نجده جميعاً في الأسطورة...

٦- منيموزين Mnemosyne:

وهذه هي إحدى التيتانات.. وقد تزوجها زيوس فأنجبت له عدداً من الإناث، لم يكن بينهن ذكر واحد.. وهؤلاء هن ربات الفنون، أو عرائس الفنون كما درج الناس على تسميتهن.. واشتهرن باسم الميوز Musoe (وهذه لفظة لاتينية) وقد ولدن جميعاً في بييريا Pieria في سفح جبل الأولمب.

عرائس الفنون: أو الميوز:

أول ما عرف اليونان هؤلاء العرائس عرفوه على أن عددهن ثلاث، ثم ارتفع هذا العدد إلى تسع.. ولم يرو لنا تاريخ الأساطير كيف ارتفع...

وكان المعروف قبل أن يرتفع هذا العدد أنهن– أو أن أباهن زيوس– قد رسمهن ربات للغناء والأناشيد.. حتى إذا ارتفع عددهن خُلِعت عليهن ألقاب كثيرة، منها راعيات الشعر بأنواعه، والفنون بمختلف ألوانها، والعلم في شتى اضربه.. أما هؤلاء العرائس التسع فهن:

١– كليو Clio عروس التاريخ.. ووظيفتها تسجيل كبريات الحوادث وتخليد ذكرى

أصحابها من آلهة أو أناس.. وتبدو في جميع صورها وتماثيلها عادة مجللة الرأس بأكليل من الغار، وفي يدها كتاب أو يراعة (قلم Stylus) وقد تمسك طومارا من الورق (لفة ويلة) بدلاً من الكتاب، وقد تحمل أحياناً طائفة من الكتب.

٢- يوتربه Euterpe: عروس الشعر الغنائي (القصيد)- أو الغناء.. وكانوا يصورونها وقد حملت ناياً وضفائر من الزهر.

٣- تاليا Talia عروس الشعر الريفي، ولاسيما أشعار الرعاة والفلاحين، وكانت تتحلى بتاج من الزهر أو اللبلاب، وتقبض على عصا ذات يد معوجة، وعلى وجهها قناع تهريجي يدل على أنها عروس الملاهي أيضاً.

٤- ملبومينه Melpomene ربة المآسي.. وكانت تلبس قناعاً عابس الأسارير وتقبض على عصا هرقل، أو سيفه أو خنجره، وتضفر حول رأسها إكليلاً من فروع العنب أو تلبس تاجاً من ذهب.. كما كانت تلبس الكوثرنوس- أو الحذاء ذا النعل العالي ذا الأربطة الأمامية الذي كان يلبسه ممثلو المآسي في المسرح القديم.

٥- تريسيكور.. عروس الغناء والرقص الإنشادي.. ذات القدمين الرشيقتين المرحتين.. وكانوا يصورونها حاملة قيثارتها وريشتها (التي تضرب بها الأوتار)، بينما راحت تخطو بقدميها فوق نغم لطيف!

٦- أراتو: عروس أشعار الغزل، والتقليد الكاريكاتوري، وكانوا يصورونها وهي تحمل القيثارة أحياناً.

٧- يوليمنيا- أو يولبهمينا.. عروس البيان.. وكانت تحمل صولجاناً رمزاً إلى أن للفصاحة سلطاناً على القلوب لا يفوقه سلطان.

٨- أورانيا Urania عروس الفلك والهيئة، وكانت تبدو في بعض صورها قابضة على

عصا تشير بها إلى كرة.. وفي بعض قابضة على أدوات رياضية رمزاً إلى محبتها للعلم الحقيقي..

٩- كاليوب (أو كاليوبيا) عروس أشعار البطولة (الملاحم)، وكانت تحمل لوحاً ويراعه (قلماً) وأحياناً طوماراً أو كتابا وقلما، وعلى رأسها إكليل من الغار.

* * *

هذا وقد دخلت عبادة هؤلاء العرائس إلى بووطية من تراقيا وبيبريا.. وكان ملعبهن المحبب جبل هليكون حيث ينابيعهن المقدسة التي كن يؤثرن الاستحمام بها، كما كن يختلفن إلى النبع الكاستالي في جبل بارناسوس للمناقشة في الشعر والفنون والموسيقى والعلوم. وكانت أحب القرابين إلى عرائس الفنون قرابين الماء واللبن والشهد.

٧- ليدا:

وهذه هي الغادة التي خلبت لب زيوس، فكان يزورها في صورة ذكر من ذكران البجع (أسطورة لارا الجميلة).. والأسطورة موضوع من موضوعات الفنانين الخالدة.. مصورين كانوا أو مثالين.

وليدا هي أم الحسناء هيلين التي سبب خطف باريس إياها حروب طروادة.. وكانت زوجاً لمنلوس ملك اسبرطة.. وقد روينا ذلك في كتابنا (قصة طروادة).. وقد كتب هوميروس ملحمته الخالدة (الإلياذة) على حوادث السنة العاشرة من تلك الحرب المشؤومة الطويلة.

وليدا أيضاً هي أم كليتمنسترا زوجة أجاممنون قائد الجيوش اليونانية في حروب طروادة وكليتمنسترا هي أيضاً قاتلة أجاممنون بعد عودته من طروادة.. وكان قتلها إياه سبباً في تلك السلسلة الطويلة من المآسي التي استغلها المسرحيون اليونان والرومان

في نظم تمثيلياتهم العظيمة التي تدور حول أجاممنون وذراريه.. فمن ذلك ثلاثية الأورستية لاسكيلوس، ومأساة الكترا لسوفوكلس، ومأساة افجينيا ليوربييدز، ومأساة أجاممنون لسنكا، ومأساة آفجينيا لراسين.. الخ.

وقد لفتت هذه المآسي أنظار المحدثين فاستغلوها استغلالاً حديثاً لا بأس به، كما فعل أونيل وسارتر.

وقد أنجبت ليدا ولدين ذكرين مشهورين هما كاستور وبولكس، وهما من مغاوير أبطال الإلياذة.

ومن مدوني الأساطير من ينسب ولدي ليدا وابنتيها إلى زيوس، وأنه أنجبهم منها حينما كان يزورها في صورة ذكر البجع.. ومنهم من ينسبهم إلى أبيهم البشري تنداريوس ملك اسبرطة الذي كان زوجاً لليدا.. ومن هؤلاء هومر وهسيود وأوفيد وبوريبيدز.

أما ليدا نفسها فهي ابنة يوربثيميس من زوجها تستيوس..

٨- أنتيوب، Antiope:

وهذه زوجة ثامنة لسيد الأولمب، وإن لم تكن زوجة بشرية، وقد أنجب منها الموسيقار أمفيون، وتوأما آخر اسمه Zethus لم يكن له رأي في الموسيقى ولا ولع بها.

أمفيون وأخوه:

وقد تزوجت أنتيوب، بعد أن هجرها زيوس، من ليقوس ملك طيبة، الذي هجرها بدوره، ليتزوج غادة أخرى تدعى ديرس Dirce الأمر الذي أهم ولديها من

زيوس، ودفع بهما إلى السفر إلى طيبة(*)، وإعلان حرب شعواء على ملكها، الذي كان قد حبس أمهما ليفرغ إلى زوجه الجديد.. تلك الزوجة التي كانت تسوم أنتيوب الخسف وسوء العذاب.. وقد اقتحم أمفيون وأخوه مدينة الملك. وقبضا عليه وقتلاه.. أما زوجته فقد ربطاها في ذيل ثور وحشي لم يلبث أن انطلق بها فوق الحجارة وعلى رؤوس الآكام هابطاً ومصعداً حتى هلكت وراءه.. وترى هذه الأسطورة مجسمة في ذلك التمثال الخالد.. الثور الفارنازي الذي يعزى للمثالين الرومانيين أبوللونيوس وتوريسكوس (ويحتمل أن يكونا من فناني القرن الأول قبل الميلاد). ونرى فيه ولدي أنتيوب وهما يوشكان أن يربطا ديرس في ذيل الثور، بينما وقفت هي خلفه تنظر صابرة.. وقد وجد هذا التمثال في حمامات كاراكلا برومة سنة ١٥٤٦.. وجدده المثال الخالد ميخائيل انجلو، وقد حُفظ وقتا طويلا في القصر الفارنازي الذي كان يحوي طرفاً كثيرة من روائع الفن القديم، وهو محفوظ الآن في المتحف الأهلي بنابلي.. هذا، وتقول الأسطورة أن أمفيون بعد استيلائه على طيبة، عمد هو وأخوه إلى بناية سورها العظيم، فكان يحرك الأحجار الضخمة إلى مكانها من السور بسحر موسيقاه!

٩- تيميز Themis ربة العدالة:

وهي إحدى التيتانات الست وقد تزوجها زيوس وأنجب منها بناته الأربع ربات الفصول، أو الـ Horae وقد ذكرناهن في (فينوس).

١٠- يورنيوم Eurynome ربة المحبة والمحاسن:

وقد تزوجها زيوس فأنجب منها ربات المحبة الثلاث، وقد مر ذكرهن في فينوس.

(*) في رواية أخرى أن زوج أمهما كان قد نفى هذين الولدين إلى جبل كثيرون وأمر بتعريضهما للبرد والوحوش ليتخلص منهما.. لكن راعياً عثر بهما فتبناهما، ولما بلغا رشدهما شدا رحالهما إلى طيبة.. ثم تجري الأسطورة كما هو مذكور..

١١- يو Io:

ولم يكن زيوس يتورع عن مغازلة كل من يسوقهن ايروس في طريقه، عن عمد، أو بطريق الصدفة.. حتى لقد أشعل قلبه غراماً بهذه الفتاة المسكينة.. يو.. ابنة إله أحد الأنهار المدعو ايناخوس.. وكبيرة راهبات حيرا، مليكة الأولمب..

أحبها زيوس.. وأخذ يصل أسبابه بأسبابها.. وكان يخلو إليها في غفلة من زوجته وكان لهذا يظللها بغمامة كبيرة تحجبوا عن عين حيرا التي لا تنام.. لكن حيرا عرفت ما بينهما آخر الأمر، فكان ما كان مما عرضناه في أسطورة يو.

هذا، وقد روى اسكيلوس في مأساته (بروميثيوس المصفد) رواية أخرى عن يو.. وقد ترجمنا هذه المأساة وستظهر في كتاب آخر.

١٢- سيريز (سيرس Circe) وبروزربينا وآريون:

وسيريز هذه هي ديميتير Demeter (اليونانية) ربة الزراعة والحضارة، وأم الأشياء كلها.. وهي أم تلك الفتاة الجميلة الرائعة كورا Cora أو بروزربينا: Proserpina أو برسفونيه، التي اختطفها إله الموتى، ورب الدار الآخرة بلوتو، لتعيش معه في عالم الظلمات، ولتكون له زوجة، وإن يكن عمها! وقد اشتد حزن سيريز على ابنتها فانطوت على نفسها في أحد الكهوف.. وكان ذلك سبباً في ذبول دولة النبات على ظهر الأرض، وانتشار الجدب، وتهديد الأحياء كلها بالفناء حتى أمر زيوس بعودة كورا إلى أمها لتمكث معها ستة أشهر، ثم تمضي إلى أخيه لتلبث عنده ستة أشهر، وهكذا تنقسم السنة إلى أشهر حياة وخصوبة هي أشهر الدفء– الصيف ويندمج فيه الربيع– ثم الشتاء ويندمج فيه الخريف، وهي أشهر الذبول والبيات.

سيريز وتريثوليموس:

ومن أظرف ما حدث لسيريز وهي تطوي الرحب بحثاً عن ابنتها أنها سحرت نفسها في صورة عجوز آدمية كي تتحاشى فضول الناس، وفضول الآلهة، وحتى لا يعرفها أحد.. وبينما هي تجتاز بلاد ملك يدعى سليوز Celeus إذ تتعرض لها بنات هذا الملك فتسرهن سذاجتها وطيبتها فيعرضن عليها أن تذهب معهن إلى القصر كي تتولى تربية أخيهن الأصغر تربتوليموس Triptolemus وترضى سيريز، ثم لا تكاد تمس الطفل حتى يربو ويترعرع ويتورد خداه.. ثم ينطق بأسلوب يوناني مبين! ويدهش أفراد الأسرة الملكية، ثم يجنهم الليل، فتأوي سيريز إلى حجرتها الخاصة، ومعها الطفل... فيبدو لها أن تمنحه الخلود.. وتوقد نارا مقدسة، وتضع الطفل في لهبها الهادي النابض، كي تحرق فيه كل عناصر الفناء... التي أصلها من هذا التراب.. وبينما هي في عملها هذا إذ بالباب ينفتح، وتدخل منه الملكة.. أم الطفل.. التي لا تكاد ترى هذا المنظر حتى تفزع وتصرخ، وتجذب ابنها من النار.. وتوشك أن تسب

الربة الكريمة، لولا أنها ترى مكانها امرأة رائعة الحسن غراء الجبين.. هي الربة سيريز في صورتها الحقيقية.. فتذهل الملكة، ويجمد لسانها.. فتقول لها الربة: ويحكِ يا صاحبة الجلالة.. لقد حرمت ابنك من نعمة الخلود الأبدي.. فلماذا تعجلت؟.. ولكن.. طيبي نفساً.. وقري عيناً.. فلسوف يطول عمره أضعاف ما يطول عمر أي رجل آخر في العالمين!...

ثم يتلاشى طيف الربة.. دون أن يُفتح باب أو نافذة.. فتسجد الملكة.. وتقبل ابنها وتبكي..

ارثوذا وألفيوس:

وفي أسطورة (بلوتو يخطف يرسفونيه) ذكرنا أن أرثوذا هي التي دلت سيريز على مكان ابنتها عند بلوتو... أما أرثوذا هذه فهي إحدى وصيفات ديانا.. وقد لجأت يوماً إلى منعرج ظليل فوق شاطئ نهر ألفيوس فخلعت ملابسها ونزلت إلى الماء لتبترد من حر الظهيرة القائظ.. فلما أحس بها رب هذا النهر.. واسمه ألفيوس أيضاً.. جن جنونه.. وأقبل يشكو لها حبه.. لكنها تنزعج.. وتبرز من الماء عريانة فينقلب حب الإله فيكون غراماً... وتنطلق أرثوذا وألفيوس في أثرها.. فيعدوان فوق الآكام ويهبطان إلى بطون الأودية.. حتى إذا أوشك الفيوس أن يلحق بها دعت أرثوذا ربتها ديانا لتنقذها، فتثير الربة ضبابة كثيفة تحجبها عن عيني الفيوس.. ثم تحولها ديانا نبعاً صافياً لا تكاد الضبابة تنكشف عنه حتى يراه الفيوس الذي يدرك ما حدث فيسحر نفسه شؤبوباً طاغياً من المطر، ويحيط بالنبع من كل مكان.. فتبرز أثوذا مرة أخرى، وتطلق ساقيها للريح.. ويتبعها الفيوس.. وتراها ديانا مرة ثانية فتشق لها في الأرض شقاً عميقاً تنفذ منه إلى العالم الثاني.. ولكن ألفيوس يتبعها إليه.. وهنا ترى أرثوذا برسفونية مستوية على عرش بلوتو.. لكن ألفيوس لا يمهلها كي تكملها... فتنطلق من شق طويل آخر ينتهي بها إلى ظهر الأرض– في هذه الدنيا– فتكون في سهول جزيرة صقلية– حيث الشمس مشرقة.. والهواء صحو.. والعالم الحي ضاحك يتبرج..

وهنا.. يدركها الفيوس... ويأخذها ملء حضنيه.. فتحس للمرة الأولى في حياتها نعيم الحب ودفئه.. لكنها تخجل.. وتتحول إلى النبع الذي سحرتها ديانا إليه.. فيتحول الفيوس نهراً طاغياً يختلط ماؤه بماء النبع.. ويمتزج به إلى الأبد.. حتى تأتي سيريز باحثة عن ابنتها.. فتسمع صوت أرثوذا يكلمها.. ويقص عليها حادث اختطاف ابنتها...

وقد كانت عادة العذارى اليونانيات، إذا لفحتهن أنفاس الحب، أن يلقين في نهر الفيوس بباقات ناضرة من الزهر.. اعتقاداً منهن أنها لا تلبث أن تظهر ثانية في نبع أرثوذا على شواطئ صقلية حاملة منهن رسائل الحب الصافي إلى روح هذه الحبيبة الخجول.

ومن أعجب العجب في حياة سيريز أنها كانت زوجة زيوس.. ومع ذاك فقد أحبها أخوها الآخر نبتيون– رب البحار– وذلك عندما حزنت على ابنتها فذهبت تبحث عنها في أطراف الأرض، وعند شواطئ البحار، حيث لقيها أخوها وراح يتودد إليها ويتحبب، فلماً أعرضت عنه لم ييأس، بل ظل يتعقبها ويلح عليها، حتى اضطرت إلى الاستخفاء عنه فسحرت نفسها فرسا.. لكنه فطن إلى الحيلة فسحر نفسه جواداً وظل يقص أثرها.. ثم تزوجها وهما على تلك الصورة فأنجبا ابنهما العجيب: آريون Arion وهو ذلك الجواد المجنح الذي كانت له المقدرة على الكلام، والذي عهد به أبوه إلى عرائس النيرييد لتربيته وتهذيبه حتى إذا شب عاد إلى والده ليجر عربته البحرية، ويعدو بها فوق صفحة الماء، وأعراف الموج عدوا سريعا يسبق به لمح البصر.. وهذا هو الجواد الذي انتقلت ملكيته إلى كويريوس، بيلوب، ثم إلى هرقل، ثم إلى آدراتوس، وقد كسب لهم جميع السباقات التي اشتركوا فيها.

اليوزيس وأعياد الاليوزينيا:

وتزعم الأساطير أن قرية اليوزيس، إحدى قرى أثينا، كانت موئل الربة سيريز وابنتها كورا، وكان من عادة أهلها، من أقدم العصور، إقامة أعياد كبيرة باسم الربتين

في موعد بعينه من كل سنة يفرحون فيه ويمرحون، ويذبحون الأضاحي.. وكان لديميتير هيكل عظيم في تلك القرية، يُقال إنها هي التي أنشأته فرحاً بالعثور على مكان ابنتها، ولم يكن يُسمح لغير أهل أتيكا (المقاطعة التي عاصمتها أثينا) بالاشتراك في هذا العيد الأكبر- وظل الأمر على ذلك زمناً طويلاً- حتى الرومان أنفسهم في زمن صولتهم. ومن أراد الاشتراك فيه، كان عليه الاشتراك أولاً في الاليوزينيا الصغرى، ثم ينتظر إلى العام القادم ليشترك في الأليوزينيا الكبرى.

وكان عباد ديميتير وكهنتها يتلون أوراداً عميقة المعاني في أثناء قيامهم بالطقوس الدينية في هذه الأعياد.

١٣- الكمينه.. وهرقل:

والكمينه Alcmene من عذارى البشر الجميلات اللائي تصبين فؤاد زيوس.. وقد تزوجها وأنجب منها هذا البطل الخرافي الجبار هرقل Hercules, Heracles الذي عرضنا أساطيره ومغامراته في الجزء الأول.. وهرقل وأشباهه ممن ولدوا لأحد الأرباب وأم بشرية أنصاف آلهة.

١٤- داناي Danae وبرسيوس:

وداناي هذه هي أم البطل المشهور برسيوس، وهي ابنة الملك أكريزيوس ملك آرجوس، الذي حدثته نبوءات دلفي أن أحد أحفاده سيقتله، فملأته النبوءة ذعراً.. ولم يكن له من الولد إلا ابنته داناي هذه، وكان يحبها حباً جماً.. لكنه مع ذاك كان يحب نفسه أكثر.. فحبسها في برج نحاسي رهيب، وأقام عليها حراساً شداداً قساة القلوب، غلاظ الأكباد.. وأمر ألا يتصل بها أحد من العالمين.. مما جعل الدنيا سجناً مظلماً في عيني الفتاة البائسة، حتى لقد أخذت تحسد أتعس الفتيات اللائي كانت تراهن من نافذة برجها.. وقد حدث أن رآها زيوس وهو يطل من قمة الأولمب، فأحبها، ولما عرف قصتها حزن لها، ثم اعتزم زيارتها.. وقد سحر نفسه شؤبوباً من

المطر حملته الريح ثم ألقته في نافذة البرج... وذلك استخفاء من زوجته حيرا، واستخفاء من الحراس الغلاظ الشداد الذين كانوا يرقبون البرج، ولا يسمحون للنسيم نفسه بالمرور إلى داخل السجن النحاسي!

وأخذت داناي تسمع كلاماً غزلا رقيقاً لا تدري من أين يأتيها أول الأمر.. حتى إذا استأنست إلى صاحب الكلام طلبت إليه أن يبدو ليزيل وحشتها، فلما بدا لها زيوس في أروع الصور البشرية، وأكثرها جاذبية، عشقته، وبادلته حباً بحب.. ثم تزوجا...

وريع الحراس يوماً حينما وجدوا داناي تضع غلاماً ذكراً.. وجعلوا يضربون أكفهم حيرة وهلعاً.. وهم لا يدرون كيف يبلغون الملك هذا الذي كان من أمر ابنته...

ثم علم الملك، فثارت ثائرته، وأمر أن توضع ابنته في زورق، يترج في البحر الهائج المصطخب، لتحمله الريح إلى وسط اليم، فتغرق داناي، ويغرق وليدها.

وتقاسي داناي، وتحتضن ابنها.. ويصل الزورق آمناً سالماً إلى شاطئ جزيرة سيريفوس Seriphus حيث يلقاهما ملكها يوليدكتيز لقاء حسناً ويكرم مثواهما.

وهنا يشب برسيوس ويترعرع.. ويصبح بطلاً ولا يستطيع بشر أن يبذه في سباق أو صراع أو رياضة.

ثم تأبى المقادير إلا أن تتم فصولها.. فيقع الملك في غرام داناي، ويحاول أن يتزوجها فتأبى.. وتثور ثائرة برسيوس فيهدد بالويل فيصب على كل من تحدثه نفسه بإرغام أمه على زواج لا ترضاه.. ويضطر الملك إلى اختراع الحيل لإقصاء برسيوس، فيأخذ في الثناء على شجاعته؛ وما حبته السماء من قوة وبأس.. حتى يثير فيه نزعات الغرور، ثم يطلب إليه القيام بمغامرات شتى عرضنا لها في أسطورة برسيوس

وأندروميد في هذا الكتاب، أهمها قتل إحدى الجورجونات الثلاث المسماة مديوسا.

مديوسا:

وكانت مديوسا هذه رائعة الجمال شديدة الفتنة في صباها.. وكانت تأوي هي وأختاها إلى مكان سحيق شديد البرد في شمال الدنيا (لعله القطب الشمالي) لا تكاد الشمس تعرفه فضرعت إلى مينرفا (أو بالا أثينا) أن تسمح لها بزيارة الجنوب المشمس.. لكن مينرفا أبت أن تصرح لها بهذه الزيارة، فغضبت مديوسا، وجدفت في حق مينرفا، وزعمت أن ربة الحكمة تخشى إذا رأى أحد مديوسا أن يفضلها على مينرفا، ويحكم بأنها أجمل منها! وعرفت مينرفا هذا اللغو، فغيظت، وسحرت شعر الفتاة الجميل الأصهب فجعلته ثعباناً طويلاً أرخما مكان كل شعرة من شعراته، ثم قضت أن كل من ينظر في وجهها انقلب في الحال حجراً صلداً أصم.

أطلس ومديوسا:

وقتل برسيوس مديوسا.. ثم أخذ يعود برأسها.. وفي طريق عودته لقي أطلس المسكين، وهو يحمل قبة السماء بأنجمها وسدمها وأفلاكها على كاهله الضخم.. وكانت المقادير قد قضت أن يظل الجبار المسكين كذلك حتى يمر به برسيوس حاملاً رأس مديوسا.. فيرى أطلس إلى وجه الرأس، فيتخلص إلى الأبد من حمله الثقيل، وتعود إليه حريته.

ويهتف أطلس بالبطل الموعود، فيقف برسيوس ليواسيه، لكن أطلس يلح عليه في أن يريه الرأس، فيريه إياه.. وفي لحظات يتحول أطلس الجبار إلى جبال هائلة شامخة صلبة.. لا تزال تحمل اسم صاحبها إلى اليوم في شمال أفريقيا.

* * *

ثم عاد برسيوس برأس مديوسا، فوجد الملك بوليدكتيز لا يزال يلح على

داناي، ويراودها على الزواج... وأنها لما رفضت أخذ يسيء معاملتها، فاضطر برسيوس إلى الكشف عن رأس مديوسا، فلما وقع عليه نظر الملك تحول في الحال صخرة صماء.. وهكذا نجت البلاد من شره، وعهد برسيوس بالملك إلى أخيه، أي أخي الملك.. أما هو.. فقد ذهب بأمه، وبزوجته أندروميدا إلى مسقط رأسه في آرجوس، حيث وجد الملك مخلوعاً، إذ طمع أحد الغاصبين في عرشه، فأعاده إلى العرش بعد قتل الغاصب.

وبينما كان برسيوس يمارس لعبته المحبوبة- رمي القرص- وكان جده الملك اكريزيوس يشهد حفيده ويعجب به، ويدهش في الوقت نفسه مما كانت النبوءة قد أذاعت به، من أن حفيد الملك سوف يقتله، إذا ذراع برسيوس تلتوي، فيتغير اتجاه القرص الثقيل، ويستقر في صدر الملك الشيخ، فيقضي نحبه في الحال...

وهكذا تتحقق النبوءة.. وهكذا من مأمنه يؤتى الحذر!

وقد حزن برسيوس لهذا الجرم الذي ارتكبه، وإن لم يقصده، حزناً شديداً... ولم يطقِ العيش في آرجوس.. وكان أهل ميسيني يلحون عليه في أن يعتلي عرش بلادهم بعد وفاة ملكهم الذي لم يعقب، فقبل هذا العرض، وأصبح ملكهم....

وكانت السماء قد أحبت برسيوس حباً عظيماً، فلما مات بعد حكم طويل عادل رفعته إلى قبتها الزرقاء اللانهائية.. ونحن نشهده إلى اليوم يتلألأ فيها هو وزوجته أندروميدا وأم زوجته كاسيوبيا.

١٥- أوروبا، وقدموس:

وأوربا هي تلك الفتاة الجميلة، ابنة الملك أجينور، أو فونيكس، ملك فينيقية.. التي أحبها زيوس، واحتال للذهاب بها، فسحر نفسه عجلاً أو جعل يتحبب إليها ويتودد، حتى إذا ركبته انطلق بها إلى جزيرة كريت على ما رويناه في أسطورة (السماء

تلهو) في هذا الكتاب.. وقد ولدت أوروبا لكبير آلهة الأولمب أبناءه مينوس ورادامنتوس وساربيدون، الذين انتشرت ذريتهم في أوروبا، التي تسمت منذ ذلك العهد بهذا الاسم.

وبعد موت أوروبا ظل أهل كريت يعبدونها باسم هللوتيس Hellotis.

أما ما حدث بعد ذهاب العجل بأوروبا، فقد حزن والدها عليها حزناً شديداً، وأمر أولاده الثلاثة، فونيكس وقيلقس Cilix وقدموس، الذين كانوا يلعبون معها في المرج إذ ذاك، أن ينطلقوا في آفاق الأرض ليبحثوا عنها.. فأما فونيكس، فقد بذل كل ما في وسعه من جهد، لكنه لم يعثر لأخته على أثر.. وخشي أن يعود إلى أبيه، فألقى عصا تسياره في بلاد أطلق عليها اسم فينيقية.. وحذا أخوه قيلقس حذوه، وأطلق على البلاد التي استقر فيها قليقية.

أما قدموس فكانت أمه تليفاسا تصحبه في تجواله للبحث عن ابنتها، وقد أعياها الكلال، ونال منها الضعف، فماتت في الطريق.. فدفنها.. ثم راح هو يبحث وحده عن أخته، وكانت أمه قد أوصته أن يذهب إلى دلفي ليستوحي كهنتها عن مكانها، ففعل، وعرف أنها في البلاد التي تسمت باسمها، وأن بقرة بيضاء هي التي ستحدثه عنها (!)

وصدع قدموس بما أمرته به كاهنة دلفي.. ولقي أخته آخر الأمر، على النحو الذي روينا به ذلك في الأسطورة.. وأقام عندها ما شاءت له الآلهة، ثم استأذن في الرحيل.. حتى إذا وصل الأرض تسمى اليوم بووطيه، وكانت شهرته وأحداث بطولته قد سبقته إليها، اختاره أهلها زعيماً لهم، فاعتزم أن يبني عاصمة جديدة للبلاد يسميها طيبة..

إنشاء طيبة:

وأرسل قدموس نفراً من قومه إلى نبع قريب يرتوون، ويأتونه بما يرتوي به.. لكنهم تأخروا عنه.. ولم يعرف سبب تأخرهم، فامتشق سيفه، وذهب يستطلع قلعهم، فوجد أن تنيناً مخيفاً قد اغتالهم جميعاً، واختلطت دماؤهم بماء النبع، ولم يضع قدموس طرفة عين، بل هجم على التنين فقتله، بعد ملحمة شنيعة مفظعة... ولم يكد يفعل، حتى سمع صوتاً من السماء يأمره أن يخلع أسنان التنين ثم يزرعها في الأرض... ففعل.. ولم يكد ينتهي من ذلك حتى رأى قبيلاً من المردة الجبارين ينبت في الحال.. ثم يكبر المردة وينفصلون من الأرض.. ثم يكشرون عن أنيابهم.. ثم يوشكون أن يهجموا على قدموس بكامل عدتهم الحربية، ويرتبك قدموس، ولا يدري ماذا يصنع.. وهنا.. يسمع الصوت السماوي يناديه مرة ثانية وهو يقول: اقذفهم بحجر من تحت رجليك يا قدموس.. اقذفهم بحجر..

وقذفهم قدموس بحجر، وسرعان ما نشب القتال بينهم، فقد ظن كل منهم أن زميله الذي بجواره هو الذي قذف بالحجر، وفي لحظات كان المردة يقتل بعضهم بعضاً.. حتى إذا لم يبق منهم غير خمسة، ذهبوا إلى قدموس وقدموا له خضوعهم، فاستعان بهم في بناء طيبة (!).. واشتركت الآلهة نفسها في بنائها، فأمرت الأرض.. فكانت تنشق عن مبانٍ ضخمة، وقصور شامخة، تبرز من بطن الأرض من تلقاء نفسها.

ثم كافأ زيوس صهره قدموس لمحبته لأخته أوروبا، فزوجه من هارمنونيا حفيدته... ابنة ولده مارس من فينوس (!)

وينسب اليونانيون اختراع حروف الهجاء إلى قدموس..

والعجيب أن تنتهي حياة قدموس وهارمونيا هذه النهاية السيئة.. فقد نسيا يوماً أن يقربا للآلهة بعض القرابين فغضبت عليهما ومسختهما ثعبانين كبيرين.

١٥- ذيتيس:

أما ذيتيس Thetis فهي ابنة نيريوس رب الأعماق من زوجته دوريس (المشاهد الأولى من كتابنا: قصة طروادة) وقد افتتن بها زيوس واعتزم الزواج منها، لولا ما أنذرته به ربات المقادير من أنها سوف تنجب غلاماً تكسف شمسه شمس أبيه، فارعوى سيد الأولمب، ولم يتزوج الفتاة، بل خطبها بنفسه من أبيها الملك يليوس ملك بيشيا.. فولدت له البطل المشهور أخيل بطل أبطال اليونان، وقد روينا حوادث عرس ذيتيس وأمر التفاحة الذهبية.. وولادة أخيل.. الخ.. في كتابنا المشار إليه.. وهو ما لا يتسع المقام هنا لتلخيصه.

وبهذا لا تكون ذيتيس من أزواج زيوس، ولكنا ذكرناها هنا لصبوته إليها يوماً من الأيام واعتزامه الزواج منها.

* * *

زيوس يلد مينرفا! (بالاس Pala أو أثينا):

ومينرفا هي ابنة زيوس.. لكنها ابنته من غير أم.. وهذا هو أعجب العجب في الميثولوجيا اليونانية كلها.. فلقد أحس زيوس في يوم من الأيام بألم شديد ينتاب رأسه، ويشب فيه صدعاً مبرحاً أقام سيد الأولمب، ورب أربابه (!) وأقعده.. وقد حاول أول الأمر أن يجد لهذا علاجاً، لكنه لم يستطع، فدعا جميع الآلهة حوله.. وكان يبكي أمامهم كالطفل، من هول ما يجد من الوجع.. ثم طلب إليهم أن يجدوا له دواء يخفف عنه بعض آلامه.. وقد جهد كل منهم جهده.. إلا أنهم أخفقوا جميعاً.. فلما ضاقت الدنيا ببارئها.. صرخ الإله الأكبر بولده فلكان، وأمره أن يخلصه من الحياة (!) وذلك بأن يفلق (!) رأسه بساطوره العظيم فلقين.. ليريحه من أوجاعه التي لم يعد يحتملها...

وريع فلكان أول الأمر.. لكن أباه صاح به صيحة شديدة زلزلت أركان العالم.. فصدع فلكان.. ثم أحضر ساطوره.. ثم انهال على رأس أبيه.. الإله الأكبر.. فشطره بضربة واحدة...

وبدلاً من أن يقضي الإله الأكبر، يجده الآلهة قد هدأ.. واستراح من آلامه، ويرون عذراء رائعة الجمال، تامة النمو، تثب من رأس سيد الأولمب، فتقف مستوية على قدميها، وقد لبست أبهى لباس، وتسلحت بعدة حربية كاملة، وأخذت تدير عينيها الحادتين العميقتين في الأرباب الموجودين.. وتبتسم!

ويهب سيد الأولمب واقفاً، فارداً ذراعيه وهو يصيح "بالاس أثينا بالاس أثينا.. ابنتي ومخ دماغي!!".

ثم يضمها إلى صدره.. ويقبلها بين عينيها.. ويرسمها ربة للحكمة، وربة للسلام.. وربة للحرب الدفاعية.. وربة لأشغال الإبرة (!) من غزل ونسج وتطريز وتصوير بالخيط.. ثم تنزل من فورها فتسل سفيها وتشهره في وجه آلهة الكسل والتراخي التي كانت تسيطر على العالم قبل أن تولد، فتفر الآلهة الرعديدة أمامها خائفة مذعورة لا تلوي على شيء.. وانتهزت ربة الحكمة هذه الفرصة والتقطت الصولجان الذي كانت تحمله ربة الكسل ثم استوت على عرشها لتحكم مكانها.. ولتعيد في هذه الأرض دبيب الحياة.

سيكروبس الفينيقي يبني أثينا:

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه جميع هذه الأحداث، وصل إلى اليونان رجل (!) فينيقي يدعى سيكروبس Cecrops أخذ يبني مدينة عظيمة قدرت لها ربات القضاء أن تكون أخلد مدن العالم، وكانت الآلهة تنظر إلى المدينة وتبارك كل حجر من أحجارها، ولما تمت تنازع الآلهة جميعاً على تسميتها.. ثم انسحب معظم الأرباب وبقي نبتيون ومينرفا– وهذا هو اسم بالاس الذي اشتهرت به فيما بعد– يريد كل منما أن تتسمى المدينة باسمه.. ولما اشتد النزاع بينهما.. اقترح زيوس– لحسم هذا الخلاف– أن يطلق اسم الذي يخلق منهما للإنسان شيئاً يفيده أكثر، ويعود عليه بالخير العميم.

فأما نبتيون، فقد ضرب الأرض بحربته ذات الشُعب الثلاث ضربة هائلة فانشقت عن أول حصان عرفته الأرض لهذا العهد.. الحصان الذي أثار دهش أرباب الأولمب، وحاز إعجابهم.. فجعلوا يصفقون لنبتيون تصفيقاً شديداً، فهمت منه مينرفا أنهم يعنون به أنها ستعجز لا محالة عن خلق شيء مثل الذي خلق نبتيون...

وهنا.. مدت مينرفا يدها في الهواء، ثم تناولت منه شجرة الزيتون المباركة... وأخذت تشرح للآلهة المشدوهين فوائدها التي لا تحصى.. فوائد خشبها وورقها وثمرها وزيتها.. ثم أعلنت أن غصن الزيتون سيكون منذ ذلك اليوم رمزاً للسلام وللمحبة والرخاء بين البشر.. بينما يكون الحصان رمزاً للحرب والتعاسة والزهو والكبرياء.

ولم يسع الآلهة إلا أن يعترفوا بفضل شجرة الزيتون.. وفوز مينرفا.. فسُميت المدينة الجديدة الخالدة باسمها.. وشاد سيكروبس هيكلها المقدس في أعظم أنحائها.

الدرع ايجيس Aegis:

وكان لزيوس درع عظيمة فضفاضة اسمها ايجيس، كان يعيرها مينرفا لتلبسها، كي تمد بعونها وتأييدها الجانب المحارب الذي يكون صاحب الحق، أو المعتدى عليه.. فكانت تخوض معمعات المعركة دون أن تخشى شيئاً، ودون أن يمسها أذى، لتنصر هذا الفريق أو ذاك، ممن يكون الحق في جانبه.

مينرفا وأراكنيه:

وأراكنيه هي هذه العروس البارعة التي لم يكن أحد ينسج أو يطرز أحسن مما تصنع، وقد قامت بينها وبين مينرفا منافسة عرضنا حوادثها في أسطورة (مباراة).

مينرفا في الفن:

والمثالون يصورون مينرفا سيدة رائعة الحسن مهيبة الطلعة، وضاحة الجبين،

ضافية الملابس، يتلألأ الذكاء والايناس في ناظريها، وعلى رأسها خوذتها ذات الدميتين، وعلى صدرها الدرع ايجيس– ويكون أحياناً إلى جانبها– ولعل تمثال مينرفا للمثال الخالد فدياس هو أروع تماثيلها جميعاً.. وهو يبلغ من الارتفاع أربعين قدما، وقد جعل له ثعباناً عظيماً يتحوى إلى جانب الربة، بينها وبين الدرع ومن أجمل صورها تلك الصورة المنحوتة الموجودة في الكابيتول والتي يُقال إنها أُخذت من مكانها في طروادة.

ولا يزال البارثينون في أثينا يحتفظ ببقايا أعمال فنية كثيرة لهذه الربة– وكان الرومان يقيمون لها عيدين سنويين هما المينرفاليا Minervalia والكنكاتريا: Quinquatria وكانوا يجعلون في مواكبهم إذ ذاك تمثالاً قديماً لا يعرفون مصدره يسمى البالاديوم Palladuim يقولون إنه هبط عليهم من السماء (!) فكان الأهالي إذا رأوه هللوا وكبروا باسم الربة العظيمة المحبوبة.

بوسيدون (أو نبتيون)

بوسيدون، أو نبتيون، هو شقيق زيوس، وقد ولاه بعد انتصاره على المردة، على كل ما يجري على سطح الأرض من دولة الماء والهواء، وما يضطرب فيها من زلازل.. وذلك بعد أن نزع ملك ذلك كله من ربها السابق القديم أوشيانوس، الذي استسلم لذلك الأمر، ثم انقلب استسلامه فصار إعجاباً بالإله الشاب ومحبة له.

ويذكرون أن بوسيدون قد حدثته نفسه في الثورة على أخيه زيوس وانتزاع عرش الأولمب منه، لكن مؤامرته اكتُشفت في الوقت المناسب فأخفقت وحكم عليه أخوه أن ينفى إلى أقصى الأرض ليكون في خدمة لاوميدون Laomedon ملك طروادة عاما كاملاً، يسخره في أثنائه الملك في بناء أسوار طروادة.. وكان أبوللو هو الآخر منفياً في ذلك الوقت بسبب محاربته السيكوب- كما قدمنا- فكان يساعد بوسيدون بالتوقيع على قيثارته لتنتقل الحجارة إلى مكانها بأعلى السور.

وكان لاوميدون قد وعد نبتيون بهدية قيمة حينما يتم الأسوار جزاء ما لقي في بنائها من جهد، وما عاني فيها من مشقة، فلما انتهى منها بخل الملك بما وعد، فغضب رب البحار، وسلط على البلاد أفعواناً هائلاً مخرباً أذاق الناس الأمرين.. وأخذ شره يستفحل حتى لم يبقِ على زرع أو ضرع أو إنسان يجاوز سور المدينة، حتى اضطر بعضهم أن يستخفي ما وسعته الحيلة للاستخفاء... وأن يذهب إلى دلفي ليستوحي كاهنتها عما يجب عليه عمله ليرتفع عنهم شر هذا الأفعوان.. وهناك.. وقيل له إن على المدينة أن تضحي بعذراء من جميلات طروادة مزدانة بأبهى الحلي والحلل.. فإذا اغتالها الأفعوان اختفى في الحال، فلا يعود إلا في مثل ذاك اليوم من العام القادم.

واختيرت الفتاة العذراء من بنات المدينة الجميلات بطريق القرعة.. وصفدها الكاهن الأكبر بيديه في صخرة مشرفة على البحر.. وبرز الأفعوان من الماء فاغتالها.. ثم اختفى.. واختفى عاماً كاملاً.. برز في نهايته وعاد إلى دأبه القديم من الفتك بالناس والحيوان والزرع، حتى افتدى الناس أنفسهم منه بعذراء ثانية.

هسبونة.. ابنة الملك.. والبطل هرقل:

ومرت السنون على هذا النحو.. ثم وقعت القرعة على هيسونة ابنة الملك الوحيدة، فضاق الملك ذرعاً.. وحاول ما وسعته الحالة أن يفتدي ابنته.. ولكن.. هيهات!

وأذاع الملك في الناس أنه يهب من يستطيع إنقاذ المدينة وعذاراها من شر الأفعوان جائزة جزيلة.

وفي هذا الوقت، كان البطل العظيم هرقل آيباً من إحدى معامراته (مغامرات هرقل) ماراً بطروادة، فلما سمع بقصة هسيونة، صحبها إلى شاطئ البحر، وانتظر حتى برز الأفعوان وهنا.. انقض عليه بهراوته الضخمة فلم يفلته حتى قتله..

وفرحت المدينة.. وفرح الملك فرحاً شديداً حتى كاد يقتله.. ومع ذاك.. فقد بخل بالهدية كما هو دأبه.. فمضى هرقل.. ليعود إليه بعد قليل بفتية مختارة من أهل البأس، فاقتحموا المدينة وانتهبوها.. وقتلوا الملك وسبوا زوجته وأبناءه.. ومضوا بهم إلى اليونان.. وهناك.. تزوج تيلامون هيسونة.. ثم قدم وفد من أهل طروادة فاقتدوا أخاها يوداركيز.. الذي تسمى باسم بريام فيما بعد، واختاروه ملكاً عليهم، وهو الذي حدثت في عهده حروب طروادة، ووقائع الإلياذة..

وكان نكث الملك لاوميدون في الوفاء بعهوده سبباً في عداوة أبوللو وبوسيدون لطروادة في خلال هذه الحروب الخرافية.

نزاع بين نيتيون ومينرفا:

وعاد نبتيون إلى اليونان، ولم يكد يتسلم مقاليد ملكه، حتى نشب النزاع بينه وبين مينرفا– ربة الحكمة– حول شرف إطلاق اسم واحد منهما على المدينة الخالدة– أثنيا– التي لم تكن قد اتخذت اسماً بعد.. وقد انعقد مجلس الآلهة، ونصر مينرفا على إله البحار، ومن ثمة... أطلق اسم أثينا على المدينة الخالدة.. وأثينا.. أو باللاأثينا.. هو اسم مينرفا اليوناني، كما أشرنا إلى ذلك فيما قبل.

وقد نشب مثل هذا النزاع بينه وبين مينرفا أيضاً بسبب السيادة على مدينة تروزين إحدى مدن آرجوليس.. كما نشب نزاع آخر بينه وبين أبوللو حول السيادة على مدينة كورنثه.. وانتهى هذا النزاع الأخير باختيار برياريوس Briareus رباً لكورنثه بوصفه أقوى الآلهة بعد زيوس– وهو أحد السنتماني الذين تحدثنا عنهم في حرب المردة.

نبتيون وسيريز:

وقد تحدثنا فيما سبق عن هيام نبتيون بسيريز.. أخته وزوجة أخيه زيوس، فلنرجع إلى ذلك في موضعه.

نيتيون وتيوفانه Theophane والفروة الذهبية:

وهام نبتيون مرة أخرى بعذراء تُدعى تيوفانه.. كانت جميلة هذا الجمال الذي يجعل الدماء تغلي في عروق كل من يراها غراماً بها.. وقد هام بها بالفعل كثيرون غير نبتيون.. من الآلهة والبشر على السواء.. حتى خشي نيتيون أن تكون من نصيب أحد غيره فسحرها نعجة.. ونقلها إلى جزيرة كروميسا.. وهنا سحر نفسه كبشاً عظيماً جذاب المنظر... وأخذ في معازلتها حتى أرضاها وهدأ من فزعها.. ثم تزوجها.. فأنجب منها هذا الخروف أو ذاك الكبش العجيب المشهور– صاحب

الفروة الذهبية (خرافة جاسون).

نبتيون ومديوسا:

وممن تعشقهن نبتيون وتزوجهن تلك الجرجونة العجيبة الخرافية التي تحدثنا عنها في النبذة السابقة عن (داناي وبرسيوس).. وكان هيام رب البحار بهذه الجرجونة في أيام صباها وشرخ شبابها.. فقد كانت جميلة بارعة المحاسن.. ولما قتلها برسيوس حزن عليها نبتيون أمض الحزن، بالرغم مما صارت إليه من القبح والشوه.. وعندما طار برسيون برأسها فوق البحار سقطت من الرأس بضع قطرات من الدم، ففرح بها نبتيون فرحا شديدا، وجمعها، وخلق منها جواده المجنح العجيب بيجاسوس Pegasus.

أمفيتريت.. مليكة البحار (أوسالاشيا):

أما زوجة نبتيون، ومليكة البحار غير مدافع، فهي أمفيتريت Amphitrite ابنة نيريوس (رب البحار) من زوجته دوريس.. وهذان هما أبوا عرائس النيرييد الخمس.. وأمفيتريت إحداهن.. وكانت ترمز إلى صفاء البحر وزرقته وإشراقه.. وكان الرومان يسمونها سالاشيا Salacia وقد لقي نبتيون الأمرين من حب أمفيتريت، فقد ضاقت به أول الأمر.. لكنه لم ييأس، بل أرسل إليها دلفيناً حصيفاً من دلافين الماء، فلم يزل بها يقنعها ويترضاها حتى استكانت آخر الأمر.. ورضيت أن تتزوج من نبتيون، الذي سره قبولها أشد السرور، وكافأ الدلفين برفعه إلى السماء ليتألق فيها، وليكون صورة سماوية[*].

صفة أمفيتريت:

وكان الفنانون يصورون أمفيتريت عادة عروساً عارية من عرائس الماء، عقدت

---

[*] الصورة السماوية هي الصورة النجومية أو الكوكبة عند الفكليين: Constellation.

على رأسها الجميل الصغير تاجاً من الأعشاب البحرية، وقد استلقت في عربة من اللآلىء البحرية تجرها الدلافين أو خيول الماء.. إما على صفحة اليم، وإما في أعماقه، وكانت إذا خرجت في موكبها الحافل اهتزت أعطاف البحار تيهاً، واكتسى السحاب أبراداً من الشفق الأحمر والبنفسجي والقرمزي والسنجابي، وأخذت أبراج السموات تتألق، والسعيد منها من فاز بنظرة من أمفيتريت.

التريتون:

وعاش نبتيون مع أمفيتريت عيشة سعيدة هانئة.. وأنجبا أولاداً كثيرين، كان من أشهرهم ولدهما تريتون Triton الذي أنجب قبيلاً كبير العدد من تلك المخلوقات التي تسمت باسمه، وكان نصفها آدمياً ونصفها الآخر نصف سمكة.

ايداس وحبيبته مارياسا:

وكان نبتيون– مثل جميع الآلهة– يتدخل في أمور البشر.. ومن ذلك مساعدته ايداس العاشق في الفوز بحبيبته مارياسا، على ما رويناه في الأسطورة.

أعوان نبتيون:

ولانتشار دولة نبتيون هذا الانتشار الواسع الشاسع لم ير الإله بأساً من أن يتخذ له أعواناً على البحار الصغيرة والبحيرات والأنهار والنهيرات والمسايل الصغيرة والينابيع والعيون والغدران، والنافورات.. وكان هؤلاء الأعيان يختلفون بين الشيخ الطاعن للنهر الكبير.. كرب النيل، أو رب الدانوب مثلاً.. وبين الشاب الرشيق ذي العود الفينان للنهر المتوسط القوي الانحدار وبين عروس الماء الرائعة الحسن للنبع أو النافورة.. وكانت قبائل النيرييد والتريتون تحف غالباً بموكب نبتيون وزوجته.

بروتيوس:

أما راعي قطعان نبتيون من عجول البحر (كالمينوطور مثلاً) وخيوله وغيرها فكان إلهاً من الآلهة الدنيا يُدعى بروتيوس Proteus وكان يغادر أعماق الماء أحياناً ليستلقي لحظات على الشاطئ في اليوم المشمس.. وكانت له قوة التشكل في أية صورة يريدها، كما كانت له القدرة على التنبؤ بأنباء الغيب.. وكان الذي يبتغي منه نبؤة يمسك به فلا يفلته حتى يتنبأ له بما يشاء.

نبتيون في الأعمال الفنية:

وقد درج الفنانون على تصوير نبتيون رجلاً متوسط السن، فارع الجسم، مهيباً، يداعب الهواء شعر رأسه الناعم، ولحيته الرائعة، يلبس تاجاً من أعشاب البحر، قابضاً على حربة مزعجة ذات ثلاث شعب.. تنسجم صلابتها وعضلاته التي يخيل لك أنها من ذوب الحديد، وله عينان تصفوان فيصفو البحر، وتشتد زرقته، ثم تعتكران فيموج البحر ويهيج، وتضطرب أواذيه، ويكن ظلمات من فوقها ظلمات ومن تحتها ظلمات.. فتتحرك الجزر، وتنقذف مكنونات الأعماق.

قصر نبتيون ومعابده وألعابه:

ولم يكن نبتيون يختلف إلى الأولمب إلا قليلاً.. وكان يتخذ له قصراً مرجانياً مكفتاً باللآلِيء وأحجار البحر الكريمة في أعمق أعماق الماء بالقرب من الجيه Algae على شاطئ جزيرة أيوبيا (على الساحل الشرقي لليونان الأصلية).. وكانت حظائره بالقرب من ذلك القصر.. وكانت حوله منازل أصغر لبطانته ووصيفات زوجته.

وكانت عبادة نبتيون واسعة الانتشار في اليونان وفي إيطاليا، وكانوا يقيمون باسمه المعابد الفخمة الرائعة في أكبر مدنهم.. كما كانوا يقيمون باسمه عيداً عظيماً للألعاب الرياضية في مدينة كورنثه تلك الألعاب التي كانوا يطلقون عليها الألعاب البرزخية Isthmian نسبة على برزخ كورنثه بين اليونان والمورة.. وكانت هذه الحفلات فرصة عظيمة للمباريات الموسيقية والشعرية أيضاً.

* * *

بلوتو:

رب الدار الآخرة، ومن أسمائه ديس Dis وهيدز أو حادس Hade وأوركوس Orcus وأيدونيوس Aidoneus وقد سبقت الإشارة إليه في (حرب المردة).. وقد رسمه أخوه زيوس إلهاً للعالم السفلي– ومكانه تحت سطح الأرض.. ويشمل سلطانه جميع الموتى ودفائن الأرض من معادن وثروات.. والعجيب أن نظرة اليونانيين لهذا الإله كانت نظرة كسيفة مذعورة.. فكأنهم كانوا يعتقدون أنه كبير الشياطين– أو إبليس الميثولوجيا عندهم. وكانوا يدعون الآلهة في صلاتهم ألا يروا وجهه (!) حتى بعد الموت.. وذلك أنه لم يكن يطلع إلى ظهر الأرض إلا في سبيل فريسة أو صيد يمضي به إلى عالمه الحزين السادر المقبض.. وكان يركب في رحلاته هذه عربة تجرها جياد أربعة فحمية الون لا تقف بسبيلها عقبة إلا ضربها بلوتو بحربته الهائلة ذات الشعبتين.

بلوتو وديميتير:

وقد عرضنا في الكلمة التي عقدناها عن سيريز– إحدى زوجات زيوس– لما كان من اختطاف بلوتو ابنة هذه الربة.. وتناولنا ذلك أيضاً في أسطورة (اختطاف برسفونية).

الدار الآخرة:

والدار الآخرة التي يسيطر عليها بلوتو، هي هذه الأقطار المظلمة السفلى التي يزعم الرومان أنه لا يمكن للأرواح المضي إليها إلا عن طريق هذا المنفذ الذي كانوا يسمونه آفرنوس Avernus وإن زعم اليونانيون أن لها منفذاً آخر بالقرب من رأس تيناروم الصخري Taenarum.

وكانوا يعتقدون أن من دخل من الأحياء هذه الدار الآخرة– أو هيدز–

استحال عليه الخروج منها ثانية.. وكان كثير من الناس يحاولون التخلص من هذه الدنيا الفانية فيرحلون إلى أحد منفذي الدار الآخرة يحاولون الدخول إليها.. ولكن بلوتو كان يكره منهم ذلك، ولاسيما إذا كانوا ممن لا يرغب هو فيهم.. ولهذا أقام على بوابة مملكته الكبرى كلبه سيربيروس Cerberus ذا الرؤوس الثلاث ليحرسه، وليفترس من يقترب منه، فلا يدخل إلى الدار إلا شبحاً من الأشباح.

ومن هذه البوابة الكبرى يهبط طريق سفلي طويل ينتهي إلى عرش بلوتو.. تسلكه أرواح الموتى..

أنهار هيدز:

ومن تحت هذا العرش تتفجر أنهار هيدز التي تحيط بالعالم السفلي كأنها الخندق العظيم، وأحد هذه الأنهار، واسمه كوكيتوس Cocytus يضطرب بأمواج ملحة ذات هدير مفزع، تتكون من دموع المجرمين الذين يشقون إلى الأبد فوق شطئان هذا النهر، إذ يسخرون دائماً في أعمال شاقة لا يستطيعون منها خلاصاً.. وهذا النهر يتدفق في أرجاء تارتاروس، أحد دركات ذات العالم، خصصه بلوتو لأصحاب الذنوب الكبرى وقد أحاط بلوتو هذا الجزء من مملكته بنهر من الحمم الملتهبة سماه فليجيتون Phlegethon ليفصله عن بقية أرجاء العالم الآخر.

وقبل أن تصل أرواح الموتى إلى بلوتو، لتمثل بين يديه، لتسمع منه حكمه عليها بالشقاء الأبدي، أو الهناء السرمدي، كان عليها أن تعبر نهر أشيرون Acheron ذا الأمواه الحالكة السواد، ولعل هذه الأمواه كانت من قار يجري مندفعاً كأنه ينقذف من ذروة شلال، حتى لا يستطيع أحد أن يعوم فيه.. ولم يكن ثمة جسر أو قنطرة تعبر عليها الأرواح هذا النهر، ولذا كان حارسه شارون (خارون Charon)– الملاح الطاعن في السن ينتظر في زورقه القديم المثقب عند إحدى

صخور الشاطئ لينقل الأرواح إلى العدوة الأخرى(*)، لقاء أوبول– أو– أوبولوس Obolus تدفع به كل روح للنوتي العجوز(**)، وكان أهل الميت يحرصون على وضع هذه القطعة المالية تحت لسان الميت لذاك الغرض (!)، (.. والأوبول يسوى من عملتنا قرشاً وربع القرش أو اثني عشر مليما ونصف المليم) وكانوا يفعلون ذلك حتى لا يتأخر وصول موتاهم إلى عرش بلوتو.. وكان شارون لا يكاد يمس الشاطئ بزورقه المتحطم حتى تتزاحم الأرواح البائسة محاولة أن تسبق إلى الزورق، وكان شارون يذودها بمجدافيه المخيفين.. وكان يتحكم فيها تحكماً سخيفاً.. ولا يقبل إلا أن يختار هو من يشاء ليعبر به إلى الشاطئ الآخر (!) وكان على من لم يستطع دفع الأوبول المفروض أن ينتظر مائة عام على الأقل لينقله شارون بالمجان (!)

ومن أنهار هيدز أيضاً ذلك النهر المسمى ستيكس Styx الذي كان الآلهة يقسمون به فيما يتخذونه على أنفسهم من عهد.. ونهر ليت Lethe التي كانت أمواهه تنسي من ينغمس فيها جميع همومه.. وبهذا تمهد للصالحين سبيل السعادة الأبدية في جنات اليزيوم.

قضاة هيدز:

وبالقرب من عرش بلوتو منصة يجلس عليها قضاة الدار الآخرة الثلاثة، وهؤلاء القضاة هم مينوس ورادا هنتوس واياكوس، وكان عليهم أن يسألوا وفود الموتى عما قدمت أيديهم، وعما عمر قلوبهم من نوايا الخير والشر.. ثم وزن هذه الأعمال وتلك النوايا في ميزان تيميز Themis ربة العدالة المعصوبة العينين، التي لا تحابي أحداً (!) والتي تحمل في إحدى يديها سيفاً مشهوراً حاداً رمزاً إلى أن أحكامها نافذة بلا رحمة ولا تردد.. فإذا رجحت كفة الصالحات دخل صاحبها جنات اليزيوم، وإلا.. سيق به إلى نيران تارتاروس.

(*) اقرأ المشاهد الأولى من ملهاة الضفادع الارستوفانز.

(**) ورد هذا في ملهاة الضفادع المذكورة، وقد ورد مثله في الياذة فرجيل.. مما يخرج به عن كونه مجرد سخرية (!)

ربات العذاب:

وتدفعهم إليها سياط ربات العذاب الثلاث Furies أو Eumenides أو ديريه Dirae أو ايرينيس، وهن بنات أشيرون ونيكس، وأسماؤهن ألكتو Alecto وتيزيفون وميجيرا.. وكن مشهورات بالقسوة التي لا تعرف الحنان حينما يسقن أرواح المجرمين إلى نهر فليجيتون ذي الحمم وبوابات دار العذاب النحاسية.

ولربات العذاب عمل آخر في هذه الحياة الدنيا.. فهن يقفن أثر المذنبين الذين يعتدون على آبائهم ولاسيما بجريمة القتل.. وإن كن لا يغضين عن جرائم العقوق، أو التقصير في حقوق الوالدين أياً كانت هذه الحقوق ولا يقصرن في أخذ المجرمين والكذابين والغادرين والبخلاء والسفهاء وشهود الزور.

ربات المقادير:

وعلى منصة أخرى، قريباً من عرش بلوتو تجلس ربات المقادير الثلاث Fates أو موريه Moerae أو بارسيه Parcae فصغراهن، كلوتو Clotho لا تنفك تغزل حبل الحياة التي يندمج فيه الخيط الأبيض بالخيط الأسود، ثم تسلمه إلى أختها الوسطى لاخسيز Lachesis فتبرمه وتفتله ليكون متيناً قوياً، ثم يسترخي ويضعف (!) وتناوله الأخت الكبرى اتروبوس Atropos فتقص منه قصة بعد قصة، وهذا معناه أن أراوحاً جديدة تغادر الحياة الدنيا بالموت، وهي في رحلتها إلى الدار الآخرة.. وكلما فُتحت مصاريع بوابة تارتاروس سمعت التاوهات وأصوات الباكين تختلط في أصوات السياط التي تلهب جسوم المجرمين!

بنات دانوس (الدانايديز): Danaydese

بعض سكان الجحيم (تارتاروس):

والأساطير اليونانية فياضة بمشاهد عجيبة للطرق التي يُعذب بها الخاطئون وفي إحدى مآسي اسكيلوس يصور لنا الشاعر كيف يتعذب بنات الملك دانوس الخمسون في ذاك الجحيم الفظيع بحمل جرار مثقوبة يملأنها من ذاك الماء المثلوج الذي يتدفق عند سفح الجبل، ثم يحملنها على رؤوسهن ليصعدن بها فوق الجبل كي يملأن حوضاً كبيراً هناك.. لكن الماء لا ينفك يتساقط فوق جسومهن من تلك الثقوب، وهن في حال من التعب والإعياء، حتى إذا بلغن الحوض أو أوشكن أن يبلغنه لم يبق في الجرار شيء.. وهنا تفتك بهن الحسرة، فيجلسن ليسترحن قليلاً.. ولكن.. هيهات.. إذ تنهال الزبانية عليهن ضرباً بالسياط والعصي الغليظة، فيقفن مفزوعات ليبدأن عملهن من جديد.. وهكذا دواليك...

الملك تانتالوس: Tantalus

ومن سكان الجحيم أيضاً ذلك الملك القاسي المتحجر الكبد والقلب: تانتالوس ملك فريجيا، الذي كان يسوم شعبه المذلة، والخسف، وسوء العذاب، ويجيع رعاياه، ويستأثر من دونهم بخيرات البلاد يبعثرها وينفقها على شهواته، متحدياً الآلهة، كافراً بأرباب الأولمب حتى لقد ذبح لهم في إحدى المناسبات ابنه بيلوبس Pelops وطبخ لحمه لهم، استهزاء بهم وسخرية.. وقد أكلت سيريز، ربة الخصب والزراعة، مزقة من كتف هذا الولد المنكود، وذلك حينما كانت في غمرة حزنها على فقد ابنتها برسفونيه، فلما رثت الآلهة لحالة هذا الغلام، أعادته إلى الحياة، وجاءت سيريز فجعلت مكان المزقة التي أكلتها (رقعة) من العاج.. ثم أرسلته ليحكم بلاد المورة، التي تسمت منذ ذلك اليوم باسمه (بلوبونيز) وذلك بعد أن طرد منها جيوش ملك طروادة.

أما أبوه.. الملك تانتالوس.. فقد أرسلت به الآلهة إلى جحيم تارتاروس، حيث وضعته إلى ذقنه في جرة عظيمة من الماء العذب، وسلطت عليه طائفاً من الظمأ الشديد يكاد يحرق أمعاءه.. وكلما حاول أن يدني فمه من الماء، هبط الماء هرباً منه.. فلا يستطيع الوصول إليه أو الدنو منه..

ثم جعلت الآلهة فوق رأسه غصناً مثمراً من أغصان الفاكهة.. وسلطت عليه طائفاً ثانياً من الجوع المفترس الشديد.. وكلما حاول التقام شيء من الفاكهة ارتفع الغصن، ولم يستطع الملك الظالم أن ينال منه شيئاً.. وهكذا.. إلى الأبد...

الملك سيسيفوس Sisyphus

ومن سكانها أيضاً الملك سيسيفوس.. الرجل الباغي الظالم، الذي كان يسوم شعبه الخسف، ويقطع طريق الضاربين في الأرض، يسلط عليهم اللصوص، ويحتجز أموال الضعفاء. لقد سُلط عليه عذاب شديد.. فهو مكلف إلى الأبد بدحرجة حجر كبير ثقيل يدفعه إلى أعلى الجبل.. لكن الحجر ينفلت منه فيهوي إلى السفح فيعود الملك البائس إلى دفعه من جديد.

الملك سالمونوس : Salmuns

ومنهم الملك سالمونوس الذي كان يعيب على الآلهة نظام هذا العالم حتى أراد زيوس ابتلاءه، فأخلى له عرش الربوبية، لينظر ماذا يصنع.. وقد روينا أسطورته في هذا الكتاب.

المارد تيتيوس: Tityus

ومن سكانها بعض عصاة المردة.. وعلى رأسهم تيتيوس الضخم، الذي كان جسمه يحتل من أرض الجحيم مساحة قدرها تسعة أفدنة (!) وقد أهان مرة ملكة الأولمب حيرا (جونو) فسيق إلى جهنم.. وصُفد على حيد جبل من جبالها، وسُلط

عليه باشق من جبابرة الطير ينهش كبده نهاراً، فإذا كان الليل كف عنه.. كما كانت حال بروميثيوس فيما ذكرنا من قبل.

اكسيون ملك لايبيثي: Ixion of Lapithae

ومنهم هذا الملك الذي خطب على نفسه الجميلة ضيا Dia فلما أجابه أبوها إلى ذلك على أن يمنحه مبلغاً من المال، رفض اكسيون الوفاء بما عاهد عليه الرجل... لكن حماه اشتد في طلب المبلغ، فذبحه اكسيون.. ولما علم زيوس بالأمر، استدعى القاتل والقتيل، ونظر في دعوى كل منهما، ثم قضى أن يخُلد اكسيون في النار بعد أن أوشك أن يبرئ ساحته، وذلك أنه لمحه وهو يبادل حيرا، زوجة الإله الأكبر، نظرات الإعجاب والمحبة.. وأمر زيوس أن يربط اكسيون إلى عجلة محماة في النار، لا تنطفئ مدى العمر.. لا تنفك تتدحرج علوا وسفلا(!)..

تفسيرات للأساطير اليونانية

(١)

ظلت الأمة اليونانية متمسكة بوثنيتها أحقاباً طويلة، بالرغم من ظهور هذه الحركة الفكرية التي أشعل نبراسها طاليس الحكيم في مقاطعة أيونيا– غربي آسيا الصغرى– في القرن السابع قبل الميلاد.. والتي اصطبغت بالصبغة المادية البحتة هناك، ففسرت أصل الخليقة أو منشأ العالم، أو الـ Arche بأنه الماء أو الرطوبة كما زعم طاليس، وبأنه مادة غير محددة المعالم ولا الشكل ولا النهاية أطلق عليها أناكسماندر اسم الـ ابيرون art Elpov ورغم أنها تتشكل وتتطور.. ثم زعم انكسمينيز أن أصل العالم هو الهواء.. إلى آخر هذه الآراء التي كانت تصطرع في ملطية، حاضرة أيونيا في ذلك الوقت..

ثم جاء الفيثاغوريون فاتجهوا في تفكيرهم وجهة رياضية بحتة، إذ زعموا أن العدد هو أصل الخليقة.

ثم ظهرت المدرسة الأيليوية– نسبة إلى جزيرة ايليا جنوبي إيطاليا– تلك المدرسة التي ازدهرت فيها الفلسفة النظرية التجريدية من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٤٥٠ ق.م، والتي بدأت بالشاعر المتفلسف اكزينوفانس (٥٤٠– ٤٨٠) الذي راح يهاجم هسيود وهومر، وينحي باللائمة عليهما في نشر هذه الوثنيات المضحكة بين الشعب اليوناني الساذج، حتى آمن بتلك الآلهة المتعددة المعربدة التي تتصف بأسفل مما يتصف به النوع البشري من الرذائل البشعة، والمخزيات التي يندى لها وجه الفضيلة.

والله عند اكزينوفانس واحد لا شريك له.. وهو الكمال المطلق والسمع المطلق والبصر والمطلق والعقل المطلق.. لا يشبه أحداً ولا يشبه أحد.. يصدر عنه

الفكر والسمع والبصر كما يصدر الضوء عن الشمس.. وليس الله شيئاً وهذا العالم شيء آخر.. بل هما شيء واحد.. وما هذه الخليقة إلا مظاهر تبدو وتختفي.. الخ.. ولعل هذا الذي زعمه اكزينوفانس هو أول تفكير الناس في الغرب في وحدة الوجود...

وعلى هذا النحو.. أخذت الآراء الفلسفية تتطور وتصطرع، مما تجد محله في كتب الفلسفة لا في هذا المكان.. حتى إذا ظهرت الحركة السفسطائية في اليونان في القرن الخامس تفشو، ولا يبالي رجالها أن يهاجموا معتقدات الناس في تلك الآلهة المتعددة، وأخذ الشعراء يتأثرون بحركتهم الفكرية.. وأخذ اسخيلوس، الذي كان طليعة الحركة السفسطائية ينقد في مآسيه العظيمة أعمال الآلهة وتصرفاتها المضحكة، ويصور تلك الأعمال وهذه التصرفات تصويراً لاذعاً، فيه زراية، وفي سخرية، وفيه استهزاء شديد أحياناً.. لما حدث هذا كله بدأت حركة التحول في هذه الديانة الوثنية، وتجرأ الناس فأقبلوا على شهود مآسي يوريبيدز التي سخر فيها بالآلهة، وصورها في صورة عصابة من اللصوص وهاتكي الأعراض.. ثم كان ارستوفانز كاتب الملاهي العظيم الذي أضحك اليونانيين على آلهتهم، مما نقرأ صوراً بارعة منه فيما بقي له، ووصلت إليه أيدينا من تلك الملاهي..

هنا اشتدت الحركات الفكرية المناهضة للوثنية.. وكان سقراط الخالد قد أخذ يفكر هو الآخر.. ويفلسف.. بعد أن تأثر بمآسي يوريبيدز وملاهي ارستوفانز أيما تأثر.. فلم يبالِ أن يختلط بالناس يحاورهم ويناقشهم في سخف الاعتقاد بهذه الشجرة الكبيرة من أنساب الآلهة.. وهنا.. ثار الشعب الساذج المتدين.. وانتهز الساسة الوصوليون ثورة الشعب فأوردوا سقراط حتفه، وجرعوه السم.

وأخذ العقلاء الذين آمنوا بسخف هذه الوثنية، يفكرون في نشأة تلك الآلهة... وكيف تغلغل الإيمان بها في أذهان الناس.

(٢)

ولعل أول من حاول تفسير الأساطير اليونانية تفسيراً علمياً هو: يوهيميروس المسيني Euhemerus (٣١٦ ق.م) العالم اليوناني الذي ذهب إلى أن الأسماء اللامعة الواردة في تلك الأساطير إن هي إلا أسماء ملوك وملكات حقيقيين حكموا في هذا العالم، وتركوا في الدنيا دوياً رفعهم إلى مصاف الآلهة.. فسيد الأولمب "زيوس" لم يكن إلا ملكاً من ملوك كريت، وما حربه ضد المردة إلا ما قام به من التنكيل بأعدائه الذين ثاروا لينتزعوا الملك منه. وما هذا المطر الذي أرسلته داناي من السماء فكان يتحول ذهباً، إذا لامس الأرض إلا هذه الدنانير الحمر التي كانت تنثرها على حراسها.. ومابرومثيوس، خالق الإنسان، من طين من صلصال، إلا صانع فخار اشتهر في عصره بمصنوعاته الدقيقة التي كان يصنع لها أيديا ورؤوسا كأيدي الناس ورؤوسهم.. وما أطلس إلا عالما من علماء الفلك، بصير بمواقع النجوم.. وما هرقل وثيذيوس والكينوس ومن إليهم إلا أبطال حقيقيون حكموا بطريقة ما من الطرق، في صقع ما من أصقاع العالم الذي شمله خيال اليونانيين القدماء.

ويقول يوهيميروس إن الذي جعله يذهب إلى هذا التفسير هو ما اكتشفه في إحدى رحلاته في المحيط الهندي، في زيارة له لإحدى الجزائر، واسمها يانشايا.. وذاك أنه وجد فيها حجراً نُقشت عليه أسماء الآلهة اليونانية الرئيسية، وجاء في النقش أنها ملوك حكمت في جهة ما من جهات العالم، وقد ضاع مؤلفه الذي سماه: Hiera Anagraphe واتهمه الناس بالتجديف.. حتى أصبح اسمه علماً على المجدفين.. إلا أن رأيه في الآلهة أصبح مذهباً من المذاهب الفلسفية وسُمي بالـ– يوهيميرزم.. وأخذ به علماء أعلام في القرن الثامن عشر، ولاسيما في فرنسا وانجلترا(*).

(*) انظر كتاب Abbe Bauer في ثبت المراجع.

(٣)

(.. بين فقهاء اللغات وعلماء الأجناس البشرية)

ويذهب فقهاء اللغات إلى أن أساطير القدامى نشأت كلها أو معظمها مع الإنسان الأول.. أو القبيلة الأولى من القبائل البشرية.. حتى إذا كثر الناس وتفرقوا في أرجاء العالم واستقل كل شعب منهم بلهجات حديثة ومميزات تميزه بها ظروف حياته الجديدة، والبيئة التي لها سلطانها على كل من يقطنها، أخذت هذه الأساطير تتوزع وتتلون، وتتفرع منها فروع جديدة يغذيها الخيال، ويذهب بها كل مذهب، وإن بقيت الأسماء الكبيرة في الأساطير كلها وعند كل شعب واحدة، أو محرفة تحريفاً يسيرا.

ولا ينكر علماء الأجناس البشرية، وعلماء علم الأساطير المقارن، احتمال نشوء الأساطير في مكان واحد بعينه.. هو المكان الذي نشأ فيه الإنسان الأول، ثم انتشار هذه الأساطير بانتشار الناس في أرجاء الأرض، في مدى المائتين والخمسين ألفاً من السنين التي يقدرونها لنشوء الإنسان على هذا الكوكب.. إلا أنهم يعتقدون مع ذاك، أن هذه الأساطير المتشابهة قد أوحت بها ظروف متشابهة كذلك، كهذه الظروف التي أوحت للناس جميعاً، وفي جميع أرجاء العالم باختراع السهام من حجارة الصوان، وهو ما يعتر عليه المنقبون في أطراف أمريكا وفي مجاهل أفريقيا وآسيا وأوروبا على السواء.. ويزيد اعتقادهم هذا رسوخاً تشابه هذه السهام الموغلة في القدم تشابهاً شديداً. ولعل أهم هذه الظروف هو مرور جميع الأناسي الهمجية الأولى بظروف قاسية في معايشها تكاد تتشابه تشابهاً تاما جعلها تعتقد في قوى باطنة للوحوش أو الحيوانات التي كانت تختلط بها أو تقع عليها أعينها.. ولهذا نرى أن معظم الشعوب القديمة كانت تتخذ "طوطما" من أحد هذه الحيوانات ليكون رمزاً للقبيلة وحامياً لها، بعد أن يؤمنوا بأن ثمة وشائج من القربى أو الشبه بينه وبينهم.. بل نحن نجد أن ظروفاً بعينها جعلت كثيراً من تلك الشعوب البدائية تؤمن بأن الأشجار والنبات والشمس

والقمر والنجوم والجبال والغدران والبحار والأنهار وكل الظواهر الطبيعية هي قوى حية ذات أرواح وعقل وإرادة وعواطف.. بل إن الإيمان بالسحر المنتشر بين تلك الشعوب الهمجية منشؤه اعتقادهم بأن كثيرين من بني جلدتهم لهم القدرة على التشكل بأشكال الحيوانات، وسحر الناس إلى أي حيوان يريدون.. ومن هنا عبادة القدامى للشمس والقمر والنجوم والعجول والبقر وابن آوى والتمساح وفرس الماء والثعابين وما إليها.. فالشمس والقمر والنجوم والسماء والجبال وما إليها من الظواهر الطبيعية مستطيعة من أجل هذه الأرواح المضمرة فيها أن تتسلط على من تشاء وما تشاء من البشر والحيوان والطير.. بل هي آلهة ذات أعين ساهرة ترقب ما يدب على الأرض وينسرب في الماء، ويطير في الهواء من مخلوقات.. وأصحاب هذا الرأي يضعون الإغريق في عصور تلك الأساطير في مستوى قبائل البوشمان الاسترالية في العصر الحاضر من حيث طرائق تفكيرهم ومعتقداتهم، وهذه مبالغة شديدة لا يخفى وجه الغرابة فيها على أحد.

(٤)

ويعلل علماء علم الأساطير المقارن تشكل آلهة هذه الأساطير في صور الطير والحيوان وما إليها بأنه– أي هذا التشكل– صور مجازية لما يحدث بين الظواهر الطبيعية من تفاعل واندماج.. كهذا التفاعل الذي يحدث بين المطر والحب، وبين التربة والحب، وبين ضوء الشمس وأوراق الأشجار وثمارها وأزهارها، وبين النفس وما يخامرها من ولاء ومحبة، أو يحتويها من بغضاء وكراهية.

فأسطورة بسيشبه وكيوبيد مثلاً في رأي هؤلاء العلماء هي أسطورة مجازية أريد بها تصوير النفس (بسيشه) وكيوبيد (الحب) وما ينتهيان إليه من امتزاج وإيلاف بعد سلسلة من الآلام والتباريح.. بينما يرى علماء الأجناس البشرية أنها تصور ما درج عليه القدماء من تلك العادة التي كانت تحرم على الزوج رؤية وجه زوجته حتى تضع طفلها الأول.

(٥)

على أن تفسيرات علماء فقه اللغات للأساطير هو اليوم أوجه ما يأخذ به العالم الحديث لفهم تلك الأساطير وتعليلها.. وعندهم أن الأساطير نشأت نتيجة علل لغوية.. مثلها في ذلك مثل الدرر الذي ينشأ نتيجة علل تصيب المحار[*].. فالسبيل إلى فهم الأساطير هو تفهم الاشتقاقات اللغوية والإلمام بأصول اللهجات المختلفة التي تفرعت عن مصدر أولي واحد.. ولاسيما أصول أسماء الظواهر الطبيعية.

فاللغات الأسبانية والفرنسية والإيطالية مشتقة من اللغة اللاتينية، بينما يلاحظون أن اللاتينية والإغريقية والسنسكريتية مشتقة من مصدر قديم واحد.

فكلمة قنطرة مثلاً هي باللاتينية Pons وبالفرنسية Pont وبالإيطالية Ponte وبالأسبانية Puente مما يدل على أن الانحراف الهجائي جاء نتيجة انحراف في النطق، ومما يدل أيضاً على أن هذه الشعوب كلها كانت تعرف القناطر لكونها ضرورة من ضرورات حياتها.

وينتقلون من هذا المثل المحصور إلى مثل أوسع أفقاً يربط المجموعة اللاتينية بالأصل الذي يربط هذه المجموعة بمجموعات غيرها.

فكلمة "أب" مثلاً: هي:

السنسكريتية	بتري	Pitri	واللاتينية	باتر	Pater
والزندية[١٢]	بيتر	Piatar	واليونانية	باتير	Patair
وبالفارسية	بادر	Pader	وبالقوطية	Gothic	فاتر Vatar
وبالأرسية	(شبه الأرلندية)	Athair	وبالألمانية		Vatter

[*] جربر ص: ٣٤٤ ط ١٩٣١.

(١٢) لغة شرق فارس وهي اللغة الآرية الخالصة..

وبالإيطالية	Padre	وبالهولندية	Fader
وبالأسبانية	Padre	وبالدنمركية	Fader
وبالفرنسية	Pére	وبالسويدية	Fader
وبالسكسونية	Fœder	وبالانجليزي	Father

ويقول الثقات من علماء فقه اللغات إنه كان في البدء- أو في الحقبة الاشتقاقية الأولى(*)- حيث بدأ الاشتقاق الفعلي- أي من الأفعال- قبيلة تسكن أواسط آسيا كانت تتكلم لغة تتركب كلماتها من مقطع واحد.. وأن هذه اللغة كانت أصلاً لمجموعات اللغات الطورانية والآرية والسامية.. ثم تلت هذه الحقبة حقبة بدوية كان أهلها يضربون في البادية التماساً للكلأ أطلقوا عليها الحقبة اللصوقية(**)، وهي الحقبة التي كان الضمير يُلصق فيها بالفعل تصريفاً له، أو يُلصق فيها الحرف بالاسم دلالة على محل الاسم من الإعراب دون أن يكون في ذلك كله تداخل أو نحت. ولم تزل اللهجات تتدرج رويداً رويداً حتى استقرت آخر الأمر مجموعات اللغات المعروفة في العالم كله.

ثم يأتي بعد الحقبة اللصوقية حقب الأساطير أو الحقب الميثولوجي(***) ثم يلي ذلك عصر القوميات.

وفي الحقب الميثولوجي ازدهرت معظم الأساطير التي ورثتها الإنسانية عن أجدادها القدامى.. وبمقارنة الكثير من أسماء الآلهة اليونانية بأسماء الآلهة السنسكريتية، نعلم أن مصدر أساطيرنا اليونانية يرجع إلى هذا الأصل الآسيوي العتيد، بالرغم مما أصاب تلك الأسماء من انحرافات ليست- مع ذاك- ذات بال.

(*) Rhematic Period.

(**) Agglutinative.

(***) ويسمونه أيضاً الـ: mythopoeic [الأسطوري الشعري].

وإذا وزعنا الآلهة اليونانية على الظواهر الطبيعية، وذلك تمشياً مع نظرية علماء فقه اللغات، ومجاراة لتفسيراتهم التي استخرجوها من مسميات هذه الآلهة، لم نر بداً من أن نفعل الذي فعله الأستاذ هـ. أ- جربر، حينما بدأ بأساطير السماء، ثم أساطير الشمس والفجر، وأساطير القمر، وأساطير الأرض، فالبحر، فالسحاب، فالنار فالرياح.. ثم أساطير العالم الثاني.. هذا العالم البعيد الغامض المجهول.

أساطير السماء:

فالإله أورانوس Uranus هو نفسه الإله الهندي فارونا Varuna وهو مشتق من الجذر السنسكريتي "فار Var" ومعناه يغطي أو يخبئ أو يلقي قناعاً على، ولما كانت السماء تحدق بالأرض وتغلقها في عين الناظر إليها، فقد أطلقوا عليها اسم فارونا، الذي انتقل إلى اليونان باسم أورانوس.. والذي أخذ يلقي بأولاده السيكلوب أو الكيكلوب كما ينطقها اليونانيون- ومعناها الشهب- في وهدة الأرض- أو الجحيم- أو تارتاروس Tartarus.

أما زيوس Zeus أو- جوبيتر الروماني- فهو نفسه الإله الهندي ديوس بيثار Dyaus Pitar رب السموات اللامعة المتألقة، وهو مشتق من الجذر السنسكريتي dyuldiv أي يلمع، وثمة اسم في هذه اللغة هو dyu ومعناه السماء أو النهار، وقد أطلقه القدماء على "الله الواحد" ثم اقتبسه اليونانيون فأطلقوه على كل ما يشعرون به نحو الله سبحانه.. إلا أنه لما كانت العامة تطلق على السماء بكل ما فيها من ظواهر متقلبة.. من صفاء وصفو، ثم تجهم وغيم وعكر، ثم برق ورعد ومطر، فقد اشتقت منها كلمات وعبارات للتقلب والتغير وأفعال السوء، مما نقرأه في أساطير هذا الإله زيوس.. وهو ما يجعلنا ندهش من نسبة هذه المخزيات كلها إلى ذاك الإله!

والربة حيرا Hera -Hppa أو جونو الرومانية- معناها الضوء السماوي، ولذلك جعلوها زوجة لإله السماء زيوس- ويفترضون اشتقاقها من الأصل

السنسكريتي صور Soar ومعناها السماء المشرقة أو من سيريا Surya ومعناها الشمس.. وكل مشتقاتها تعني تغيرات الجو وتقلباته.. ولهذا نُسبت إلى حيرا جميع الدنايا الخلقية التي لصقت (ظلما!) بالجنس اللطيف.. كالغيرة، والهوى، وحب الانتقام، وتنغيص العيش على السعداء.

ومن أسماء السماء أيضاً آرجس Argus وهو ذلك الوحش الذي تحدثنا عنه في أسطورة يو والذي سلطته حيرا على ضرتها ليعذبها ويفتك بها... وليست عيونه المائة إلا هذه النجوم التي تتألق بالليل ولا تزول بالنهار، وإن أخفاها نور الشمس.

ويو Io هي القمر الساهر مع ذاك، الذي يجوب أقطار السموات، فريداً وحيداً، وقد جعل لها اسخيلوس في مأساته برومثيوس مكاناً فريداً.

أساطير الشمس والفجر:

ولعل هذه المجموعة من الأساطير هي أكبر واحدة من نوعها في رحبة الأساطير اليونانية كلها...

فمن ربات هذه المجموعة أوروبا Europa، التي أفردنا لها اسطورة كاملة في الجزء الثاني- ومعنى أوروبا "النور المتلألىء المنتشر، الذي يولد مع الفجر من فينيقية في الشرق، بلاد الصبح الأجوانية".. وهي ابنة تلفاسا زوجة أجينور.. وقد سرقها زيوس (السماء) فتقصى أثرها أخوها قدموس (الشمس) إلى آخر ما تقرأه في الأسطورة.

وأبوللو واسمه باليونانية هيلوس Helios ومعناه الشمس! هو من أعظم آلهة اليونانيين حتى لقد تسمت البلاد باسم هيلاس من أجله، وتسمى الهيلانيون بهذا الاسم للسبب نفسه، وقد عبد اليونانيون قرص هليوس المتألق الذي يجوب أقطار السموات من الشرق إلى الغرب وسموه اسماً ثانياً هو "فوبوس" Phoebus ومعناه رب

الحياة والضوء، وأبوه زيوس– السماء– وأمه ليتو (الليلة الليلاء) وقد أنجبه في الأرض اللامعة– (ولعلها جزيرة ديلوس) حيث يطوي إليها أبوللو رحلته اليومية إلى الغرب، وإن كان موقع الجزيرة وسط بحر الأرخبيل.

وكان اليونانيون يؤمنون بأن الشمس (أبوللو) لا تني تحارب البرد والمرض وسائر الأوجاع، ولا تفتأ ترسل سهامها– أي أشعتها– لتمحق الجدب والظلام والأدواء التي رمزوا لها بهذا التنين المفزع بيثون Python والذي تلقاه في طائفة كبيرة من أساطيرهم..

وفي أسطورة دفنيه نرى أبوللو يتسبب في تحول حبيبته هذه إلى شجرة بعد إذ أحبها وكرهته.. ودفنيه كلمة مشتقة من اللفظة السنسكريتية Dahanu أي dawn ومعناها "فجر" أو ضوء الأصباح ودفنيه في تلك الأسطورة رمز إلى ندى الفجر الذي تحبه الشمس وتحييه، لكنها تحوله تحت أنفاسها المحترقة إلى بخار، لا تنال منه شيئاً.. وهو ما ينطبق على الأسطورة تمام الانطباق.

وفي أسطورة أورفيوس نرى أن حبيبته يوريديس رمز لهذه الأنفاس الأولى التي تملأ الأفق في وقت السحر، ثم لا تلبث أن ينسخها الظلام بعد ذلك.. وكل هذا قبل انبلاج الصبح.. ويوريديس مشتقة من كلمة سنسكريتية معناها: انبلاجة ضوء الفجر في آفاق السماء. أما أورفيوس فيذكر بعضهم أنه رمز للريح التي تصدح (تزمجر) فتقتلع الأشجار وتلفح الوحوش وتنسيها توحشها، بينما يقول آخرون إنه رمز لجمال الصبح القصير العمر. ويذكر البعض أيضاً أنه رمز للشمس التي تنحدر ساعة الغروب في وهدة من الظلمات عميقة الغور، رجاء استعادة الفجر المتلاشي– الذي هو يوريديس بطبيعة الحال.

وفي أسطورة أنديميون يرمزون بهذا البطل إلى الشمس الغاربة التي تهبط من عليائها لتستريح على جبل لتموس– ولتموس تعني أرض النسيان، وهي كلمة مشتقة

من ليتو Leto.

ويذكر موللر muller الفقيه اللغوي الثقة أن الناس كانوا يتمثلون في لغة اليس الشعرية فيقولون: "إن سيلين تحب أنديميون وترقبه" حينما يريدون أن يقولوا: "تأخر الوقت بنا" و"سيلين تعانق أنديميون" حينما يريدون أن يقولوا: "إن الشمس تغرب والقمر يبزغ" و"سيلين تقبل أنديميون في نومه" بدل "الوقت ليل".

وأدونيس هو الآخر رمز للشمس القصيرة العمر، وقد افترسه الخنزير البري، الذي هو رمز للظلام، فبكته فينوس، الفجر أو السحر أحر البكاء، ثم ترفض آخر الأمر أن تعيش بدونه.

واكسيون Ixion الذي شهدناه في هذا التذييل يلقى به في نار الجحيم لمغازلته حيرا زوجة الإله الأكبر، هو أيضاً رمز من رموز الشمس، ولعله هو نفسه العلم السنسكريتي أكشاناه Akshanah الذي يحدثنا عن مخلوق ربط حول عجلة متأججة بأمر زيوس (دايوس) لهذه الجريمة نفسها.

وزوجته ضيا Dia أو ضياء الفجر، هي رمز للفجر نفسه، وهي تقابل فينوس وأوروبا ويوريديس وبروكريس وكورنيس ودفنيه.. وغيرهن من ربات الأولمب اللائي يرمز بهن إلى الفجر أو ضيائه..

أما هرقل، وهو أشهر أبطال هذه المجموعة الشمسية.. وقد ولد في آرجوس- ومعناها الوهج أو الألق، وأبوه زيوس، السماء وأمه الكمين- ومعناها الفجر أيضاً- وقد شهدناه في أسطورته يقتل الثعابين والأفاعي- الظلمات.. وهو لا يزال طفلاً- ثم نراه طوال حياته يغامر ويجازف ولا يمل ولا يكل.. مثله في ذلك مثل هذه الشمس التي لا تغيب عن بقعة من العالم إلا لتشرق على بقعة أخرى، تؤدي رسالتها دون أن ينال منها الونى أو الكلال.

ولقد رأينا الملك يكلفه باثني عشر عملاً هي فوق طاقة البشر، وهذه الأعمال الاثنا عشر هي بلا شك رمز لصورة البروج الاثني عشر، أو رمز لشهور السنة الاثني عشر.. أو ساعات النهار الاثني عشر.

ونلاحظ أن هرقل، مثل أبوللو وقدموس، يجبر على أداء خدمات بعينها رغم إرادته للنوع البشري.. وهو في ذلك يقوم بما تقوم به الشمس للبشر، من غير أن يكون لها في ذلك إرادة أو وعي...

وزواج هرقل من ديانيرا (ضياء النهار) قد كلفه حياته آخر الأمر، فقد دفعتها الغيرة إلى أن تهدي إليه قميص عدوه السنتور نسوس Nessus ذاك القميص المسموم، فيلبسه فيقضي عليه بعد أن يصيبه بالتهابات وأوجاع لا توصف.. وهل ذلك إلا رمز للشمس الغاربة في لجة من السحب التي ألهبها الشفق الأحمر، وجعلها تتأجج كما تتأجج السعير.

وبرسيوس هو أيضاً من أبطال المجموعة الشمسية، وهو رمز لكوكب النهار المتألق، ولذلك لقبوه بصاحب إكليل الشعر الذهبي– وهو ابن زيوس (السماء) من داناي، (الأرض) و"دانو" معناها الأرض المتأججة– ومن معاني داناي أيضاً الفجر، وهي ابنة أركيزيوس (الظلام) وقد ولِدت في آرجوس (الوهج أو الألق)..

ولا يكاد برسيوس يبلغ الحلم حتى يُرغم مثل هرقل على خوض مغامرات شاقة مهلكة، حتى إذا قام بها تزوج أندروميدا (الفجر) ابنة سليوس Celeus وكاسيوبيا: Cassiopeia (الليل والظلمة).

ومن معاني برسيوس أيضاً "المخرب" وهو يزور وطنه مصحوباً بزوجته فيقتل أكريزيوس Acrisius (الظلمة) كما تحدث النبوءة.

وبرسيوس هو قاتل مديوسا ومعناها "الليل المرقش بالنجوم ذو الجمال الجليل،

وإن كان مصيره الانقشاع إذا بزغت الشمس".

وثيذيوس هو أيضاً من أبطال المجموعة الشمسية، وأبو ايجيوس AEgeus (ومعناه البحر ولعله مشتق من aisso ينزلق بسرعة كانزلاق الموج)، وأمه ايثرا AEthra (ولعله الأثير أو الهواء الصافي)– وثيذيوس هو قاتل المينوطور (هولة الظلام الدامس) ثم يحمل بعد ذلك آريادن (الفجر) التي يضطر إلى هجرها وشيكاً في جزيرة ناكسوس.. ثم نراه فيما بعد يتسبب في قتل أبيه ثم يحارب قبيل السنتور (القنطور) Centaur (رمز للسحب) ثم نراه يهبط إلى أعماق التارتاروس، فإذا عاد منها رأيناه يربط أسبابه بأسباب فيدرا (السحر) شقيقة (الفجر) التي أحبها في شرخ صباه، حتى تنتهي حياته بانقذافه من صخرة سامقة إلى أعماق البحر.. (رمز لغروب الشمس).

وفي أسطورة حملة الآرجو (الآرجو هي تلك السفينة التي حملت رجال جاسون) الآرجونوت نجد أن آتاماس Athamas يتزوج من نيفيل Nephele (الضباب) وأن الكبش صاحب الفروة الذهبية (رمز لأشعة الشمس) يحمل طفليهما فريكسوس وهله Phryxus and Helle (رمز للريحين الباردة والدافئة)– ويرمز بهما بعضهم إلى السحاب وذلك هرباً بهما من زوجة أبيهما اينو Ino (الضحى) التي كانت تسعى إلى إهلاكهما.

أما السفينة الآرجو فهي رمز للكرة الأرضية التي تحتوي على جميع أصول الأحياء وجميع ملاحيها من أبطال المجموعة الشمسية الذين نتكلم عنهم هنا، وقد ساعدت ميديا (الفجر) حبيبها جاسون في الحصول على الفروة بعد أن دلته على طريقة يقتل بها التنين "غول القحط". أما ايتيس AEetes والد ميديا (رمز الظلام) فقد حاول عبثاً استرجاع طفليه (ميديا وأخيها) أو الفجر والضوء، بعد أن حملهما جاسون– الشمس– في سفينته.

ثم يقع جاسون في حب الأميرة جلوس Glauce (ضوء النهار الساطع)، وهو

متزوج من ميديا، فتعصف الغيرة بهذه وتهدي إلى العروس ثوباً مسموماً يقضي عليها.. وتهجر ميديا زوجها وهو يقاسي من أحزان نكبته، ومن برحاء شيخوخته الأمرين..

وملياجر (سباق آتلانتا) هو الآخر من أبطال المجموعة الشمسية وهو يشترك مع آتلانتا (عذراء الفجر) في قتل الخنزير البري (غول القحط) ثم تتسبب أمه في قتله على نحو ما نقرأ في الأسطورة.

والبطل بليروفون Bellerophon هو من أبطال المجموعة الشمسية كذلك واسمه مركب من جزءين، أولهما بليرو Bellero ومعناه شيء من قوى الظلام والقحط والشتاء أو الخبث الأدبي، وثانيهما فون Phon أو فونتس Phontes (وهي كلمة مشتقة من اللفظة السنسكريتية Han-ta ومعناها القاتل) وقد نسي الإغريق ما يرمز إليه الجزء الأول من الاسم، وذهبوا إلى أن هذا البطل هو قاتل أمه بليرو عن غير إرادته، ومع ذاك فقد أُبعد من وطنه لهذا السبب.

وبليروفون هو الذي راودته آنتييا Anteia (الفجر) عن نفسه فأبى واستعصم، وأطلق ساقيه للريح، واضطر إلى مقاتلة خيميرا Chimara (غول القحط) فلم يلبث أن صرعه بمساعدة بيجاسوس Pegasus (السحب) الذي امتطاه البطل في ملحمته تلك، وبيجاسوس هو ابن ضباب البحر ودم مديوسا.. ذاك الذي كان يجري فتتفجر تحت حوافره الينابيع.

وينتهي بليروفون إلى الزواج من الغادة فيلونو Philonoe السحر ثم يقضي عليه زيوس آخر الأمر بإحدى صواعقه، فتكون حياته القصيرة رمزاً لسرعة انحدار الشمس نحو الغرب ساعة مغيبها.

وفي أسطورة مصرع بروكريس نجد أن سيفال (سيفالوس) يتسبب في مصرع حبيبته، وسيفال رمز في هذه الأسطورة للشمس، وبروكريس (الفجر) لفظة مشتقة من كلمة سنسكريتية معناها يرش أو يثر، والأسطورة مشتقة من أصل هندي بقيت منه

عبارات يُضرب بها الأمثال في حب الشيء القاتل، فهم يقولون: "الشمس تحب الندى، والصباح يحب الشمس، والشمس تقتل الندى".

وفي أسطورة يوم قيامة يفسرون فيتون Phaeton بطلها بأنه "اللامع المتلألىء" ويفسرون خيله السماوية بأنها رمز للسحب البيضاء ذات الندى، والأسطورة كلها ترمز إلى أيام القحط والمجاعة التي ينهيها زيوس (السماء) بصواعقه التي يرسلها في برقه ورعده وأمطاره!

وفي أسطورة تانتالوس نلاحظ أن تانتالوس هذا هو رمز للشمس وهو في الأسطورة يضحي ابنه بيلوبس Pelops (ومعناه الفاكهة الجافة) فيقدمه قرباناً لزيوس (السماء) حتى إذا عرفت السماء ذلك (!) عاقبته بالجوع والظمأ الذي يمزق أحشاءه.. وقد عثروا على أحد الأمثال القديمة التي تقول: "إن تانتالوس يذبح ابنه ويشويه" كانوا يضربونه لليوم الذي تشتد فيه حرارة الشمس فتذبل الأشجار وتجف الفاكهة!...

وإذا جاز لنا أن نتكلم عن أبطال أساطير لا تضمها دفتا هذا الكتاب، لأن مكانها هو في كتاب آخر أعددناه منذ سنين طويلة ولم ننشره بعد، ونرجو أن نوفق إلى نشره، فإنا نذكر من أبطال المجموعة الشمسية عدداً آخر يتردد ذكرهم في المآسي اليونانية المسرحية كما يتردد ذكر بعضهم في كتابينا "قصة طروادة– وبها خلاصة الإلياذة" و"قصة الأوذيسة" وكلتاهما للشاعر الخالد هوميروس.

ففي مأساة "أوديب" نلاحظ أن أباه لايوس Laius هو رمز للظلام– ومن هنا هذا المصير المظلم الذي لقيه هو وأحفاده.. ثم إن لفظة لايوس مشتقة من نفس الجذر الذي اشتقت منه ليتو ولاتموس (بمعنى ظلمة) ثم إن أمه وزوجته– أي أم أوديب وزوجته– هي رمز لسحب الفجر ذات الحواشي البنفسجية.

وأوديبوس في طفولته هو رمز لأشعة الشمس الجميلة ساعة شروقها.. تلك

الأشعة التي لا تلبث أن تصبح ناراً مهلكة تجوب أقطار السموات حتى تنحدر إلى مستقرها.. وذلك كله رمز لمأساة إلقاء أوديب، إذ هو طفل على جبل كتريون ليقتله البرد والصقيع، ثم هذا المصير الذي تقلب به في أخطار الحياة المتضاربة المؤلمة ثم المصير الأخير الذي لقيه جميع أبطال المجموعة الشمسية تقريباً.. حينما ذهب أوديب ليلقى حتفه في ظلام الغابة، بعد أن عرف سر زواجه التعس، وبعد أن لقي من افتضاح هذا السر ما لقي من آلام وأحزان.

والأسطورة، بعد هذا، تنسجم وأصلها البسيط الساذج الذي كان يقول بأن الشمس (أوديب) لابد أن تقتل أباها الظلمة (لايوس) وأن تستأني قليلاً إلى جانب السحابة ذات الحاشية البنفسجية (جوكاسته)... ثم جاء الطيبيون فأضافوا على الأسطورة وجعلوا لها أذيالاً وحواشي.. فأنزلوا العقاب السماوي بأوديبوس.. وهو عقاب لا يستحقه.. لأنه قتل أباه وهو لا يعرفه.. ثم تزوج أمه وهو لا يدري أنها له أم.. والمسؤول الأول والأخير عن ذلك كله هو السماء.

وفي قصة طروادة نجد طائفة كبيرة من أبطال المجموعة الشمسية يمثل كل منهم الشمس.. ويحب كل منهم غادة تمثل الفجر، كما مر بنا في الأبطال الذين استعرضناهم...

فهذا باريس يحب أونونيه.. ثم يقع في غرام هيلين..

وهذا منلوس يقضي عليه حظه التعس أن يكون في جملة عشاق هيلين ثم يقع عليه اختيارها فتتخذه زوجاً لم يقاس زوج ما لقيه هو من زواجه!

وذلك أجاممنون أخوه يحب كليتمنسترا ويتزوجها، فيكون زواجه منها علة هذه السلسلة المحزنة من المآسي التي خلدها لنا معظم شعراء المسرح اليوناني وعلى رأسهم اسخيلوس (في الأورستية) وسوفوكلس (في الكترا).

ثم هذا أخيل بطل الإلياذة الخالدة يحب هو الآخر تلك الفتاة الجميلة بريسيز الطروادية. فيكون حبه لها سبب نكبة تلم بصفوف الجيش اليوناني في ساحة طروادة على نحو ما روينا في قصة هذه الملحمة في الكتاب الذي أفردناه لها.

ثم هذا أودسيوس، بطل الأوذيسة الفريدة، كان يتمنى أن تكون هيلين من نصيبه، لكنها آثرت عليه منلوس، فغضب، وعزا هذا إلى سوء حظه، مع أن هذا كان من حسن حظه في الواقع.. فقد رأينا كيف كانت هيلين سبب تلك المصائب الطويلة التي حلت بالأمة اليونانية، وشعب طروادة، وغير هؤلاء وهؤلاء من الشعوب والأمم التي تعاونت معها.. ثم كيف كانت كارثة في حياة زوجها منلوس بهذه الصبوة الفاجرة التي وقعت في حمأتها مع باريس... على أن أودسيوس لم يسلم هو الآخر من عقابيل تلك الفاجعة.. فقد ذهب إلى طروادة ليقاتل، ولبث فيها عشر سنين بعيداً عن ولده وزوجه بنلوب.. بنلوب الطاهرة ذات الوفاء.. ثم انتهت حرب طروادة.. لكن مصائب أودسيوس لم تنته، بل بدأت.. بدأت برحلته الطويلة التي لقي فيها الأهوال حتى عاد شيخاً مسكيناً، وإن تكن به بقية من قوة ودماء من شجاعة، مكنته من البطش بعشاق زوجته وخطابها.

وهيلين Helen هي غادة الفجر الحسناء.. أو عذراء السحر، وهي تشبه سمارا Samara السنسكريتية، ابنة السماء (زيوس) والليل (ليدا)، وقد خطفها باريس، ولعله يانيس السنسكريتي، أو مارد الليل، في أثناء غياب زوجها، حتى إذا فاز بكنوزها (!) جاء من قهره على ردها!

وهم يفسرون حصار طروادة بهذا الحصار اليومي للشرق، والذي تقوم به أبطال المجموعة الشمسية (وهي تشرق من الشرق وتغيب في المغرب).

وقد أطلق هوميروس على إلياذته (قصة غضب أخيل) وأخيل في هذه القصة قد حارب في غير غرض، ولقي حتفه كذلك، أما غضبه فيعني غضب الشمس حينما

ترسل وجهها في هذا القناع الكثيف من السحب.. أما صديقه بيتروكلوس الذي لقي أخيل حتفه بسبب الثأر له، فهو رمز لأشعة الشمس المتلألئة.. وهذا يعني أن بتروكلوس كان ضوءاً صادراً عن أخيل.. وهو أسمى رمز للصداقة يمكن أن نجده في أدب الدنيا جميعاً.

وتكاد تتشابه أساطير أودسيوس وهرقل وبرسيوس، فهذا هو أودسيوس لا يكاد يتزوج من بنلوب وينجب منها طفله تليماك، حتى يضطر إلى مفارقتهما لحرب لا ناقة له فيها ولا جمل. ثم هو في رحلته الشاقة إلى الوطن يلقى إناثاً كثيرات يحببنه ويحاولن تعويقه واحتجازه ليؤثرن به أنفسهن.. فمن هؤلاء سيرس Circe أو الظهر وكاليبسو Calypso أو عروس الظلام. إلا أنهن يخفقن في محاولاتهن، ويعود أودسيوس بعد أن يزور بلاد الفياشيان (أرض السحب والضباب)، ثم يلقى آخر الأمر زوجته بنلوب (ناسجة أبراد سحب الماء!)

ونلاحظ أن أساطير أبطال المجموعة الشمسية قد امتزجت بأساطير ربات الفجر وعذراواته، فلماذا إذن شذت مينرفا– أو أثينا– كما يسميها اليونانيون عن هذه القاعدة؟ إن أثينا مشتقة من الأصل السنسكريتي داهانا Dahana أو أهانا Ahana ومعناها "ضوء الأصباح أو الفجر" ويزعم الإغريق أن منشأها كان من رأس أبيها زيوس (السماء)... ثم لم تلبث أن أصبحت نور المعرفة، وموقظة المشاعر والملكات، وهو ما يتفق وأحد معاني داهانا، السنسكريتية والتي منها "يوقظ" و"يعرف" بينما ربط اللاتين (الرومان) بين اسمها اللاتيني "مينرفا" وبين كلمة mens الرومانية التي هي نفس كلمة menos (العقل أو القدرة على التفكير) وهي mind الانجليزية.

وقد حاول غير واحدٍ من الأبطال إغراء مينرفا بالزواج منها لكنها اعتذرت، إن لم نقل رفضت.. فهل كان هذا الاعتذار، أو ذاك الرفض، لأن ربة الحكمة، ورمز المعرفة أعقل من أن تقع في أشنع الأخطاء المهلكة.. ألا وهو الزواج الذي لم نشهد

له ثمرة حلوة في الأساطير كلها.

أساطير القمر:

وأبطال القمر جميعاً إناث أشهرهن ديانا ويو وسيرس، وقد ورد ذكرهن في ثنايا ما قدمنا من هذا التذييل.

وقد ولدت ديانا كما ولد أخوها أبوللو في ديلوس- الأرض اللامعة- وعاشت عذراء كما عاشت مينرفا، وأغرمت بأنديميون الراعي (الشمس الغاربة) ولم تكن تزوره إلا ليلاً، وفي أثناء نومه.

أما يو.. فتمثل القمر وهو يضرب في أطراف السماء على غير هدى وقد زارت بروميثيوس وهو مُسمر في قنة من قنن جبال القوقاز فرثى لها ورثت له، وأخذ يحدثها بما سوف ينتهي إليه أمر زيوس، سيد السماء، مما صوره اسخيلوس في مأساته الخالدة التي ضاع ثلثاها، مما نرجو أن نطالع به القراء قريباً في كتاب الأساطير.

أما سيرس... فهي تلك الساحرة (القمر الساحر) التي استهوت رجال أودسيوس، (كتابنا قصة طروادة) ثم سحرتهم فجعلتهم خنازير حتى أجبرها أودسيوس على ردهم إلى صورهم البشرية، فأذعنت ثم أحبت أودسيوس نفسه فبقي في أسرها هو ورجاله عاماً كاملاً...

وقد أحبت سيرس أيضاً جلوكوز إله البحر الذي أحب جميلة غيرها (سكيلا)، فصنعت لها عقاراً قذفت به في بركة كانت تستحم فيها فسحرتها فأصبحت تنيناً هائلاً يخشاه الآلهة والناس!

أساطير الأرض:

ذكرنا فيما مر بنا من الآلهة الربتين جي Ge أو جييا Gaea وابنتها رها Rhea

وجي– الأرض– هي زوجة أورانوس– السماء، ورها هي أخت كرونوس (الزمن) وزوجته.. وقد مر بنا أن كرونوس كان يفزع من أبنائه فيبتلعهم فور ولادتهم.. والآن نعلم أن هؤلاء الأبناء والبنات هم رمز للأيام والليالي.

وفي أسطورة (بلوتو يخطف برسفونية) يرمزون بأم برسفونية المسماة سبريز أو ديميتير، إلى مصدر الخيرات كلها، ولذلك جعلوها ربة الزراعة، وأم جميع الأشياء... وجعلوا ابنتها برسفونية أو بروذربين رمزاً للربيع والازدهار حين تعود من العالم الآخر، فإذا آبت إليه حل المحل، وعم الجدب.

ودناي Danae أم برسيوس هي ربة للأرض كذلك– وإن جعلها بعضهم ربة للفجر كما مر بنا.

وسمليه Semele أم باخوس هي أيضاً ربة للأرض، ويفسرون الكارثة التي أصابتها، حينما تجلى لها زيوس في صورته الحقيقية الأولمبية ثم نشوء ولدها باخوس في حياة اليتم والتجوال التي حييها بأن هذا رمز للبرق والرعد اللذين يتبعهما المطر الضروري لكي تنبت الأرض نباتها.. فالأرض لا شك تتخلخل وتتفتت، وتهتز وتربو، حينما ينزل عليها المطر، ثم تتبدل من الجدب خصباً، ومن الأمحال ازدهاراً..

ولكن.. هل ازدهرت سمليه كما حدثتنا الأسطورة؟

* * *

أساطير البحر:

أول ما لقينا من أبطال البحر أوشيانوس ثم نبتيون الذي يلقبونه: مزلزل الأرض.. والذي يردفون اسمه بلقبي: القوي– والجبار، والذي يتدلى شعره الأخضر فيطوق الأرض كلها.. وقد عشق الأرض (سيريز) فعانقها، وهو لا يألوها عناقاً ومع ذاك فقد تزوج أمفتريت التي تمشي فتعطو وتتثنى.. وقد حدثناك في غير هذا المكان

عن غراميات نبتيون، وليس من العسير عليك تفسير هذه الأحاديث، وتطبيقها على ظواهر البحر في هيجاته وثوراته، ثم في هدوئه وصفائه.. ثم فيما تناوشه به السماء والرياح من برق ورعد ومطر وصواعق...

ونيريوس هو الآخر رب للبحار، ولعله مشتق من Nao أي يصيب ومن ملئه قبائل عرائس الماء التريتونات والأوسيانات والنيريادات ولعلهن جميعاً رموز للرياح بمختلف أنواعها.

أساطير السحاب:

في الأساطير البدائية الآرية يرد ذكر السماء على أنها بحر أزرق، وأن السحب سفائن مقلعة فيه، ومن هنا كان اليونان القدامى يعتقدون أن شارون (خارون Charon) كان يزجي زورقه بين هذه السفن، فكأنه كان سحابة منها، كما كانوا يعتقدون أن الزورق الذهبي الذي يحمل الشمس من المغرب ليعود بها إلى أبواب المشرق في أثناء الليل هو سحابة كذلك.

وفي أسطورة نيوب نلاحظ أنها من أروع أساطير السحاب، فنيوب نفسها هي السحاب وزوجها أمفيون هو البخار، وأطفالها هم ألوان الضباب والغيوم، وما إليها، وهم من الجمال وحسن الرونق بمنزلة ديانا وأبوللو.. (القمر والشمس) والشمس عادة هي التي تبدد جيوش الضباب، كما أنها تثير البخار فيكون سحاباً، فإذا بعدت اشتد البرد فنزل السحاب مطراً وبرداً.. وهذا هو ما فعله أبوللو وديانا بأطفال نيوب.. ولعل نصيب ديانا (القمر) هو ما تقوم به من المد والجزر والدفء..

وهل الأمطار إلا دموع نيوب تذرفها على أطفالها الذين قُتلوا بلا شفقة ولا رحمة.. ويذهب البعض إلى أن نيوب هي رمز الشتاء الذي يحول الماء بزمهريره فيجعله ثلجاً... ومن هنا جمود نيوب وتحولها تمثالاً من الرخام الأبيض منتصباً مع الثلوج فوق قمة الجبل العالي يذيب أبوللو (الشمس) دموعه يسلط عليه من سهامه (أشعته).

وقبيل السنتور (القنطور) أبناء اكسيون، ونيفيل، وابنها فريكسوس، وابنتها هلة... كل أولئك رموز على قطعان الشمس (السحب) التي تتشكل بأشكال الأحياء في السموات.

* * *

أساطير الرياح:

يعد هرمز (هرمس– أو ميركيوري– أو عطارد Hermes, mercury من أهم أبطال الرياح.. فأبوه السماء (زيوس) وأمه السهول (Maia) وهو كما قدمنا سارق قطعان الشمس (السحب) ومذكي النار ليشوي اللحم لغدائه، وهو الذي يأوي إلى مهده بعد هذه الزوابع كلها، فيسكن الكون، ويستريح العالم، ويقول موللر إن اسمه مشتق من اللفظة السنسكريتية Sarameias ومعناها "نسيم صبيحة من صبيحات الصيف".. ولما كان أبوه قد نصبه إلهاً للريح أصبح من اختصاصه تزجية أرواح الموتى إلى العالم الآخر؟.. ثم هو أيضاً مخترع الموسيقى.. وهو أنغام الرياح المشجية التي تحرك القلوب وتثير المشاعر..

ومن أبطال الرياح مارس، أو آرس Ares إله الحرب.. وهو ابن السماء "زيوس" من الضياء السماوي (حيرا أو جونو) وقد ولد في أرض ترافيه "قارسة البرد) ويطربه لفح الريح، وضجيج الحرب.. وإذا هُزم علا صخبه ورعدت صيحاته..

واسمه مشتق من الجذر نفسه الذي اشتق منه اسم الإله الهندي Marafus ومعناه الطاحن أو الساحق، وأول ما أطلق على الريح حينما ثارت العواصف القديمة التي اختل من هولها نظام الكون.. ومن هنا ما يعنيه اسمه Ares أي الاختلال والفوضى.

وولدا نبتون– رب البحار– ونعني أوتوس وافيالتس لم يكونا إلا مجرد رمزين

للرياح.. ومعنى افيالتس "الكائن الذي يقفز" وقد مر بنا في الأسطورة أن هذين الماردين الصغيرين ينموان بسرعة عجيبة.. وأنهما يقهران كل شيء، ويقذفان الرعب في قلوب الناس، بل في قلوب الآلهة، حتى تدركهما الشمس فتقتلهما بسهامها الذهبية التي لا تخطئ.

ومن آلهة الريح بان Pan وأيولوس Aeolus وذريته، والهاربي: Har Pyiai– أو الخاطفات– وقد مر ذكرهن في خرافة جاسون وكان اليونانيون يعبدون هؤلاء جميعاً على أنهم يمثلون العناصر الأربعة Elementa– الأرض والماء والهواء والنار.

* * *

آلهة النار:

تشمل آلهة النار عدداً كبيراً من الأبطال الذين مر ذكرهم في هذا الكتاب.. فمنهم قبيل السيكلوب (الكيكلوب Cyclopes) ويمثلون البرق والرعد.. وهم أطفال السموات والأرض.. ولكل منهم عين واحدة تتأجج نارها.. رمزاً للشمس.. وهم أيضا صُناع تلك الصواعق التي يرمي بها زيوس (السماء) من يشاء وهي مصدر سلطانه الأعظم على ملكوت العالم.

والتيتان Titans– أو الجبابرة– هم رموز نيران الأرض الجوفية وزلازلها وبراكينها وينابيعها الساخنة الحارة الكبريتية.

وبرومثيوس الطيب، حبيب البشر.. هو أحد هؤلاء التيتان، ويزعم علماء اللغات أنه مشتق من الأصل السنكريتي برامانتا Pramantha ومعناه المثقاب الناري.. وكان اليونانيون القدامى يعتقدون أنه هو هذا البرق الخاطف الذي يلمع بين السحب ثم عاد اليونانيون فأطلقوا عليه لقب "المتنبي" أو الكاهن العارف بصفحة الغيب ونحن نرى من نبوءاته الشيء الكثير في مأساة اسخيلوس المسماة باسمه.

وفلكان– أو هيفستوس Hephaestus ومعناه الحرفي "وميض اللهب" هو رب النار في أساطير اليونان.. وكانوا يصورنه عند ميلاده شيئاً ضئيل الحجم جداً.. لأن الشرارة أو النار، ويزعمون أن اسمه مشتق– ولا ندري كيف– من الأصل الهندي agni الذي اشتقت منه اللفظة اللاتينية Iginis ثم الانجليزية Ignite أي يشعل.

ومأوى فلكان الطبيعي هو في أغوار البراكين– حيث الحرارة تذيب المعادن.. ولذا فهو رب الفنون والصناعات وكثيراً ما لقيناه يصنع تروس الحرب ويهيئ الصواعق وآلات القتال كلها، وقد وكل إليه أبوه بتصفيد بروميثيوس ودقه في جبل القوقاز، فقام بهذا العمل آسفاً.

ولقد كان الإله الهندي آجني رباً للزواج ورباً للنار في وقت ما، وقد حاول اليونانيون تضمين هذه الفكرة في حياة فلكان وخصائصه فجعلوه يخطب ربة الزواج مينرفا.. لكنها اعتذرت.. ولعلها اعتذرت غير آسفة.

والراهبة هستيا Hestia (أو فستا اللاتينية) هي أيضاً رمز للنار، وتجسيد لروحها، كهذه التجسيدات كلها التي مرت بنا في هذا التذييل– واسمها لا يزال يطلق على المدفأة.. والمدفأة هي هذا المكان الجميل الذي تجتمع حوله الأسرة لتقضي وقتاً جميلاً سعيداً في الشتاء، فتسمر وتبتهج.. ولهذا فقد اتخذ الرومان من فستار ربة للأسرة وهناءتها وحامية للأزواج وأبنائهم وبيوتهم.

* * *

آلهة العالم السفلي

تكاد آلهة العالم السفلي كلها تكون رموزاً للكوارث التي كان اليونانيون يعتقدون أنها تحل بالناس قصاصاً عادلاً وانتقاماً منهم لما يرتكبون من خطايا وآثام، وإن يكن قصاصاً لا يصيبن الذين ظُلموا خاصة..

وقد مرت بنا أسماء البيتون وهيدرا والجبريون والجورجون والجريبا Graeae والمينوطور والهولة (الاسفنلس) والخيميرا وهذا الكلب سيربيروس– أو الكلب ذو ثلاثة الرؤوس الذي يقعي عند أقدام بلوتو رب الدار الآخرة، وإله الموتى– أو هادس أو هيدز أو آيدس Aides أو ما يعني: رب النعم أو الباطن الذي لا تراه العيون... وبالرغم من أنه رب النعم، فهو موصوف بالشره وبأنه كلما وجد على ظهر الأرض خيراً جذبه إليه ليكون عنده في داره.. وهذا رمز لفناء كل شيء وذهابه إلى بطن الأرض.. ليعود منها في الربيع شيئاً جديداً.. وحياة جديدة..

والجريبا هن أخوات ثلاث ذوات عين واحدة (مثلهن في ذلك مثل الجورجونات الثلاث) وسن واحدة يتبادلنهما فيما بينهن.. وكن وحدهن يعلمن مكان الجورجونات الثلاث في أسطورة برسيوس ولعل هذه العين الواحدة رمز للشمس التي تغرب عن جزء من أجزاء العالم لتشرق على جزء آخر.. ولعل السن الواحدة رمز لعمل الموت الواحد الذي ينفذ في كل شيء ويؤدي غرضاً واحداً.. ثم هو موت يؤدي إلى حياة.. موت مؤقت.. وحياة مؤقتة..

أما الجيريون أو الجيريونز فهو هذا المارد الذي ساق هرقل قطعانه في إحدى مغامراته.

أما الخيميرا Chimaera فهو ذلك الوحش الذي قتله بليريفون.

وكل تلك الآلهة أو أشباه الآلهة تجسيم لعالم الظلمات– وما يعتقد الإنسان أنه مخبوء له فيه من شرور وبلايا ومحن.

وبعد.. فعلى هذا النحو يفسر الفيلولوجيون– أو علماء اللغات– نشأة الأساطير اليونانية وتطورها.. وأخذها الكثير عن الأساطير الهندية.. وهو تفسير بهر ألباب علماء الأساطير في القرن التاسع عشر.. وكان حامل رايته العالم الألماني ماكس موللر Max Maller وكانت ناحية هذا التفسير الشعرية هي التي حببته إلى أنفس الأدباء.. فطربوا له.. حتى إذا كان القرن العشرون وتضاعف اهتمام العلماء بدراسة الأساطير دراسة جديدة... نشأت آراء أخرى طريفة.. وأكثر تثبيتاً.. لعل ما كتبه الدكتور لويس. ر. فارنل في كتابيه(*) عن الديانة اليونانية ومعتقدات اليونانيين القدماء من أحسن ما نقرأه بالانجليزية في هذا الباب.. وعلى القارئ المجد بهذا الفصل الممتع الذي كتبه ذلك الأستاذ في كتب تاريخ العالم عن الديانة اليونانية(**).

دريني خشبة

(*) 1- Cults of the Greek States.

2- Out line History of Greek Religion.

(**) Universal History المجلد الثاني– الفصل ٤٤.

أساطير الحب والجمال

بسيشيه وكيوبيد

كان الليل الهادئ المقمر أصفى من قلوب العذارى، وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين، وكان البدر العاشق المسهد يرسل القبل فتنطبع على خدود الورد، وتلثم أعواد الزنبق، ثم تنتشر بالشذى فتعطر أحلام المدنفين!

وكان كيوبيد الصغير يتميز من الغيظ حين انطلق حاملاً سهامه ليقتل بسيشيه ابنة الملك، التي أهانت بجمالها كبرياء أمه فينوس!

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفق ماء الشباب في جسمها الريان، فهويت إليها نفوسهم، وخفقت بحبها قلوبهم، وآثروها بعبادتهم من ون فينوس!

وكان للفتاة أختان حسناوان، ذواتا دلال وفتون، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها قسامة ووسامة وفتنة!

أجل، كانتا دونها فتنة، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لجة من الحسن الغامض ما لها من قرار، وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها، وافتتانهم بها، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال!

ودعت إليها ابنها ربة الحب، فأثارت في قلبه العداوة لهذه الغادة وجسمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتها إلى هذه المخلوقة التعسة:

أفيرضيك يا بني أن نكون من آلهة الأولمب نكرتين لا يخبت لهما شعب من العباد المخلصين؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم، وهم كما تعلم مغيظون مني، فيقولون ها هي ذي فينوس التي أذلت كبرياءها امرأة، وصرفت الناس

عن عبادتها غادة؟ اذهب إذن فتربص لها، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى "هيدز"، وبئس القرار! وإنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى، أو يفتتن بها بلوتو وملؤه..

ومضى كيوبيد إلى قصر الملك في طريق حفت بالورد: وعبقت فيها أرواح البنفسج، وتأرج النرجس الغض واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الإله الأصغر، وجعلته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاة بريئة، كل ذنبها جمالها، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها، وفنوا فيها..

وكبرت في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة، وتفيض بالآلام فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد شعراً وسحراً وموسيقى صامتة، تعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفاق!

وصدح بلبل غرد في هدأ الليل الفضي، فانتفض الإله الأصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى.. لا يأبه بجمال الطبيعة الساحرة، ولا يأسر لبه هذا البهاء الذي يغمر الكون حوله، حتى كان عند أسوار القصر الملكي الراقدة في طوفان زاخر من أزهار الشبر والياسمين والبابونيا.

وبرفتين من جناحيه الصغيرتين كان في حديقة القصر.. ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامي، متبختراً، دون أن يلمحه الحرس..

وانفتل في بسيشيه النائمة، واندس خلف الستائر الحريرية يوتر القوس الذهبية وينتقي من كنانته سهماً تقطر المنية من سنانه، ويرقص الموت على شباته!

وتقدم نحو الفتاة...

يا للجمال النائم فوق الأريكة! ويا للفتنة العائمة ملء السرير!

لقد كانت متجردة كلها! وكان نهدها البارز المثمر مجللاً بثديين ناضجين

يتحلبان لذاذة ويلتهبان إغراء!!

ونامت هذه الذراع هنا، واطمأنت تلك الذراع هناك، لدنتان وإن كانتا كالمرمر، رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود!!

وكان السحر يهمهم فوق الساقين الملفوفتين، ويهوم من تحتهما، كأنه يرقيهما من نفسه، أو ينفث فيهما من روحه!..

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية، رقد مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة متلألئاً في شعاعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة، رسولاً من لدن ديانا(*) البارة، أقبل ليقول للإله الأصغر: "مكانك أيها الرامي الحبيب! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى، وتجرعه كأس المنون؟! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به، فإنك لن تجد في ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البريء...!".

وخطا كيوبيد خطوتين، وحملق في وجه بسيشيه.. وبهره الجبين المشرق، والهدب الناعس، والخد الأسيل... وأخذ بلبه هذا الشعر العسجدي تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاء ورونقاً، فآلى لا يهدرن هذا الجمال البارع، وانثنى مسلوب اللب، مشدوه القلب، موزع الفكر، وانتزع السهم فألقى به في كنانته.. وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبي من سهام الحب، ملأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة، فتقدم نحو بسيشيه في خطى اللهفان، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان.

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقة حلوة، وعاد أدراجه عاشقاً وامقاً لا يبالي بسخط أمه فينوس!!

(*) ديانا هي ربة القمر، وهي التي اكتشفت كيوبيد، فأرسلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لإنقاذها.

وانصدع عمود الليل، وتنفس الصبح فهبت الأرواح النائمة، وأقبلت فينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات في قصر الملك.. بيد أنها، بدلاً من ذلك، رأت بسيشيه، بسيشيه بعينها، تمرح في حدائق القصر، وقد برزت عرائس الماء من الغدران الصافية تحييها وتغني لها، وتضفر لها أفواف الزهر..!!

وحنقت ربة الجمال والحب، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاماً في عيني الفتاة!!

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها، وأغرت بها بعض خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر، وطفقت تصرخ وتعول، ولا يدري أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول.. وازدحم حولها أبواها وإخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون..

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاة وأشجاناً!!

وكرت الأيام...

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر، وفي نفسها أن تلقي بحمل الحياة من شاهق، فتستريح مما يطيف بها من آلام!

ورآها كيوبيد...

وظلت هي ترقب المرج الهائج، وتشهد اليم المصطخب، وتلقي على البطاح نظرة مودع عجلان، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان، ثم صرخت صرخة هائلة، وألقت بنفسها من علٍ..

وكان كيوبيد قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار، فدعا إليه صديقه ونجيه

زفيروس، إله الريح الجنوبية، وأطلعه على ما يكن من الحب: "لهذه الفتاة التي تكاد تلقي بنفسها من قنة الجبل يا صديقي زفيروس. فإن رأيت أن تكون لك علي هذه اليد، أذكرها لك أبد الدهر، فخذ أهبتك، ولا تدعها تغوص في اليم، بل تلقها في يديك الرفيقتين، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطئ المنضور بالرياحين، فدعها ثمة، فقد أعددت لها مستراداً وملعباً..".

ولشد ما دهشت بسيشيه إذ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأة فيلتقطها في يديه الكريمتين، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرحب، كأنه أريكة من أرائك الجنة، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الأمواج ويسجد من تحته الثبج، ويصير البحر في لحة كأنه مرآة صافية ملساء، كأنها السماء..

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يحييها بتمتمة، وينطلق في البحر الذي يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه..

وتجلس بسيشيه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول، لترى هل هذا الذي هي فيه حلم أو هي قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة؟!

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هي التي تنفذ إلى دار الموتى، وأنه ليس في دار الموتى شمس ولا آباء، وهي تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير، وهي ترى إلى الشمس مشرقة تغمر بآرادها البر والبحر، وتنشر أنوارها في الأكوان جميعاً..

إذن هي لم تمت، وهذا الطيف الكريم الذي أنقذها من الموت، والذي ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة، وإذن فلتنهض ولتضرب في هذا الفردوس المنعزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر..

ومضت في غياض وأرباض، ورأت في الأفق القريب قصراً باذخاً ذا شرفات وأخياد، فيممت إليه، وما كادت تدنو منه حتى فتحت بوابة السور الكبرى على

مصراعيها، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها، وانبرت أصوات رقيقة موسيقية تحتفي بها وتحيي وتبيي!..

وفركت بسيشيه عينيها كذلك!

وظنت أنها تحلم، ولكن كل شيء حولها كان يحدثها أنها ترى رؤية حقيقية لا رؤيا منامية.. فدخلت القصر، وفي نفسها من الحيرة وشدة العجب ما أخذ يتضاعف في كل خطوة ويزداد..

وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق.. ولكن عبثاً.. ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها، تقودها إلى المخدع الوثير الذي أعدته العناية لها..

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه:

– ويدهشني أنكم تحتفون بي. وتبالغون في إكرامي، وأنا لا أرى منكم أحداً، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز(*).

– كلا أيتها العزيزة، ولكنا أمرنا ألا ننكشف لك..

– ومن الذي أصدر إليكم هذا الأمر؟

– ونهينا أيضاً عن ذكر اسمه..

– أنتم كرام ولكنكم تضايقونني إلى حد الإزعاج..

– "ليفرخ روعك أيتها العزيزة، ففي المساء، تلقين الآمر الكريم صاحب هذا القصر، وصاحب القصور الكثيرة في أطراف الأرض.

(*) قلنسوة هرمز (طاقية) الإخفاء.

– وهل لي أن أجول جولة في قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبي..؟

– ولم لا؟.. بسيشيه العزيزة!

– بسيشيه؟.. ومن أنباكم باسمي؟

– رب هذا القصر أيتها العزيزة..

وجالت الفتاة في القصر الجميل المنسق، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة، محيية بابتسامة خفيفة، أو انحناءة مؤدبة..!!

وكانت التماثيل في زوايا الغرف، وأوساط الردهات، وفي حنايا الحديقة، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرطب، تحيي الضيفة، كأن حياة تدب في مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها فتتحرك الأذرع، وتومئ الرؤوس، وتمر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ..

وكانت العنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبث فتسمعها أنشودة الخلد، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل منها حتى ينتهي من غنائه الحلو، وتغريده الرنان.

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس.

فلما كان الغسق[*] سمعت إلى الباب ينفتح، ويدخل فتى خفيف الخطى، ويقبل عليها فيحيي أحسن تحية بأرق صوت، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها.

وكان الظلام شاملاً، فلم تستطع بسيشيه أن تتبين وجه الجالس إليها أو خلقه، ولكنها كانت تسمع إلى موسيقى تمتزج بصوته الحنون، وكانت تحس كأن عبرات تكاد

---

[*] الغسق أول ظلمة الليل.

تخنقه، لأنه يريد أن يبوح بشيء يمنعه الخجل من البوح به.. واقترب منها..

وأخذا في حديث شهي، ولكن الحياء كان لا يزال يعقد لسانيهما.

واقترب منها حتى تماست الأجسام المرتجفة.

وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه، فانتقلت الحرارة من هنا إلى هنا، ثم دنا الفم من الفم، واستراح الخد على الخد، وبدأ طوفان من القبل..

وتمتم كل من الحبيبين بهذه الكلمة السماوية الخالدة:

– .. أنا.. أحبك..

– كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذي أنقذتني من براثن الموت!

– أجل يا منية النفس، ورجية القلب، بمعونة الإله الرفيق زفيروس.

– أفأنت إله إذن؟

– لا استطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئاً..

– إذن ما اسمك؟

– ولا هذا أيضاً!

– أحب أن أراك، فهل تأذن بإيقاد المصباح؟

– إذا حاولت أن تريني، كان فراق بيني وبينك!!

– أنت تزعجني..

– ولم أزعجك؟.. ألست قد أنقذتك من الموت، وأسكنتك هذا القصر

المنيف، ولست آمن عليك!

– برغم هذا فإنك تزعجني..

– هاتي قبلة.. ودعي هذا الحديث الشاجن..

– ".. ؟ .."

* * *

وظل يزورها كلما أقبل الليل، فيمكث معها حتى مطلع الفجر آخذين في عناق وقبل، وحديث ألذ من قطع الروض، وأروح من رفيف النسيم، ثم يفصل[*] على أن يعود لميعاده من اليوم التالي. وبسيشيه راضية قانعة، لا يضيرها ألا تعرف من هذا الحبيب الوفي.. ولا ما يكون اسمه..

وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطئ الطويل المزهر فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميل، فتعانقهما عناقاً حاراً، ويغمرها للقائهما فرح كبير، وتعود بهما إلى القصر، وتطوف معهما حدائقه وغرفاته، وتقف عند الصور والتماثيل ونافورات الزئبق، وتدخلهما "هيكل الحب" كما اتفقت وحبيبها على أن يسميا المخدع ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار إلى أن نلقاهما..

وتكون الغيرة قد أنشبت أظفارها في فؤادي الفتاتين، ويكون الحسد قد شاع في نفسيهما الخبيثتين، فتضمران لها الشر المستطير.

– ولكن كيف تطمئنين إلى هذا الحبيب يا أختاه؟ ألا تخافين أن يكون غولاً أو هولة أو سعلاة؟ لماذا إذن يأبى عليك أن تنظري إليه؟ أليس يخشى أن تفزعي منه إذا رأيته على حقيقته؟ أيغرك منه كلامه الناعم الموشى؟ لا يا أختاه! نحن نخشى أن يجفوك

---

[*] يمضي.

يوما فيقتلك.. لابد أن تأخذي حذرك منه! ولا بد أن تنتهزي فرصة يكون غارقاً في نوم عميق فتوقدي المصباح وتنظري إليه، فإن كان وحشاً أو هولة، فإليك هذا الخنجر المرهف فاغمديه في قلبه واستريحي منه، وعودي معنا إلى أبينا الملك فإنه جد مشتاق إليك..

ودفعتا إليها الخنجر المسمم بغلهما، وولتا عنها تختبئان في أجمة دانية..

وفعل كلامهما في قلب أختهما فعله، فلما كان الليل، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب، نهضت بسيشيه إلى مصباحها فأوقدته، وإلى الخنجر فشرعته، وذهبت تنظر إلى العاشق البريء..

فماذا رأت؟

أجمل مخلوق على وجهك أيتها الأرض!..

لقد كان نائماً حالماً، فيه دعة وفيه فتون.. وملأ الفتاة حباً.. واهتز المصباح في يدها.. فسقطت نقطة من الزيت المشتعل على ذراع الحبيب فأيقظته.. وفتح عينيه.. فرأى إلى الخنجر المرهف في يمين بسيشيه..

يا للهول..!!

لقد قفز الحبيب قفزة هائلة، ورف بجناحيه الصغيرين وقال: "بسيشيه! شقية.. وداعاً.. فلن نلتقي بعد اليوم!"

وشاعت الحسرة في قلب الفتاة فسقطت على الأريكة من الجزع والإعياء..

* * *

ما كاد كيوبيد يرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحاً شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه في شدة وعنف، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت

أفعوانات هائلة تنفث الموت الأسود من أنيابها البارزة الحواني، ثم أحست كأن القصر يرتجف ويميد، ويكاد ينقض، فهرعت إلى الخارج مهرولة، وهرعت في أثرها المخاوف والأشجان، يحدوها الذعر والفزع الشديد.

ونظرت في السماء فلم تجد قمرها المنشود تبثه وتشكو إليه، بل وجدت سحباً قاتمة في المشرقين والمغربين، والودق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر مكروب! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدوح وترفع شياطين الموج فتجرف العامر واليباب!

وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتاة حيثما ذهبت، وترجم وجهها الكاسف المغضن بجمرات البرد أيان ولت.

ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطئ كالذي يتخطفه الشيطان من المس، فلما لم يلبِ نداءها أحد، انثنت نحو القصر، وطوفت بالأسوار تتفقد الباب الكبير الضخم.. ولكن.. هيهات! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ، ولم يكن غارقاً هذه المرة في الطوفان الزاخر من أزهار الشيبر والياسمين والبابونيا، وكان عالياً على غير عهدها به، حتى يكاد يستتر وراءه القصر الباذخ، فلما استيأست من الدخول، وشعرت بقلبها يتحطم، وبنفسها تذهب شعاعاً، استلقت على الكلأ، واستسلمت لنوم ممتلئ بالأشباح.

وأشرقت الشمس فاستيقظت بسيشيه، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر، وفركت عينيها تخال أنها تحلم، ولكنها ترى الجزيرة جرداء إلا من شجرات قليلة من الشاهبلوط، وإلا من غدير صغير به بقية غير مباركة من الماء النمير..

ويكون صوابها قد ثاب إليها، فتيمم شطر الشاطئ تتفقد وروده ورياحينه، ولكنها لا تجد إلا آلافاً من السراطين الميتة لفظها البحر بفعل العاصفة، وإلا أكواماً من الودع والمحار تجلل كثبان الرمال الممتدة فوق الجزيرة، كأنها قوافل من آلام

بسيشيه وأشجانها!

"ويلاه!..

"لقد حملت إليك أيتها الجنة الصغيرة وبردك برد الشباب، وربيعانك ريعان الصبي، وفي أعطافك تنهل سلافة الحب، وتحت شطئانك ترقص عرائس الماء، وفي غدرانك تترقرق أمواه الهوى، وكل ما فيك تدب فيه الحياة ناضرة.

"أفهكذا يذبل شبابك، ويذوي ريعانك، ويغيض حبك وتقفر شطئانك، فليس يرف فوقك إلا هامة، ولا يهتف فيك إلا صدى، ولا تهب ريحك إلا كأنفاس الجحيم؟!

"ويلاه!..

"لقد كنت أفرك عيني أحسبني منك أيتها الجنة في حلم فالآن أفرك عيني أرى هل أنا من خرابك اليوم في حلم؟!

"لقد نعمت بالحب فوقك أيتها الجزيرة، فلماذا لقيت أختي؟! أين ذهبتا؟! أحسبهما ذعرتا من العاصفة، وفزعتا من الزلزال، ففرتا.. فصبر جميل!"

* * *

هكذا ظلت تبكي بسيشيه، وهكذا غبرت بها الأيام فوق الجزيرة تنتظر أوبة حبيبها. ولكن. بلا جدوى!

وكانت تأكل ثمرات من الكستناء تذهب بها سغبها، وترشف من بقية الماء في الغدير رشفات تبل بها أوامها، ثم تعدو في الجزيرة باحثة عن.. لا شيء!

ووقفت يوماً عند ضفاف الغدير ترتوي، فما شدهها إلا أن ترى الماء يزداد ويزداد، والغدير يتسع ويتسع، حتى تكون على عدوة نهر عظيم دافق، تزخر أمواجه

وتجرجر أواذيه. ويبدو لها أن تلقي بنفسها في أعماقه، لأنها لم تعد تحتمل هذا الألم المتصل والشجن الطويل الممض... وأنها لتنظر إلى الماء فيجيش قلبها بالذكريات، وتفيض عيناها بالدمع، ويشحب جبينها الكاسف الحزين، ثم يتأود غصنها اليابس الهش، فتنحدر إلى اليم، وتتلقفها اللجة.

ولكن رب النهر الذي كان واقفاً يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها، ويصيح ببناته عرائس الماء فيأتين من كل فجٍ، ويترفق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حناناً وتفيض رحمة، ثم يتركها لبناته يداعبنها ويلاعبنها..

وتأنس بسيشيه إلى العرائس الحلوة، ولا يخجلها أن تأخذ معهن في حديث حبها، فإذا سألنها عن صفة حبيبها، قال: "كان صغيراً كالطفل إلا حين يكون في ذراعي، مسنداً رأسه على صدري، فيكون إذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباهج ومفاتن. وكان طيب الأنفاس، فما قبلني أو قبلته إلا شممت عبق الورود في فمه، وأرج البنفسج في خده. وكان إذا عانقني أو عانقته، تحسست له جناحين على ظهره، صغيرين ناعمين، فإذا ساءلته عنهما، أنكر عليّ وصرفني برفق ودعة عن الحديث عنهما، فنأخذ في أمور أخر. وكان يحمل قوساً من ذهب ما تفارقه، وكنانتين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب.. وما دهاني في الليلة المشؤومة إلا أن أراه يثب من النافذة، فيحلق في كبد السماء كأن له قصرا فيها.. فبحق زيوس عليكن يا عرائس إلا ما أعلمتنني من هذا الحبيب، فأنتن بنات إله مبارك، ولابد أن يعرف أبوكن من أمره كل شيء.."

وصمتت بسيشيه، ونظرت إلى العرائس فرأتهن يحدجنها بنظرات دهشة حائرة، ثم يتهامسن، ثم لا يحزن جواباً، فقالت لهن:

"أنتن تزعجنني يا عرائس، فهل هكذا يستقبل الضيف لديكن؟"

فقالت كبراهن: "لا عليك يا فتاة، ولكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه

الأرض حين عصيت أمر كيوبيد!"

– كيوبيد؟!.. ومن كيوبيد تعنين!؟

– "كيوبيد بن فينوس، فهو هذا الذي كان يهواك وكنت تهوين؟!

– "كيوبيد الإله! كيوبيد حبيبي! يا ويح لي.. لابد أن يعود لي إلهي الجميل الحبيب.. لن تحلو لي الحياة بدونك يا كيوبيد.."

هامت بسيشيه على وجهها في أقصى الأرض، وكلما مرت بروضة أو غيضة، وكلما وقفت عند ضفاف نهر أو ألمت بحفافي غدير، برزت لها عرائس الماء فشكت إليهن، وسألتهن إن كن يعرفن أين يأوي كيوبيد؟ وقالت لها عروس:

– "أترين يا فتاة إلى هذا الجبل البعيد الذي يحمل السماء بروقيه؟ إذا كنت عنده فتلبثي حتى يعود بان(*) من صيده فتعلقي به، واذرفي من دموعك تحت قدميه فإذا هش لك وبش، فاذكري له حاجتك يقضها، أو يدلك على من عنده قضاؤها".

– ومن عسى أن يكون بان يا أختاه؟"

– "رب المراعي، وإله الصيد، وحامي القنص. ألم تقربي له؟ ألم يفعل أبواك؟"

– "بل فعلنا.."

ونهدت إلى الجبل وكأنما بها مس من الجنون، وجعلت تطوف به حتى مالت الشمس إلى الغروب، فرأت (بان) قادماً يدب بحافريه، ويردد في الأكام ناظريه، فلما لمحها أقبل عليها دهشاً متعجباً، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها، وسباه منظرها..

(*) ورد ذكره في بعض الأساطير باسم كونسنتيس. ولا يزال الرعاة الانجليز يتغنون بحاميهم بان إلى اليوم.

وشكت إليه، فما هالها منه إلا قوله: "تعسة! أنت غريمة فينوس!" فقالت، وفي عينيها دموع تخنق منطقها: "غريمة فينوس؟ ومالي أنا ولفينوس" فقال بان: "جمالك هذا جنى عليك.. لقد صرف الناس عن ربة الجمال والحب إلى عبادتك أنت أيتها الشقية، ولذلك حنقت عليك، وأصابك من الأذى ما أصابك.. اسمعي يا فتاة.. لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديميتير، هل تعرفينها؟ أم برسفونيه، فتاة الربيع التي خطفها أخي بلوتو لتؤنسه في هيدز: مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوبيد وهيامه بك! بك أنت! أليس اسمك بسيشيه؟"

– "... ؟ ..."

– "تحملي إليها إذن. إنها ليست بعيدة من هنا. إنها شفيقة رفيقة، وهي ترثي لأمثالك من العاشقات الوامقات، تحدثي إليها عن كيوبيد واستمعي إلى ما تقوله لك وتشير به عليك.. أترين إلى هذه الغابة الملتفة الوارفة؟ إنها هناك تنتظر ابنتها في أوبتها من هيدز".

وعجلت إلى الغابة، ولقيت ديميتير الطيبة الوقور: فانحنت تحييها، وما كادت تسرد شكاتها حتى انهمر الدمع من عينيها الحزينتين، وتخاذلت فخرت مغشياً عليها، وتقدمت ربة الخير فباركت الفتاة، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب، فكان الزهر ينبت حول بسيشيه كلما انتثرت قطرات على الأرض، فلما أفاقت بهرها هذا السرير الربيعي من منضور الورد يحف بها، ويحنو عليها..

وبسمت ديميتير، وواست الفتاة الوالهة وآنستها، ثم ذكرت لها أنها رأت كيوبيد بكرة ذلك اليوم، وفي كتفه جرح دام أحدثته فيه أمه فينوس، لماذا؟ لا يدري أحد– ".. فإذا كان لابد لك من لقاء كيوبيد، فاذهبي إلى فينوس وتبتلي إليها، وادخلي في خدمها وحشمها، وأنبتي لها بتفانيك في طاعتها أنك من عبادها المخلصين، عسى يا بنية أن ترضى عنك، ويذهب عنك هذا الحزن"..

ثم قادتها إلى قصر فينوس، وزودتها بما ينبغي لها من النصح، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر برسفونيه.

وبرهنت بسيشيه على حسن إخلاصها وجميل توبها، وكانت ربة الحسن تسخرها فيما لا طاقة لبشر به، فكانت تقوم بما تكلف به وتؤديه خير الأداء.

وأعجب ما حدث لها من ذلك أن أمرتها فينوس بالتوجه إلى هيدز– دار الموتى– واقتحامها، ثم لقاء برسفونيه، ربة الربيع، وزوج بلوتو، وسؤالها صندوق الطيب الذي تدهن منه العجوز الشمطاء، فيرتد إليها صباها، ويتدفق ماء الشباب في أعطافها، وتعود كما كانت، شرخ صبى، وعنفوان شباب!

وأسقط في يد بسيشيه! ولم تدر كيف السبيل إلى هيدز! ولكنها حين ذكرت برسفونيه، بدا لها أن تذهب فتستشير أمها ديميتير عسى أن ترشدها أو تزودها خالص نصيحتها. فذهبت إلى الغابة، ولقيت لحسن حظها ديميتير تودع ابنتها، لتعود أدراجها إلى هيدز، إذ كان الربيع الحلو قد صوح، وأزف الشتاء ببرده وزمهريره(*).

وهشت لها ديميتير، وعقدت بينها وبين ابنتها أواصر الصداقة، ولما حان موعد الافتراق، أبدت بسيشيه رغبتها في أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها في ظلمات دار الفناء، فلم تعارض الفتاة، بل أذنت لها راضية(**).

وسارا بين صفين من أرواح الموتى تغني وتنشد.. وتبكي!!

وكم كان عجب بلوتو شديداً حين لمح الفتاة الرشيقة الهيفاء تسير إلى جانب زوجته، وبلغ به التأثر مبلغه، فغادر لهما غرفة العرش المظلمة..

وتلطفت بسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين، فوجمت

(*) الربيع والصيف فصل واحد والشتاء والخريف كذلك.

(**) في بعض المصادر أن زفيروس هو الذي قاد التفاة إلى هيدز.

برسفونيه، وكانت على وشك أن ترفض هذا الطلب، لولا أن ذكرت الفتاة أن فينوس هي التي أرسلتها لتطلبه وتجيئها به. فنهضت برسفونيه إلى دولاب قريب، وعادت بالصندوق، ترتجف به يدها العاجية الجميلة، وقدمته للفتاة وهي تقول:

"لا تفتحيه.. لا تفتحيه أيتها الصغيرة!"

وأستأذنت بسيشيه، وعادت أدراجها إلى.. هذه الدار الأولى..

وفي طريقها إلى قصر فينوس، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمال الشباب وريعان الصبا.. وذكرت كذلك تلك الليالي الطوال التي ظلت فيها مسهدة العينين تبكي كيوبيد وتحن إليه، حتى شفها الوجد، وأوهنها السقم، وبرح بها الهيام الشديد، فتحدثت إلى نفسها تقول: "فلم لا أدهن بقليل منه وجهي وبشرتي؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت. ما دمت أطمع في لقاء كيوبيد؟ إن ربة هيدز حذرتني من فتح الصندوق، لا أدري لماذا؟ فإذا كان ما به شر، فلم تريده فينوس الجميلة؟ لا.. لا بد أن أتطيب به، وليكن بعدها ما يكون!"

وداعبت أناملها الصندوق ففتحته.. ولكن.. وأسفاه! لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر.. روح النوم.. ولقد وثب في وجه بسيشيه فحلق في عينيها الزرقاوين الصافيتين، ثم ما هي إلا لحظة حتى انكفأت المسكينة على الحشيش المندى تغط في نوم عميق!

وكان كيوبيد يتنزه في الحدائق المجاورة، فما دهاه إلا أن يرى ملاكه المحبوب ممدداً على الكلأ، وصدره يعلو ويهبط، كأن كابوساً مستقر عليه.

ودنا إله الحب من بسيشيه، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الأول، وثار في قلبه الحنين إلى الليالي المقمرة التي كان يقضيها إلى جانب الرشأ الغرير، الذي يترنح أمامه في قبضة الروح الشرير.. روح النوم!

ونظر كيوبيد بعينيه السحريتين، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعاً هائلاً.. فثارت فيه نخوة الوفاء، وأنفذ إلى العدو سهاماً متتابعة متلاحقة، حتى قهره، واضطره إلى العودة من جديد إلى الصندوق الصغير، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه، ودفنه في غور من الأرض.

ثم تقدم إلى حبيبته، وطفق يروح على وجهها، ثم أيقظها بقبلة اهتز لها الروض، وطرب الورد، وشاعت في الطبيعة الضاحكة سراً وسحراَ!

"أختاه؛ انهضي! انظري إليّ! هأنذا كيوبيد! هلمي فلن نفترق بعد اليوم!"

وأغذا السير، حتى إذا كانا في دولة الأولمب صاح كيوبيد في معشر الآلهة: "أن اشهدوا أيها الأرباب، لقد اخترت بسيشيه الجميلة زوجة لي مباركة..." وطرب الآلهة، وأقيم المهرجان الفخم، ورقصت ديانة ربة القمر، وعزف أبوللو موسيقاه، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التي تغني.. ومنذ ذلك اليوم وهي ترف بأجنحة فراشة جميلة في جنة الأولمب، وإلى جنبها حبيبها كيوبيد.

أيخو ونركيسوس(*)

(الفاتنة التي أصابها البكم، والجميل الذي عشق صورته)

كان زيوس– كبير آلهة اليونان– يتعشق فتاة حلوة الدل، بارعة الحسن، رقيقة الشمائل تدعى يو. وكان، برغم زوجاته الخمس أو الست، يختلف إلى حبيبته في الخلسة بعد الخلسة، يؤانسها ويسامرها وتؤانسه وتسامره، ويبل فمي الظامئ من ثغرها الراوي بقبلة.. أو رشفة..

وكانت أولى زوجاته (حيرا) هي التي تزعجه بما تبث حوله من الرقباء وتنشر من الجواسيس، يحملون إليها كل حركة من حركاته. وكان هو يضيق بكل ذلك، ولكنه لا يستطيع إلا أن يداهن ويداهن.. ويبالغ في المداهنة، لشدة شغفه بحيرا، ولأنه يحس في الخضوع لها لذة أولمبية لا تعدلها لذة.. إلا لذة تدليله لحبيبته يو.

وكما كانت حيرا تمكر مكرها في كل حين، كذلك كان الإله يمكر مكره!.

أراد أن يشغلها عنه بملهاة تذهب من وقتها كل يوم بساعات يقضيها في أحلامه الغرامية بين يدي يو، ملتذاً قوامها الخصب، مستمتعاً بجمالها الفينان، سابحاً في هذه اللجة المترعة بالمفاتن، في كل جارحة من جسمها الممشوق..

وقد سنحت له الحيلة..

حدثها عن فتاة ناضرة الشباب، ريانة الاهاب، عذبة اللسان، وقادة الجنان، تعرف من قصص الحياة وأنباء الدنيا ما لم يتيسر بعضه للآلهة أنفسهم! وكانت حيرا،

(*) آثرنا عدم ترجمة ايخو– أو أكو– بما يرادفها في العربية وهي لفظة (صدى) لأن التسمية يونانية وقد نقلها الرومان عنهم ثم ذاعت في كل اللغات وكذلك أثبتت لفظة نركيسوس (نرجس) ليونانيتها أيضاً.

ككل الانثيات، مولعة بالثرثرة مشغوفة بالمعرفة، تبغض الصمت وتغرم بالكلام الطويل الموشى. وهي مع ذاك طلعة، بقدر ما هي أذن، تتكلم كثيراً، وتثرثر كثيراً، وتسمع كثيراً..

وانطلقت إلى الفتاة، فشغفت بها لأول لقاء، ووجدتها كما حدث زوجها فياضة القول غزيرة القصص، تتدفق في حديثها تدفق الخمر في الكأس، حتى إذا استقرت في مكانها من الجسم، شاعت حمياها فيه، فأطربت، وأرقصت، كأنها عصرت من حديث هذه الفتاة!

ثم جعلت تتردد عليها، وما تكاد الفتاة تفرغ من إحدى قصصها العجيبة حتى تأخذ في أعجب منها وأغرب، وهي بين الآونة والأخرى ما تني تنمق حديثها بالنكات البارعة، والملح الرائعة، مرسلة المثل في مقامه، والحكمة في موضعها، في غير كلفة أو عناء، ثم هي كانت رقيقة دقيقة، لا تمل السامع ولا ترهق الناظر. وكانت تقبل على سمارها وكأنها تختص كلاً منهم بقلبها، وكأنها تلقي إلى كل منهم بقرارة نفسها، حتى ليحسبها كل له وحده بما يحسبه تؤثره به من عطف، وتغمره من ود، وتزجي إليه من محبة..

وكانت حيلة صائبة من زيوس، شغل بها حيرا طويلاً. ليفرغ هو إلى يو.. فيا للآلهة!!

ولكنها شعرت من زوجها لفحة الصد، وأحست فيه انقباضاً وجفوة، فوقر في نفسها أن لابد من أمر، وأن هناك سراً أي سر، فآلت لتكشفن ما تغفلها فيه.

وبثت عيونها، وأرسلت أرصادها، حتى استوثقت مما كان بينه وبين يو، وأدركت أنه قصد إلى إلهائها بهذه القصاصة الخبيثة ليفرغ هو إلى لباناته وأوطاره!

ولا ندري ما ذنب الفتاة التي ملأت أذني حيرا سحراً، ونفثت فيهما موسيقى وألحاناً؟ لقد ظلمتها زوجة الإله الأكبر، التي تحمل بالباطل لقب حامية النساء

وحافظة الأجنة، حين أقسمت لتسلبنها الطلاقة والذلاقة، ثم لتسلطن على لسانها العي والحصر يشقيانها ويعذبانها!

لقد كان كل ما اتهمت الفتاة به أنها كانت سبباً في تمادي زوجها في غي حبه، وإبعاده في ضلالة هواه فنفثت في عقد سحرها، ثم قصدت إلى الفتاة المسكينة فنهرتها. وأرسلت عليها شواظاً من غضبها، وقذفتها برقية من رقاها المهلكة، لم تستطع بعدها أن تلجلج لسانها بكلمة واحدة تفرج بها عما في نفسها...

وقهقهت حيرا حين حاولت الفتاة أن تتكلم فلم تستطع، ثم شاءت الخبيثة أن تظهر آية أخرى من آيات غدرها، فقالت، بعد أن نفثت ثانية: "أنا أسميك ايخو، وأمن عليك فأطلق لسانك باللفظة المفردة ترسلينها في ذيل كل كلام تسمعين.. اللفظة الأخيرة فحسب يا يا ايخو..."

فرددت الفتاة المسكينة: "ايخو!!"

أما يو، فقد نفذت إليها حيرا وصبت عليها من جام سحرها ما تحولت به إلى بقرة صفراء فاقع لونها.. تسوء الناظرين. ولهذا حديث طويل مشج ندعه الآن، لنرى ما كان من أمر ايخو..

دهشت الفتاة لبيانها أين ذهب، ولصوتها الجميل أين ولى، وللرخامة الفضية التي كانت تترقرق من فمها الشتيت كيف ضاعت، ولهذا السحر الدنيء كيف قضى على أولئك جميعاً؟!

لقد بكت كثيراً، وتوسلت إلى الآلهة، ولكن... أين الآلهة؟ لقد تصاموا جميعاً، لأن حيرا هي القاضية، ولأنهم يشفقون أن تفسد أسباب السماء كما أفسدت الأرض على عرائس البحر!

وأطلقت ساقيها للريح، فيممت شطر غابة ذات ماء وذات أفياء، ثم إنها

اتخذت لها مأوى في أصل سنديانة ضخمة الجذع، معروشة الفروع وارفة الأفنان، وأقامت ثمة تجتر أحزانها وتسعر أشجانها، وتقابل بين ماضيها السعيد وحاضرها الشقي، وتسكب بين هذا وذاك دموعاً ساخنات وعبرات غاليات! وبينما هي سادرة في كهفها، مستغرقة فيما آل إليه أمرها إذا بصحب يافع من الشباب اليانع يمرون ببابها، من دون أن يروها، وهم يتحدثون أحاديث الصبا، ويتسامرون سمر الفتوة، ناعمين بأشهى مناعم الحياة.

وظلت ترقبهم وتستذكر أيامها الخوالي، إذ الشمل مجتمع، والرواد محدقون، مرهفة آذانهم، شاخصة أبصارهم، فاهتزت هزة المحموم بالشجن، المروع بالشجى!

وأطلت من كناسها، فرأت الغلام الإغريقي المشهور "نركيسوس" الذي دله الآلهة بجماله، وتام عذارى أثينا بنضارته وإشراقه. رأته يتخلف عن أصحابه، مأخوذاً بجمال نرجسة حلوة اقتطفها من غصنها المياس وفتنها المياد، ثم وقف يحدق فيها بعينيه المعسولتين، اللتين لونتهما شمس الجنوب بهذه الصبغة السحارة، وكمنت ملأهما يعاسيب الفتنة، تنتشر منهما في دنيا القلوب!

والسبيل في الغاب ملتوية متداخلة... تيه يفل فيه العابر، ويباب أخضر لا يهتدي فيه السائر، هنا منعرج لا يصل منه الإنسان إلى أمن، وهناك منحنى لا ينتهي إلى سلام. ولقد مضى الدليل مع الصحاب، ولبث نركيسوس وحده، يضرب أخماساً لأسداس.

ولم تستطع أيخو حين أبصرت به أن تفلت من هذا الشرك المنتشر حوله، تعلق بخيوطه السحرية القلوب والألباب.. فأحبته بكل قلبها، وأرسلت في نظراتها إليه نفسها تتمرغ تحت قدميه، وتهمهم بين قدميه، كأنها خلقت له.. لا لها!

ولكن كيف السبيل إلى التعبير عن هذا الهوى الملح، والحب المخامر، ولسانها في عقال إلا من المقطع الأخير، ينطلق في أثر الحديث، أو اللفظة المفردة تردفها

بصياح كل صائح، وهتاف كل هاتف؟!

وراحت تقتفي أثره، من غير أن تشعر هي، ودون أن يشعر هو! وتقص خطاه وهي لا تعي ما تفعل، وهو لا يدري كذلك، فكان دبيبها كدبيب القطا، أو كوثب الضفادع. على أن حركة غير مقصودة أتت بها أيخو جعلته يعتقد أن أحداً من سكان الغابة يتبعه، فصاح قائلاً:

"من؟..."

فرددت المسكينة نداءه: "من؟..."

فقال: "هل من أحد هنا...؟"

وأرسل هذا السؤال في رعب خفيف، فرددت ايخو اللفظة الأخيرة: "هنا..."

فبهت نركسيوس، وقال، وقد خال المتكلم امرأة: "هلمي يا فتاة.. هلمي.."

فرددت ايخو اللفظة الأخيرة.. "هلمي.."

فزادت حيرته، وتضاعف خباله.. وقال:

"لم لا تأتين إلي، وليس هنا أحد يرى؟ ولا إنسان يشهد؟"

فثار كامن الهوى في نفس ايخو، ونطقت اللفظة الأخيرة: "يشهد؟" بكل ما تركت لها حيرا في قرارة لسانها من رنين فضي، وجرس جميل..."

وعاد نركيسوس يقول: "يا فتاة! ليت شعري ما يحجزك؟ أين أنت إن كنت هكذا تستحيين؟ تعالي.."

وكأن ايخو أدركت أن الفرصة سانحة للقاء هذا الحبيب الطارئ، فبرزت من مكمنها في غير هيبة ولا وجل، وقصدت إليه تعرض حبها ولظى جواها، ولما لم يكن

في مكنتها أن تخاطبه، لتكشف له عما تضمر من هيام به، ومحبة له، بدا لها أن تثب إلى حيث هو فتعانقه، وتضم صدره إلى صدرها، ليبث أحدهما إلى الآخر.

ولم تكد تفعل حتى جهد نركيسوس في تخليص نفسه منها، ثم انطلق في الغابة لا يلوي على شيء، كالرئم المروع، والظليم لمفزع..!!

وذلك أنه لم يجرب هذه المفاجأة بالحب، ولا وقع مرة في شراك غرام، وقد ربكته ايخو حين غمرته بكل حبها، فشرق به وغص، وقال: الفرار.. الفرار!

وتسلط الهم على قلبها فشفه، والشجن على جسمها الناحل فأضناه، وكانت صدمة هائلة صدعت جوانب نفسها، وزادتها نكالاً على نكال، ثم تتابعت الأيام وهي ما تزداد إلا سقاماً...

واضمحلت... ثم اضمحلت... حتى غدت... لا شيء!!

ولا شيء هذه ليست مبالغة فيما حل بها، إذ الصحيح أنها غدت لا شيء، إلا هذا الصدى يتردد في كل واد، ويذهب أثر كل نداء.

وهي إلى اليوم تأوي إلى الغيران، وتتخلف إلى الشطئان وتنحدر مع الريح على جنبات الجبال، تنعي همها، وتندب حظها في النادبين!

وشاءت المقادير أن تنتقم لايخو المعذبة من هذا الشاب الجميل نركيسوس الذي حطم قلبها الغض، وقضى على نفسها المحزونة. فبينما كان في طراد عظيم، في يوم قائظ عرج على خميلة ناضرة ملتفة الأغصان ليشرب من الغدير الصافي الذي يترقرق من تحتها.. وما كاد ينحني إلى الماء حتى رأى صورته في صفحته الساكنة، فبهره حسنها، وأخذ يرمقها بقلب مشوق ونفس هائمة، وهو لا يعلم أن الحبيب الذي تامه أن هو إلا ظله، وعروس الماء التي تبلت فؤاده إن هي إلا خياله!!

عينان كبيرتان ذواتا أهداب زانهما وطف، وجبين واسع وضاء مشرق، وخدان

أسيلان كخدود ربات الأولمب، وخمل حلو نابت فوق بشرة الوجه يزيده رونقاً وجمالاً، وثغر حبيب كأقحوانة تتفتح، ترف حوله بسمة ساحرة من حين إلى حين، وذقن رقيق مستدق يرتفع على عنق يوناني رائع ثم فتنة تغمر ذلك جميعاً!!

خاطبه نركيسوس، ولكن... وااسفاه! إنه لا يرد تمتمة، ولا يجيب إلا كما تهمهم الريح!

ومد يده... فمد الخيال يده، واستطير صاحبنا من الفرح، ظاناً أن حبيبه تواق إلى ما يريد!

واقترب بفمه، يريد قبلة، فاقترب الخيال بفمه كذلك ولكن... يا لخيبة الأمل! ما كاد العاشق الولهان يمس الماء بشفتيه حتى ذهب حلمه إلى أباديد، وتكسرت منى نفسه الحيرانة، وفر الخيال في شظايا الماء.. وتحطمت الصورة الرائعة بدداً!! وخيل لنركيسوس أنها تقول وهي تهتز، قبل أن تلتئم: "لا... لا... لا... لا..."

ولبث عبثاً يحاول قبلة، وتتكرر الآية كلما مست الماء شفتاه... فانطلق مغيظاً محنقاً، وهام في القفار على وجهه، لا يطيب لجفنه المسهد كرى، ولا يحلو بفمه المرير عيش، لجفاء الحبيب، ونفره آسية العجيب!!

نركيسوس، الذي بلبل قلوب العذارى، وسفك دموع الحسان، وضرج كبرياء الغيد بالدم، وأذل البسمات التي طالما حملتها إليه أجنحة الحب من ثغور الفاتنات.. نركيسوس، الذي ألقى بحب ايخو في التراب، تسبيه صورته، ويتصباه خياله، ويأسره ظله، فيا لنقمة كيوبيد، ويا لعدالة فينوس!!

لقد طفق يختلف إلى الغدير لدى كل شروق شمس، يناجي حبيبه المعبود وأمله المنشود، فلا ينثني إلا إذا توارت الشمس بالحجاب!

وما انفك يشكو ويتوجع ويستعطف، وما انفك الخيال يتصام ويتباكم. وإذ

تحدث تمتم!!

ثم...

ثم ذوى عوده، وذبلت نضرته، وتهدم جسمه، وتحطم قلبه، وتأرجحت روحه في حدقتيه... و... دنت ساعته.

ووقفت ايخو في فنن وارف، في آيكة قريبة من الغدير، تشهد الفصل الأخير، من مأساة حياتهما..

وسمعته يقول مخاطباً ظله: "أيها الحبيب! أجل! لقد حق لك أن تنتصر على كبريائي، وتسحق مرتي وتهد أعضائي.. هأنذا أموت أيها الحبيب.. بقربك... يا عروس الماء النافر... أموت... وأحبك... فالوداع... الودا...ع"

وبكت ايخو... ورددت هذا الصدى الحبيب: "الودا...ع!"

وأقبلت عرائس الماء تنوح بدورها على نركيسوس، ثم ذهبت في أرجاء الغابة تجمع الحطب لإحراق الجثة، كما جرت بذلك العادة في ذاك الزمن.. ولكن، يا للعجب! لقد عادت فما وجدت غير زهرة جميلة من أزهار النرجس! انحنت على صفحة الغدير تنظر فيه إلى ظلها... وتذرف دمعها... قطرة، فقطرة..

بين أبوللو(*) وكيوبيد

عصى الناس، في قديم الزمان، سيد أرباب الأولمب، السند الأعظم المهيمن على ملكوت السموات والأرض: زيوس. ومع ما اشتهر به من واسع الحلم، وطول الأناة، وجم المغفرة، فإنه لم يشأ أن يمد للعالم في حبال الغواية لدرجة إنكارهم لذاته، وإلحادهم فيه، وكفرهم به، فأقسم ليهلكن حرثهم ونسلهم، وليقطعن دابرهم أجمعين! فأطلق الرياح الجنوبية الهوج، وأرسل السحب تتدجى كقطع من الليل البهيم، وأذن للأرض فتشققت ينابيع وعيوناً، ثم انهمرت الأمواه من فوقهم، وتفجرت من تحت أرجلهم، وطغى الموج يجرف الدور ويعفي الآثار. وفي أيام قلائل، كان الطوفان يغمر وجه الأرض ولم يكن ثمة إلا بحر خضم عظيم.

وهلك الناس جميعاً، وشفى زيوس موجدته عليهم، ثم بدا له أن يعيد مياه الحياة إلى مجاريها، فأطلق الرياح من عقالها، فهبت في شدة وعنف، وأخذت ترشف ماء الطوفان، تعاونها في ذلك مركب أبوللو.. يوح العظيمة(**).. وبدأت الأرض تجف، وشرع بساطها السندسي الجميل يبدو قليلاً قليلا، حتى ازدهرت المروج، وأينعت الخمائل، وسمق الدوح، واهتزت الربى، وأخذت السهول زخرفها. وبدا له مرة أخرى أن يخلق أناسي يعمرون الأرض الجديدة، فما كاد يفعل حتى ظهرت حيوانات بحرية هائلة، جعلت تزحف من الماء إلى الأرض، فتهلك الخلق الجديد. وكان أشد هذه الحيوانات وطأة وأكثرها فتكاً، ذلك التنين البحري الهائل، الذي يصمد للعصبة القوية من الرجال فيفنيها عن آخرها، حتى ضج الناس واستغاثوا، وجأروا بالدعاء إلى

(*) لقد طغت أسماء الميثولوجية الرومانية على الميثالوجية اليونانية طغياناً كبيراً مع أن الثانية أصل للأولى وأبوللو هو الاسم الروماني للإله فوبوس اليوناني، وكذلك كيوبيد هو ايروس بن أفروديت (فينوس) وقد آثرنا الأسماء الرومانية لشهرتها فحسب.

(**) الشمس.

زيوس الرحيم، فرق لهم وحدب عليهم، وأرسل أعز أبنائه من زوجه لاتونا، أبوللو، فأنقذهم من التنين (بيثون) بسهامه التي سددها إليه حتى أراده.

وانثنى ثملاً بخمرة النصر، مزهواً بما رفع الناس إليه من صلوات وابتهالات، وبينما هو راق إلى سماء الأولمب، إذا أخوه كيوبيد بن أفروديت يصيد الظباء في غيضة لفاء، ويلهو باجتناء الثمر، ويمرح بين أفواف الزهر، كالمستهتر الخالي. فأراد أبوللو أن يناوشه، فقال له "كيوبيد يا ابن أفروديت! أنت هنا تصيد الظباء الضعيفة، وتريش سهامك إلى أطلائها المفزوعة، ولا تجسر على اقتناص الأفعوانات البحرية المرعبة التي تفتك بعباد أبينا زيوس، ومع ذاك لا تفتأ تفاخر الآلهة بسهامك التي لا تطيش، ورمياتك التي لا تخيب. كيوبيد الصغير! يجمل بك أن تنزل لي عن قوسك المرنان، وسهامك الذهبية، أو أن تحد من كبريائك، وتأتي إليّ كل يوم أعلمك كيف تكون الرماية، كيف ينبغي أن تسدد السهام!"

وغيظ كيوبيد من هذا التقريع الذي لا مسوغ له، وذاك التفاخر الأجوف الذي لا فائدة منه، ولا طائل وراءه فعبس وبسر، وتجهم وزمجر، وقال في عبارة ملتهبة، وأسلوب مشبوب: أبوللو يا ابن لاتونا! كان الأولى بك أن تذكر كيف عذبت حيرا في سالف الأيام أمك وأذليتها، فتفنى حياء، وتتوارى خجلاً، ولا تملا الهواء بمثل هذا الفخر الكاذب! أبوللو! أنت تتيه بسهامك وتدل، وتدعي أنك تقنص بها الأفعوانات البحرية، على حين أصيد الظباء، وأقتل الاطلاء، ألا فلتعلم أنني أمهر منك ألف مرة في تسديد السهام، وأقوى في توتير القوس، وإن كنت بعد حدثاً صغيراً. على أنني أنذرك، أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا سهامي التي سأجربها فيك قريباً!!"

فضحك أبوللو ملء شدقيه، وقال: بخ بخ يا كيوبيد ابن أفروديت! ليس هكذا يخاطب سيد الشمس أبوللو! ولكن يبدو لي أنك متعب من طول ما أخذت نفسك به من الصيد في هذه الغيضة، وأحسبك قد أعياك ظبي نافر فأخرجك عن طورك، خصوصاً، وأفروديت تنتظرك لتعد الشواء!.. أنت ستجرب سهامك فيّ.. فيّ

أنا..!"

فقال كيوبيد: "فيك أنت.. فيك أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا.. وسترى.."

وامتلأت أسارير أبوللو بضحكة ساخرة، وفصل مستهزئاً..

وشرع كيوبيد يدبر انتقامه، ويرسم له الخطط التي ينال بها من أبوللو، فلا يستطيع أن يفلت، وكان يحمل كنانتين، يحتفظ في الأولى بسهامه الذهبية التي يصمي بها القلوب فتملأ حباً وصبابة، وفي الأخرى بسهامه الرصاصية التي يصيب بها القلوب فيفعمها بغضاً وكراهية.. ونثر كنانتيه وانتقى من كل واحدة سهماً حاد الشباة مزدوج السنان، ثم انطلق في الأدغال يفكر ويدبر، ويمم شطر غدير قريب يطفئ منه غلته، فرأى القينة الحسناء (دفنيه) متجردة من ثيابها، جالسة كالقطاة على عدوة الجدول، تداعب الماء بقدميها الحبيبتين، وتظللها صفصافة ممتدة الفيء وارفة، والأطيار من فوقها تغني لها. فقال كيوبيد، متحدثاً إلى نفسه: "فرصة نادرة لن أفلتها.. هذه (دفنيه) الجميلة تستنقع من القيظ، وهي وسيمة قسيمة، بارعة الحسن، تامة المفاتن، لا بد أن أسدد سهماً رصاصياً إلى قلبها الصغير فيمتلئ كراهية وبغضاء.. ويحسن ألا أشعرها بوجودي حتى أصمي قلبها... فلأختبئ هنا.."

وتوارى خلف دوحة كبيرة، وثبت السهم الرصاصي في مكانه من القوس، ثم أطلقه في قلب دفنيه، وما كاد يفعل حتى انخلع قلب الفتاة من الذعر، وأسلمت ساقيها للريح تعدو بين الأيك، صارخة من ذلك الثلج الذي ذهب بحرارة فؤادها..

وقصد كيوبيد إلى حيث أبوللو، وكان قريباً من دفنيه، فسدد إلى قلبه السهم الذهبي فأصماه. وتلفت أبوللو ينظر ماذا أصابه، وحدث أن كانت دفنيه منطلقة تعدو إذ ذاك، فلمحها، وسرعان ما جن بها جنوناً. لقد ملأه سهم كيوبيد حباً، كما ملأ سهمه الرصاصي دفنيه بغضاً...

لقد كانت دفنيه أول من وقع عليه نظر أبوللو بعد إذ ملأه سهم كيوبيد حباً،

فهام بها، وشعر نحوها بهوى ممض، وبرح كأنه برح آلاف من السنين، وكذلك كان أبوللو أول من وقع نظر دفنيه عليه بعد إذ أفعمها سهم كيوبيد كراهية، فأبغضته، وشعرت بسم تنفثه عيناه في قلبها حينما رأته.

أفلح كيوبيد إذن في الفتك بأبوللو، حين أوقعه في أحبولة الهوى، ورداه في شرك الغرام، بهذه الفتاة الكارهة المحنقة، دفنيه! أفلح كيوبيد، وتبع أبوللو يرى إليه يتذلل ويتضرع... ويبكي كما يبكي الآدميون... وهو سيد الشمس، ورب الموسيقى، وقانص الأفعوانات كما دل على كيوبيد وافتخر!

انتصر كيوبيد إله الحب، صاحب القوس الذهبية، كيوبيد الطفل، ذو الجناحين، على أبوللو سيد الشمس، صاحب القوس والوتر العرد!

إن الحرب لم تبدأ، حين بدأت، بين أبوللو بن لاتونا، وكيوبيد بن أفروديت، بل هي قد بدأت بين البغضاء والحب، والقلى.. والهوى!

انطلق أبوللو في أثر دفنيه المذعورة يبكي ويتذلل، ويحاول اللحاق بها... ولكن هيهات! لقد كانت تمعن في الهرب، كلما جد هو في الطلب، ولقد كانت تنظر إليه كأنه قاتل أبيها... أو خانق أمها!..

وصاح أبوللو ضارعاً: "دفنيه أيتها العزيزة، قفي أرجوك! تمهلي أتوسل إليك، الشوك يجرح قدميك المعبودتين يا دفنيه! أوه رويدك يا حبيبة، لا تنطلقي هكذا فقد يؤذيك اندفاعك، فيم أنت مذعورة هكذا؟! فأنا أبوللو... قفي!.."

ولكن دفنيه لا تجيب إلا بنظرة القنص، ولفتة الواجف المراش، وتجد في الهرب. فيقول أبوللو: "قفي يا دفنيه! قفي ولك نصف ملكي: بل لك الشمس كلها إذا وقفت، أنا رب الموسيقى سأغني وأصدح لك! سأطربك بقيثارتي الذهبية بعد أن أغسل قدميك بدموعي في كل ليلة (!). سأطير بك في أرجاء السموات! ستكون لك القصور في جنة الأولمب! سأمنحك الخلود يا دفنيه! أحبك! أستحلفك بزيوس ألا ما

وقفت! ما لك هيمانة على وجهك هكذا؟ هل أخيفك؟ هل أزعجك إلى هذا الحد؟... ويلاه!"

ولا تبالي دفنيه، بل تعدو وتعدو...

ويضيق أبوللو بغصته ذرعاً، فليجأ إلى جبروت الآلهة، ويبدي سلطان السماء! ويصيح صيحة هائلة، فيكون سد منيع في طريق دفنيه!..

فيقول أبوللو وقلبه يضطرب من طول الإعياء: "فيم تهربين مني يا دفنيه! ألم تعبديني مرة وتقدمي الضحايا باسمي إلى كهنة الهيكل؟ هأنذا أبوللو المعبود، أرجوك وأتوسل إليك! أنا الذي أعبدك يا دفنيه! ماذا تريدين بعد هذا؟ لقد بلغت من أبوللو منزلة لم تبلغها ربة من قبل! لقد فضلتك على كليمين، زوجتي المعبودة، وأجمل عرائس البحر، وأم طفلي المحبوب فيتون! فيتون أسرع الآلهة بعد أخي هرمز، سآمره يكون خادماً لك! إنه يقتني أغلى المركبات، ولديه من الصافنات الجياد أغلاها، ستركبين معه فتطوفين العالم في ساعتين، وترين ما بين الشرق والغرب في لمحتين، لو رضيت! دفنيه! أرجوك يا دفنيه! إنني أبداً ما بكيت بمثل ما أبكي لك، وأذرف الدمع بين يديك! حنانيك يا دفنيه فقد سحقت قلبي بكبريائك، وأذللت نفسي بخيلائك!"

وكان فعل السهم الرصاصي في قلب دفنيه قد خف، ووقفت الغادة حائرة مترددة مما تسمع، وكانت عيناها ثرتين بعبرات حبيسة. ولكن كيوبيد، المختبئ في عساليج الكروم القريبة كان يرى ويسمع، فلما شاهد من ضعف دفنيه وقرب تسليمها، تناول قوسه، وانتقى سهماً مسنوناً من كنانة الأسهم الرصاصية وسدده إلى قلبها، فصرخت المسكينة صرخة مدوية، وهبت في وجه أبوللو تقول: "إليك عني أيها المسخ! تنح! أبغضك! أكرهك! أغرب عني، أنت نجس من التيتان(*) وألأم من

(*) التيتان هم أبناء وبنات زيوس من المردة وقتلة ابنه زجريوس وأبغض الأبالسة إلى الآلهة.

شارون(**)، اذهب! لا أطيقك، انظر إلى هذا الغدير لترى الشرر ينقدح من مقلتيك، والدخان يصاعد من منخريك! كريه.. شائه أنت أيها الوحش.."

وكذلك كان فعل السهم الذهبي قد شارف أن يبطل في قلب أبوللو.. وكاد الإله العظيم يخلص من هذا السحر العجيب، فيسحق دفنيه، لولا أن تنبه كيوبيد، فأصماه بسهم ذهبي آخر، جن جنونه، وتجدد حبه، وتألب به هواه.. فصرخ صرخة راجفة، وأشار إلى السد فزال عن طريق دفنيه، فانطلقت تعدو.. وتعدو.. وانطلق هو في أثرها يتوسل.. ويذرف أغلى العبرات!..

لقد كانت دفنيه تطوي الطريق كأنها فكرة شاردة في رأس شاعر، ولقد كان أبوللو يقتص آثارها كأنه الكوكب السيار منجذباً إلى نجم كبير! وكان كلما سرق اللمحة من ساقيها الجميلتين التهب قلبه بحبها، واشتعلت نفسه بالرغبة الملحة فيها، وانجذبت روحه إليها.. يالكيوبيد! ويا لسهامه.. الذهبية.. والرصاصية، على حد سواء!

وتعدو دفنيه حتى تكون عند حفافي النهر العظيم الذي أقام زيوس والدها الكبير إلهاً عليه، فتصرخ قائلة: انقذني يا أبي! خلصني من هذا الوحش الذي يدعي أنه أبوللو الكريم! أنه يعدو من ورائي.. خلصني منه.. إني أبغضه. يا أبي.. يا أبي.."

وينشطر الماء، ويخرج أبوها، إله النهر، فيرى أبوللو مقبلاً، فيعرفه، ولكنه يرق لابنته ويقسم ليخلصنها من سيد الشمس، فيغرس قدميها في الشاطئ، ويحتفن من الماء بيديه، وينثرها به، بعد أن يتلو عليه من تعاويذه ويقف أبوللو مشدوهاً، موزع اللب، ينظر ويرى!

لقد تحولت دفنيه، في لمحات، إلى شجرة باسقة من أشجار الغار، وأخذت الخضرة تينع في أغصانها، بين حيرة أبوللو وشدة تعجبه!

(**) شارون هو حارس الجحيم.

ووقف الإله العظيم يبكي، ويا ويح للعاشق المخبول!

ثم تقدم فبارك الشجرة، وسقاها من دمعه، الذي كان من خلائقه الكبر! وانصرف محطم النفس، معمود القلب، كاسف البال.. ولقيه كيوبيد، فسأله الخبيث: "أين سهامك التي أرديت بها الأفعوانات يا أبوللو بن لاتونا؟" فقال: "كيوبيد! أشفني مما ألم بي!" فقال كيوبيد: "بهذا السهم الرصاصي أشفيك!"

وتلقى أبوللو السهم في قلبه عن طواعية فبريء مما به، ولم يعادِ كيوبيد بن أفروديت بعدها!

يو .. أو "منشأ إيزيس"

كانت لأحد أرباب الأنهار التي تنحدر من شواهق الأولمب ابنة بارعة الجمال فتانة، حلوة كأنها قبلة على فم حبيب، رقيقة كأنها زنبقة على غصن رطيب.

وكانت تخطر كما تخطر نسمة معطرة أفلتت من الجنة لتملأ القلوب حباً، ولتشيع في الحب سعادة، ولترف في قيظ الحياة فتروح على المكدودين المحزونين.

وكانت هذه الفتاة (يو)، مفتتنة بجمال الطبيعة، مشغوفة بسحرها الأخاذ، تود لو تستطيع فتعيش ملء السهل والجبل، أو تقدر فتنسجم والحياة الدائبة في الغابة، أو تكون روحاً شفافاً يرف في زرقة السماء، ويمتزج بالظلال والأفياء.

ولم تكن عاشقة، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر في هدأة من الليل، يهيج حب الطبيعة في نفسها، فتبكي، وتبكي، ولا يقطع عليها بكاءها إلا خرير الغدران المترقرقة التي تنسرب في الأدغال. وكانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء، وصاحباتها من بنات الغاب، فكن إذا تفقدتها، توزعن في مهاوي الجبل، وتفرقن في منبسط السفح، وتنادين بها ههنا وههنا، حتى يجدنها آخر الأمر مستغرقة بين يدي قمرها المعبود، تناجي البحر المصطخب، وتكلم النجم المضطرب.

ونزل زيوس يوماً من ذروة الأولمب التي هي أول مراقي السماء، يرتاد جنات الأرض في مملكة جدته (جي)، وما كاد يوغل في إحدى جنبات الجبل حتى لقي يو، تلك الفتاة الأولمبية الساحرة، واقفة على الصخرة تستمتع بجمال الشروق في صبيحة من أوليات الربيع.. وكانت السماء لا تزال موشاة بسحائب خفيفة من بقايا الشتاء،

وأرد ذكاء(*) تنتشر خللها فتفضض أذيالها، وتذهب أوساطها، وتكسب الأفق رونقاً زاهياً خلاباً.

وسحر زيوس، وهو كبير الآلهة، بجمال العروس التي هي من خلقه، وابنة أحد أتباعه، وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها، وشعر كأنه ظمئ إلى هذا الجمال الفتان المشرق، الذي كسف في عينه جمال زوجاته جميعاً، وفيهن حيرا وديون ولاتونا(**).

ووقف الإله المشدوه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وسمر مكانه، وهو سيد الآلهة، يعبد عبدته الصغيرة التي أبدعتها يداه.. وهو لا يدري!

وعول على اغتنام الفرصة، وأقسم ليملأن وطابه استمتاعاً لا يضيره ألا يكون بريئاً، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة.. "أنا سيد أرباب الأولمب، وكل ما بين لابتيك أيتها الأرض فهو لي، وقد اشتهيت هذه الجميلة الخبيثة فمن الذي يجرؤ أن يحجزها عني أو يمنعها مني!..؟"

ثم بدا له ألا يزعجها بالظهور لها في سيماه الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها، لأنها ستكون منه تلقاء إله، فتحول في لمحة إلى فتى يافع ينهل الشباب في برديه، ويترقرق الصبا في أعطافه، وتشع عيناه صبوة وفتوناً، وتقدم إليها فحياها تحية كلها صفاء وكلها دعة، فحيت بأحسن منها، ولقيته أرضى لقاء..

وجلس يحدثها وتحدثه، وكان الإله المحتال يمزج أحاديثه بالسحر، ويزخرف صوته بالموسيقى، ويعسل ابتساماته بالمحبة، ويطلق في نظراته كل ما وسعه من شياطين

(*) أشعة الشمس.

(**) حيرا أولى زوجات زيوس وديون هي أم أفروديت (فينوس) ولاتونا هي أم أبوللو وديانا (فوبوس وأرتميس) ولزيوس أزواج أخرى.

الهوى، وكان ما ينفك يقترب منها ويقترب، حتى لامس ذراعه ذراعها، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحارتين، وطفق يضغط قليلاً قليلاً...

وصمتا هنيهة.. ثم فرغ طور اللسان، وبدأت نوبة العين وأخذا في رشفات وقبل..

وعاد أدراجه إلى الأولمب، ولما يزر من أطراف الأرض غير هذه الناحية الحبيبة التي سعد فيها لحظة بيو، وظل منذ ذلك اليوم يتردد إليها فيلقاها على أنها كأسه الروية التي تبترد بها غلته، وتلقاه على أنه حبيب أسعدها فينوس به، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب..

وكان يتحرق إلى لقائها، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضي، فإذا سعدت منه بزورة، اندغمت عبادتها للطبيعة في عبادتها له، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها!

وأحست حيرا(*) ببعض ما يشغله، ولحظت أنه صادف عنها، فأيقنت أن لا بد من أمر، وأن في الأمر أنثى، وأن في الأنثى صبابة وغراماً، فبثت العيون ورصدت الرقباء، حتى وقفت من شأنه على كل شيء!

ولشد ما دارت الدنيا بحيرا.. لقد ودت أن تقلب جبلاً على رأس يو! وأقسمت أن تبغتهما إذ يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً، لكيلا يكون لبعلها على خيانته حجة، ولكيلا يكون له من بعدها برهان.

وذر قرن الشمس في صبيحة ضاحكة، فذهب زيوس يشفي ما في قلبه من برح عند يو، وكانت حيرا قد أوهمته أنها ستقضي سحابة يومها هذا عند واحدة بعينها من صديقاتها، وزاد ذلك في ابتهاج الإله، وضاعف انشراحه، واعتزم أن يستمتع طيلة

(*) حيرا: ربة الأولمب وزوجة زيوس الأولى.

يومه هو الآخر لدى يو.

وأنه لفي لهو النشوة وإبان السكرة، وعنفوان المرح، إذ به يلمح حيرا مقبلة!

وكانت لا تزال في أول الأفق، فأيقن أنها مكيدة دبرتها لتفجأة مع يو، وأنها قد كشفت من سره ما بالغ في كتمانه. فتناول إذن صاحبته فنفث فيها نفثة سحرتها في أقل من لمحة بقرة بيضاء ناعمة، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها..

ووصلت حيرا، ولم تنطل عليها حيلة الإله، وما شكت قط في أن البقرة الواقفة تبحث بأنفها في الحشيش الأخضر كأنها تنشد الكلأ، إن هي إلا يو..! عدوتها اللدود!

فبسمت لزوجها بسمة كلها دل وكلها فتون، وسألته، وهو يحاول منها قبلة، أن يمنحها هذه البقرة الخصبة التي لم أر في حياتي أرشق منها ولا أجمل.. لقد أحببتها، وهي من غير ريب، حين تكبر ستعطينا أجود اللبن وأسلمه، وسيكون لبنها خير غذاء لولدينا الحبيبين ايرس وهيفيستوس ولطفلتنا الجميلة هيب(*).

وارتبك زيوس، ولم ير بداً من إجابة زوجته إلى ما تريد.

ومضت حيرا بالبقرة فرصدت لها أحد أتباعها الأقوياء: آرجس الهائل، ذا مائة العين التي لا تنام! ناطته بها، وأمرته ألا يغفل عنها.. "والا فالويل يا آرجس إذا هربت منك، أو احتال أحد عليك فألهاك عنها... إذن يحل عليك غضبي، وأسحقك سحقاً.."

وظل الحارس الساهر يرعى يو، ويرقب كل حركة من حركاتها، حتى فزعت المسكينة من سوء منقلبها، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذي ردها

(*) ايرس هو مارس الروماني إله الحرب، وهيفيستوس هو فلكان الروماني إله النار، وهيب هي ربة الشباب وندمانة الشراب، وحاملة الكؤوس فوق الأولمب.

بعد جمالها إلى هذا الخلق الشائه، وصيرها إلى ذاك المصير المؤلم. لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع أن تفلت من رقابته الثقيلة، ولكن كيف؟ إن الخبيث كان إذا أضناه السهد وأعياه السهر، ينام بخمسين عيناً، ويقدح الشرر بخمسين أخرى!! فإذا استيقظت هذه نامت تلك، وهكذا دواليك حتى تشرق الشمس فتصحو المائة كلها! وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلما مررن بها، فتود لو تستطيع مخاطبة إحداهن، ولكن... هيهات! لقد كانت.. مو.. مو.. تنطلق من فمها الكبير مالئة أشداقها، فتنزعج صواحبها أيما انزعاج!

ومضت أيام.. وأيام..

ثم لقيت أباها مرة، فنظرت إليه وهو ينكرها، ونظرت ولكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها، فذرفت أحر الدموع وأدمى العبرات! وحاولت أن تلفته إلى أنها ابنته، فلم يأبه لها!

وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطئ حكايتها، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد، فلما قرأ ما رقشته في أديم الرمل، أجهش المسكين وسكب دموع الحنان، ثم عانقها عناقاً طويلاً! ولكنه اسقط في يديه، إذ ماذا يستطيع رب نهر صغير أن يصنع في سحر الإله الأكبر؟!

ولما شهد آرجس ما كان من بكاء البقرة ثم بكاء رب النهر وعناقه إياها، تأثر تأثراً بادياً. ولو لم يفقه من كل ما كان شيئاً. ثم ذكر وعيد حيرا، فانطلق بالمسكينة إلى مكان سحيق، وثمة، تخير يفاعاً عالياً أقام عليه ليشرف منه على كل شيء، فلا يخشى على بقرته رهقاً ولا تستطيع هي مهرباً.

وذكر زيوس فتاته المسكينة التي كان حبه إياها سبب تعسها وشقائها، وذكر تلك الأويقات الحلوة التي يسرت له فيها أصفى لحظات السعادة التي لم يتيسر له مثلها في مملكة الأولمب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعيم، فثارت في قلبه

عوامل الرحمة، وتحركت في صميمه تلك الشفقة الإلهية التي اتصف بها في قديم الآباد..

وفكر وفكر... ثم استدعى من فوره ابنه من زوجته مايا، البطل الطيار المشهور، هرمز، وأمره بالتوجه إلى حيث آرجس فيحتال عليه ويقتله..

ومرق هرمز كالسهم إلى حيث الأكمة التي جلس فوقها آرجس فألفاه يحرس البقرة حراسة شديدة منكرة، وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل، وكان البدر يتنقل في دارات السماء، والرياح تهب سجسجاً والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح تطرب وتشجي، وكأن سنة من النوم خفيفة رقصت في خمسين من عيون آرجس فأطبقت قليلاً، ولكن ما برحت الخمسون الأخرى تنافس الثريا ببريقها، وكانت البقرة ملقاة على الثرى المندى من الإعياء، فلما شهدت هرمز لم تحفل به.

ولكن ما هذه الموسيقى الحنون!

ومن العازف في هدأة الليل!

وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب؟

آه.. لقد تحول هرمز الصناع إلى شاب ذي قوة وذي فتوة وذي جمال، وبدا في شكل راع من رعاة الضأن، وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لآرجس، ثم انبرى يعزف على يراعه المثقب الذي اتخذه من قصب البرية الفسيحة التي أقبل منها، وانبطحت في السفح شاؤه ونعمه[*] تغط في شبه نوم عميق..

واستيقظت الخمسون الأخرى من عيون آرجس، ودب النشاط في هيكله الضخم لما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن، فانتفض انتفاضة كان بها عند هرمز– الراعي الفتي– فسلم عليه وصافحه. وجلس بين يديه كالعنز يسمع ويطرب

[*] الشاء جمع شاه، والنعم يطلق على الإبل.

وينتشي، ثم أخذ معه في حديث طويل عن موسيقاه العذبة وألحانه الرقيقة، ثم استطرد فسأله عن نايه، مم صنعه، أو من ذا الذي وهبه؟...

فقال هرمز: "في إحدى الغابات ذات الايك البالغ عنان السماء، والدوح المنتشر في الأرجاء، كانت تعيش سيرينكس عروس الماء المرحة، ذات السيقان الناعمة، والجسم الأبيض الخصب الجميل. وكانت تهوى الرياضة وتقبل عليها، وتؤثر منها الجري والوثب والقفز، والتعلق بأطراف الشجر، ثم السباحة. وكانت تجري فتسبق الريح، وتعدو فيتعثر الظليم(*) في آثارها، ولا تدرك الصافنات(**) غبارها. وطالما طلبت إليها آلهة الغاب مسابقتها، فكانت تأذن لهم فيجرون قبلها مرحلة، ثم تنطلق فتلحق بهم، وتسبقهم بمراحل!..

وتثاءب هرمز الخبيث وقال: "ومن طريف ما حدث لها، أن بان العظيم، رب الرعاة وإله المروج وسيد الغاب، ومعبود الناس في أركاديا، لمحها يوماً تعدو كأنها زوبعة، فتبعها، ولكنها شأته(***) وأجهدته! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق في الجري، وحاول أن يلحق بها، فضاعف سرعته وأطال خطواته.. ولكن هيهات!... والتفتت سيرينكس فرأته يطوي أديم الأرض من خلفها. ففزعت أيما فزع وهالها منظره الشائه الغريب، فسيقانه العنزية الأربع، وأذناه البهيمية الشاخصة، وجسمه المفتول ذو العضل، ووجهه الواسع العريض.. كل ذلك بعث في قلبها الذعر، وهاج في نفسها الرعب، حتى كادت تذهب شعاعاً".

وتثاءب هرمز ثانية وثالثة، ثم قال: "واعترضها نهر عظيم فصرخت عرائس الماء تستغيث بهن، وتطلب إليهن النجدة، فما أذهل بان عن نفسه إلا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبنها في اليم، ثم ما أذهله

(*) ذكر النعام.

(**) الخيل.

(***) شأته: سبقته.

أيضاً إلا أن تنمو قصبات رقيقة، ذوات أرياش صفيقة، في الموقع من الماء الذي غيبت فيه سيرينكس!

ووقف بان مشدوه اللب، ذاهل الفكر، يحملق في النهر الذي طوى منية القلب، وهوية النفس، ثم انثنى فنزع القصبات النامية، وراح يصنع منها ناياً حلو النغم رقيق اللحن، حنون الجرس.

ولقيته مرة في روضة مونقة، منضورة منسقة، وكان بان يجلس على رابية بها معشوشبة، عازفاً على يراعه، فطربت لموسيقاه طرباً شديداً، ودلفت إليه، فرجوته أن يهب الناي لي، فتبسم قائلاً: "إليك يا بني أكرم القنى(*) وأعز الذكريات..."

وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه، حاول أن يخفيها عني..

وكان هرمز وهو يلقي هذه الأقصوصة التي اخترعها اختراعاً، يحاول أن يمطها مطاً، ويزيد في ثناياها حواشي مملة، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها، وكان يتثاءب ويتثاءب، وكانت الكلمات تساقط من فمه كأنها مشدودة بسلسلة من حديد، حتى تثاءب آرجس هو الآخر، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها. وابتهج هرمز الخبيث لذلك، وجعل يروح على وجه آرجس، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير يجاوب أصداء الضفادع.

وهنا.. امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل، فانفصل الرأس عن البدن، وغادرهما معفرين بالتراب، وعاد أدراجه إلى الأولمب يحمل إلى والده نبأ المعركة...

وحزنت حيرا على خادمها أمض الحزن وأشده وذهبت بنفسها فحملت رأسه إلى مخدعها في قصر الأولمب الكبير، وطفقت تسمل العيون عيناً عيناً وتركبها في ريش

(*) جمع قنية ما يقتنيه الإنسان.

طاووسها[**] الجميل لتظل إلى الأبد رمز حبها له ووفائها لذكراه.. ثم آلت لتسلطن على يو– البقرة المسكينة– ذبابة صفراء من ذباب الأبالسة تقرصها وتجعل من حياتها نكالاً، حتى ضجت المخلوقة التعسة ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحمة من زيوس... كبير الآلهة ورب الأرباب: "يا إلهي العظيم الرحيم! يا أبا الآلهة، وابن الآلهة! أتوسل إليك بأبنائك الكرام الرحماء! أدركني يا أبا زجريوس! أغفر لي زلتي حين أحببت هذا الفتى الجميل وأحبني! إن كنت قد صنعت بي ما صنعت انتقاماً، فحسبك ما حل بي من عذاب الهون، لن أزل يا إلهي إذا غفرت لي ورفعت عني وزر غضبك! اقبل يا رب الأولمب صلاتي واجعلها شفيعي إليك! أنا.. يو المسكينة... كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر، فكنت أنزوي عن العالم، وألبت وحدي بين يدي قمري الحبيب، أصلي لك ولابنتك المعبودة، في هدأة الليل، وسكون السحر، فما هو إلا أن قطع عليّ هذا الفتى صلاتي وهو من خلقك، وجماله الفتان آية من آياتك، فإذا سحرني وأذهلني عن عبادتي، فإني استأهل كل هذا الذي أنا فيه! يا إلهي اغفر لي، فقد وسع غفرانك كل شيء".

ويستجيب الإله لهذه الصلاة الحارة الخالصة، فينطلق إلى حيرا، حيث يجدها مكبة على رأس آرجس تسمل عيونه، فيواسيها ويسليها، ثم يرجوها أن ترحم يو، وأن تخفف عنها العذاب، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق ألا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى. فترق حيرا، وتتفجر الرحمة لأول عهدها بها، في قلبها، وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة، وتأذن لزيوس فيعيدها إلى صورتها الأولى. الصورة القديمة المحبوبة.! ولكنها تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها إلى أقصى أطراف الأرض، حتى تطمئن عليه وعلى قلبه المتصابي من حبها.

ويأمر زيوس بعض أتباعه فيحتمل يو إلى... ضفاف النيل! وتخرج من

[**] كان الإغريق يرمزون لحيرا بالطاووس والكوكو وكانوا يحبونها حباً جماً لأنها آثرتهم بعطفها وضحت في سبيلهم بحب زوجها وثقته فيها واسمها اليوناني هو جونو.

الصحراء على المصريين، فتبهرهم بجمالها الرائع، وحسنها الوضاء، ومفاتنها البارعة، ثم يجتمعون على عبادتها، ويقيمونها مليكة عليهم، ويسمونها: "ايزيس".

وتمر الأيام...

فيتزوجها كبير آلهة مصر، أوزوريس، وتلد له ابنه حوريس!

برسيوس وأندروميدا

والجرجون الثلاثة

في إحدى مدن الشاطئ الإغريقي، كانت تعيش أميرة جملة تدعى "داناي"، هي وابنها الجميل برسيوس، الذي كتب عليه أن يحرم صدر والده الحنون، ذلك الوالد الذي طوحت به أسفاره، فشط مزاره، ولم يعرف أحد أين انتهى قراره.

ولقد كان هذا الوالد– فيما يظهر– على جانب عظيم من البأس وقوة الجانب، حتى لقد فرح أهل المدينة لبعده فرحاً شديداً، ولخوفهم من أن ينشأ طفله برسيوس على وتيرته، تآمروا فيما بينهم على نفيه هو وأمه من جزيرتهم في زورق صغير يدفعون به إلى اليم، والأمواج المتلاطمة كفيلة، ثمة، بإجراء حكمها فيهما.

يا للوحوش! لقد أنفذ الأشقياء تدبيرهم، وتناوحت الأمواج حول الزورق تقذف به هاهنا وهاهنا، والأم المسكينة تغالب أحزانها وتنسى مخاوفها، فتغني لطفلها الراقد في حضنها، وتدلله، كي ينام، وكي يكون بنجوة من هذا البحر المصطخب.

وبعد أن كان الموت المحقق قاب قوسين من هاتين الفريستين، وبعد أن كانت كل موجة تشق للزورق قبراً في أعماق الماء، شاءت العناية أن تسخر موجة هائلة تدفع به، في هوادة ورفق إلى ساحل جزيرة نائية في وسط المحيط. وهناك، نزلت الأم الموهونة متهالكة على نفسها، حاملة وديعتها البريئة، شاكية إلى الآلهة صنع الإنسان بالإنسان. ولمحت في الأفق قرية متطامنة، فيممت شطرها، وما فتئت تتعثر في خطاها حتى بلغتها. والشمس تتوارى بالحجاب.

ورحب الناس بالضيفين البائسين، لأن دينهم كان يأمر بإيواء أبناء السبيل،

وإكرام الغرباء واللاجئين، فعاشا ناعمين، وشب برسيوس سليماً من الآفات، مكتنز العضلات، بادي الفتوة، موفور القوة، عذب اللسان، مشبوب الجنان، وأحبه الناس وأعجبوا به، والتف الجميع حوله يصغون إلى أحاديثه العذاب، وقصصه الرطاب.. وتسامع الكل به، وترامت إلى ملك الجزيرة أخباره، فشغله انصراف الناس إليه، وافتتانهم به، وكان (قاتله الله)، غيوراً رعديداً، فآلى أن يكيد له ويدبر حيلة يقصيه بها عن طريقه ليطمئن على نفسه.. وعرشه!

وكان في إحدى الجزائر النائية ثلاثة من الجرجون الضارية، وهي من أفزع ما جاء في أساطير اليونان، وكل من هذه الجرجونتين هائل له رأس امرأة، ويدان من النحاس الأصفر، ذواتا أظافر حادة، تنفذ في أقسى المعادن وأصلبها، وليس لها شعر في رؤوسها كما للنساء، بل لها، عوضاً عن الشعر، حيات وأفاع ذوات رؤوس تنفث السم الزعاف. وقد أوتيت قوة خارقة، حتى لتستطيع إحداها أن تقصم جذع النخلة بضربة ضعيفة من ذنبها الجبار، وليست هذه الجرجون مخيفة بسمها، وقوة بنيتها فحسب، بل الأدهى والأمر، هو هذا السر الدفين في عيونها، إذ كل من جرؤ على النظر إلى هذه العيون، يتحول في الحال إلى صنم من الحجارة، لا يتحرك، ولا يعي!

وكانت الجرجونة (مديوسا) أفظع أنواع الجرجون جميعاً، ولذا كانت أختاها الأخريان تحترمانها، وتسهران على راحتها.

ولكن ماذا اعتزم الملك الجبار من كل ذلك؟ لقد دبر أن يغري برسيوس بالذهاب إلى جزيرة الجرجون لقتل (مديوسا) والإياب برأسها كأحسن هدية تقدم إلى ملك. وكان هذا الرجل الخبيث يعلم تمام العلم أن مجرد محاولة الذهاب إلى جزيرة الجرجون هو ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا المأفونون، فإن نظرة واحدة من عين مديوسا كفيلة بوضع حد لكل شيء...

وأرسل الملك إلى برسيوس فمثل بين يديه، وطفق يكيل له المدح جزافاً، ويبالغ

في الثناء على ما ترامى إليه من أخباره وضروب شجاعته التي يتحدث بها الجميع.

وامتلأ برسيوس، الفتى، زهواً، وشاعت في أعطافه الكبرياء، وراح هو بدوره يشكر للملك حلو ثنائه، وجميل إطرائه، فما إن أدرك الملك ما بلغ ثناؤه من قلب برسيوس الغرير، ونفسه الصغيرة، حتى أخبره بما انتدبه له، فقبل الفتى المسكين وهو لا يدري ما هي هذه الجرجون ولا أين جزيرة الجرجون؟

وانطلق من فوره، وأرسل الملك من حاشيته من أبلغوه خارج الأسوار في مهرجان فخم، وموكب أنيق. ثم غربت الشمس فغلقت الأبواب ثم جلس برسيوس على صخرة عظيمة مشرفة على البحر يفكر في هذه الجرجون، وينظر إلى القمر يشرق من الأثباج، فيفضض الموج، ويحور به البحر رجرجاً من لجين! ويذكر فجأة أنه لم يودع أمه، ولم يتزود منها قبلة أو دعاء لهذا السفر الطويل. فيبكي.. ويبكي بكاء مراً!

وتصدع قلبه حينما خيل إليه أنه قد لا يعود إليها مع أنه عزاؤها الوحيد في هذه الحياة!

وانتصف الليل...

وفيما هو غارق في لجة الفكر، شرق بواكف الدمع، إذا بصوت رقيق يناديه من فوق الصخرة المقابلة: "برسيوس أيها العزيز! فيمَ بكاؤك؟ ولم تذرف كل هذه الدموع؟ لقد هجت الآلهة، وأحزنت أرباب الأولمب!". ونظر برسيوس ليرى من صاحب هذا الصوت الرخيم الذي يناديه، فعجب عجباً شديداً! لقد رأى مخلوقاً جميلاً مشرق الجبين، يترقرق البشر في وجهه، لا يعقل أن يكون بشراً! يلبس فوق هامته قلنسوة ذات أرياش وأجنحة، وفي قدميه نعلان غريبتان يتصل بكل منهما جناح البازي، وفي يده عصا سحرية تتلوى بطرفها الأعلى ثعابين وحيات!!

على أن برسيوس لم يعلم أن الذي يتحدث إليه، إن هو إلا الإله هرمز(*) رسول الآلهة بين السموات والأرض، الذي لا يفوقه في سرعته أحد.

وبعد، فلقد قص برسيوس قصته على هرمز، وما فرغ منها، حتى قال الإله له: "بُني! إنك مقدم على أمر جلل، وشأن بعيد المدى، صعب المنال. ولقد أراد الملك إهلاكك حين اختارك لهذه المهمة، لأن أحداً لا يجسر على الذهاب إلى جزيرة الجرجون إلا إذا كان أحمق أو مجنوناً، ولكن أصغ إليّ! إنك لابد فائز إذا علمت بوصاياي، ولم تحد عما أشير عليك به. وسأذهب عنك لحظة، ثم أعود إليك بآلاء من الآلهة، تقرب لك النجح، وتسهل عليك كل شاق من أمرك... فانتظر". ورقى هرمز ثم غاب في السماء، وبهت برسيوس حين رآه يطوي الأديم الفضي، ويطرق أبواب أورانوس(*)!

وقص هرمز قصة صاحبه على الآلهة، فرثت للفتى المسكين وتحركت في قلوبها الرحمة العلوية، التي طالما تنهمر من السماء، لتغسل آلام الأرض: وتعاهدت أن تؤازر برسيوس، وتمده بكل ما يسهل عليه أشق أمره. فنزل بلوتو، إله الموتى عن قلنسوته التي تخفي من يلبسها فلا يراه أحد، وتبرعت مينرفا(**) بترسها الذي يحمي لابسه من حراب الأعداء، وهو ترس ثمين من الذهب الخالص، يلمع لمعاناً شديداً، حتى ليعكس المرئيات في صفحته، كأنه السجنجل.

* * *

وحمل هرمز المنحتين، وعاد بهما إلى حيث يجلس برسيوس فقدمهما إليه، وزوده بجرازه المتلوي القاطع، الذي ليس كمثله سيف ولا حسام. ومنحه نعليه

(*) هرمز هو الذي يسميه الرومان ميركيوري والعرب عطارد، وهو قائد أرواح الموتى بين الدنيا والآخرة.

(*) السماء.

(**) اسمها بالا أثينا في الميثولوجية اليونانية وقد آثرنا هذه التسمية الرومانية لذيوعها.

المجنحتين، اللتين تسبقان به الريح، فلبسهما ثم قال له: "تلك يا برسيوس هدايا الآلهة أسبغها عليك. بيد أنه ينبغي قبل كل شيء أن تذهب معي إلى هذه الجزيرة القريبة حيث تقيم ثلاث إناث من السيكلوب ذوات العين الواحدة، فتحتال عليهم حتى تعرف منهن موضع جزيرة الجرجون، لأن أحداً من العالمين لا يدري أين موضعها بالضبط غير هؤلاء السيكلوب، سر إذن على بركة الآلهة في أثري، واحترس لنفسك، والسماء تكلؤك".

وكم عجب برسيوس حين رآه يطير في أثر هرمز، والبحر من تحتهما يتلاطم، ويعج عجاجه، وهما من فوقه كالعصافير المهاجرة، وحطا في الجزيرة المنشودة بعد أن دوما فوقه طويلاً. وكان ذلك بالقرب من كهف حالك في منحدر صخرة صعبة المرتقى. وقد لمح فيه برسيوس السيكلوب الثلاث، بفضل ترس مينرفا الذي كان يعكس في صفحته كل ما في الجزيرة.

إنها مخلوقات غريبة حقاً، ليس كمثلها شيء في الآفاق، شاذة في خلقها، عجيبة في تنسيق جسمها، وهي إناث على كل حال يعشن في هذه الجزيرة المعشوشبة، بعيدات عن العالم، منزويات في هذا الركن السحيق من أركان الدنيا. وأغرب ما في أجسامهن من شذوذ أن ليس لهن أعين كما للناس، ولكن لهن، وبالحري، لثلاثتهن، عين واحدة: تركبها لوقت معلوم، في حفرة غائرة في جبينها، حتى إذا انتهى الوقت وجاءت نوبة السيكلوبة الأخرى، نزعت الأولى تلك العين وأعطتها للثانية، وهذه للثالة، وهكذا دواليك، وبوساطة تلك العين العجيبة تستطيع السيكلوب رؤية أصغر شيء في أقصى جهات العالم، من دون ما مشقة ولا عناء...

* * *

وبعد أن زود هرمز صاحبه بوصايا غالية، انتحى ناحية قريبة، واختبأ برسيوس خلف شجرة باسقة، ولشد ما دهش إذ رأى إحدى السيكلوب تقود أختيها، وفي

جبينها العين العجيبة ترمق بها أصقاع العالم، وتحدث أختيها عما ترى، وبعد قليل ثار نزاع بين الأخوات على العين، كل تريد أن تأخذ نوبتها، وكل تدعي أن الدور دورها. وفيما كانت الأولى تنزع العين، وتوشك أن تعطيها للثانية، انقض برسيوس فتسلمها من السيكلوبة، دون وعي منها!! لأنها بدون العين لا تستطيع أن ترى شيئاً في العالم. وينشب نزاع شديد بين السيكلوب على العين، كل منهن تتهم أختها بأن العين معها وتدعي الإنكار، حتى وضع برسيوس حداً لتنازعهن، بأن هتف بهن: "أيتها الأخوات الغزيزات، لا تنازعن على عينكن، فهي في هذه اللحظة معي وبين يدي"، وانقضت السيكلوب هلعات نحو مصدر الصوت، ولكن هيهات أن يقبضن على شخص تحمله نعلا هرمز، فلقد قفز قفزة هائلة، أقصى بها نفسه عنهن، ثم قال: "أيتها الأخوات العزيزات! أنا أعلم أنكن لا تستطعن الحياة بدون العين الغالية، وأنا أعدكن بردها إليكن، ولكن بشرط واحد: ذلك أن تخبرني عن المكان الذي تأوي إليه (مديوسا) وأخواتها الجرجون، فإن لم تفعلن فلا عين لكن عندي".

وهنا تميزت السيكلوب من الغيظ وكدن لا يجبن بشيء، لأنهن منهيات عن إذاعة أسرار العالم، ولكن إذاعة السر في هذه اللحظة أهون ألف مرة من هذا العمى المطلق، والظلام المبين يغطش حياتهن، فأخبرنه بموضع الجزيرة ومأوى الجرجون فيها، ولكي يثق مما أنبأنه به نظر في العين التي بين يديه الجزيرة، وأيقن أنهن لم يخنه، ثم أنه تحين الفرصة الملائمة ودفع بالعين في جبهة أقرب السيكلوب منه وغاب في الجو ميمما شطر هرمز، حيث وجده يمرح في غيضة ناضرة، فتعانقا عناقاً طويلاً، وشكره برسيوس على جزيل مساعدته، ثم افترقا على أن يبدأ برسيوس رحلته إلى جزيرة الجرجون.

وكانت رحلة طويلة شاقة، برغم نعلي هرمز. فكم بحار طوى، وكم وهاد رأى، وكم ريح صرصر كافح، وكم مشقة احتمل، حتى وصل إلى جزيرة الجرجون! ولم ينسَ ما أوصاه به هرمز من وجوب النظر إلى أعلى دائماً حتى لا تقع عيناه على عيني

إحدى الجرجون فيحور حجارة صماء. وكان يتخذ من درع مينرفا مرآة صافية يرى فيها ما تعج به الجزيرة من كهوف وزروع وغابات. ولشد ما سر سروراً لا مزيد عليه حين وجد الجرجون الثلاث مستغرقات في سبات عميق عند مدخل كهفهن السحيق. وفي وسطهن مديوسا العاتية. تغط غطيطاً مروعاً. فاستخار الآلهة، وامتشق جراز هرمز، وتعوذ ثم تعوذ، ثم انقض كالصاعقة، فأهوى على عنق مديوسا بضربة قاتلة، فانفصل الرأس عن سائر الجسد. وهنالك علا فحيح الأفاعي الباسقة في رأس مديوسا، تدمدم في الكيس الجلدي الذي ألقاها برسيوس فيه، حتى لقد استيقظ أختاها، وانطلقتا مرتاعتين في أثر الفتى، تودان لو تمسكان به، فتعتصران عظامه اعتصاراً... ولكن قلنسوة بلوتو تخفيه عنهما، وتحفظه من شرهما.

وبينما هو يطوي الضحاضح والبحار، وبينما هو منتش بخمرة انتصاره، مفكر في اللحظة التي يلقى فيها الملك برأس مديوسا، ويحظى لديه بثمرة فوزه، بينما هو كذلك، إذ يلمح في إحدى الجزائر زحاماً شديداً وجماهير حاشدة، متكبكبة حول صخرة ناتئة، مشرفة على البحر، وقد تدلت منها فتاة بارعة الجمال، بادية الحسن، مغلولة العنق، مربوطة الأطراف بسلاسل وأصفاد من حديد صلب. ونظر فرأى تنيناً بحرياً هائلاً يطفو فوق الماء، ويقترب من الفتاة قليلاً قليلا، وراعه أفزع الروع تلك الصرخة الهائلة التي صرختها الفتاة فرددت الغيران والكهوف ومشارف الجبال أصداءها.

ماذا؟...

الفتاة مذعورة أيما ذعر، والناس من حولها ينظرون ولا يحركون ساكناً... والتنين يقترب ويقترب..، ولم ينتظر برسيوس حتى يفترس الوحش تلك الفتاة المفزعة، بل استل جراز هرمز وانقض فوق ظهر التنين وأهوى على عنقه بضربات سريعة متلاحقة غاص بها في أحشائه، ولبثا يتصارعان ساعة من الزمان كانت كلها هولاً، وكانت كلها فزعاً، والناس ينظرون مشدوهين، زائغة أبصارهم، لا يصدقون ما يبصرون. ثم انجلت

المعركة عن جثة التنين الضخمة طافية فوق الماء، الذي تحول بدوره خضماً من الدماء. وقفز برسيوس إلى الشاطئ، وذهب إلى الفتاة ففك أصفادها، وهدأ من روعها، ثم حملها على حصانه، وسأل الناس فقادوها إلى والدتها المسكينة المعذبة، التي حبست نفسها في حجرة مظلمة، وانتظرت ثمة من ينعي إليها ابنتها.

أما هذه الأم فهي الغادة الإغريقية كاسيوبيا، المشهورة بجمالها، وحسن روائها، والتي كانت أفتن حسان هيلاس في زمانها، ولقد امتلأت زهواً بما أضفت عليها الآلهة من قسامة، وما أسبغت عليها من وسامة، فزعمت، وهي تفاخر أترابها، أنها من عرائس البحار التي لا يدانيها في جمالها الباقي، جمال هذا البشر الفاني. فغضبت عرائس الماء، لهذا الادعاء، وأقسمن ليعذبن أهل الجزيرة التي فيها كاسيوبيا بهذا التنين المروع الذي شرع يغدو كل يوم إلى شواطئ الجزيرة فيقتل ويلتهم عشرات من سكانها!..

وذعر القوم. وحاروا في أمر هذا التنين، وذهبوا إلى الهيكل يقدمون قرابينهم للآلهة، ويستوحون كهنتها نبوءة تبعد عنهم شره، وتكفيهم أمره. ولقد أجيبت ادعيتهم وتقبلت أضحيتهم، وأرهفت الأسماع، وشمل الهيكل هذا السكون المقدس الرهيب، وما هي إلا لحظة حتى انطلق صوت خفي من أعماق المذبح، يقول: "قدموا العذراء أندروميدا، ابنة الغانية كاسيوبيا، ضحية حلالاً لتنين البحر، جزاء غرورها وكبريائها– ذلك إن أردتم أن يكف التنين عنكم شره، ولا يعاودكم أذاه!"

وانكفأ القوم محزونين مروعين، لأنهم كانوا يحبون كاسيوبيا وابنتها، حباً هو العبادة. وحاروا كيف يتقدمون للأم بهذا النبأ العظيم؟!

وكان لا بد من النفاذ، لإنقاذ الجزيرة وجميع سكانها..

والآن، لقد أنقذ برسيوس أندروميدا الجميلة من التنين، وشعر في سويدائه بعاطفة نورانية تجذبه إلى هذه الفتاة وأحس كأن مستقبله مرتبط بمستقبلها برباط

قدسي تباركه السماء وتحرسه العناية، فتقدم إلى والدتها يطلب يد آندروميدا..

ووافقت الوالدة، وسعدت الفتاة بهذا البطل الشاب الذي أنقذ حياتها مرتين: مرة من هذا الوحش الضاري الذي تركه برسيوس جثة هامدة، ومرة ثانية من ذلك الشيخ الفاني الهرم الذي تقدم إليها يريدها زوجة له، وكادت أمها أن تقسر على الموافقة لما للشيخ في الجزيرة من صولة وجبروت، لولا المقادير التي تتابعت بعد ذلك.

وأقيم مهرجان كبير، وزينات فاخرة للاحتفال بالعروسين، فمدت الأخونة، واعدت الاسمطة، وبدأت الموسيقى الإغريقية تعزف أشجى ألحانها، وأخذ الجميع في قصف حلو وسمر بريء.

وإنهم لفي كل ذلك إذا بالرجل الهرم الذي تقدم لخطبة أندروميدا من قبل، يقتحم الحفل هو وعصبة قوية من رجاله المسلحين، وإذا بالرجل يهتف ببرسيوس قائلاً: "برسيوس! لقد اعتديت على مولى هذه الجزيرة اعتداء صارخاً بانتزاعك أندروميدا من يدي، وإنك إن لم تنزل عنها طواعية فسأكرهك على تركها قسراً، بعد أن تُروى هذه السيوف من دمائك ودماء من يلوذ بك!..". فحدجه برسيوس بنظرة ساخرة وقال: "من أنت أيها الرجل الذي يجسر على مخاطبتي بهذا الهراء؟ لقد أصبحت أندروميدا زوجتي، وإن كانت من قبل خطيبتك، أنت من غير ريب تحلم... غير أني أسألك. أين وليت وجهك يوم اضطرت أمها المسكينة أن تنزل عنها قرباناً للتنين؟ لقد كان أولى بشجاعتك أنت ورجالك لو توليتم إنقاذها من الأفعوان البحري الذي أذلك وأذلهم.." ومد يده إلى الكيس الذي كان به رأس مديوسا، فأخرجه وقال: "ولكن أنظر إلى هذا قبل أن تقتلني". وما كاد الرجل ينظر إلى مديوسا، حتى تصلبت عضلاته، وتحجر جسمه، وظل مكانه كأنه تمثال! ودهش أصحابه لجموده، وظنوه قد سمر حيث هو، فلما لمسوه استطيرت ألبابهم ولاذوا من الفزع بالفرار.

وأخفى برسيوس رأس مديوسا، واستمر القوم في سمرهم كأن لم يحدث شيء...

اللهم إلا هذا التمثال المنتصب في أول الردهة، والذي كان يهرف منذ لحظة، فأصبح عبرة الزمان، وضحكة الأيام!

وحان يوم الرحيل، فخرج أهل الجزيرة يودعون الزوجين، وظلت كاسيوبيا تعانق برسيوس مرة، وأندروميدا مرة أخرى، والدموع فيما بين هذه وتلك، تنهمر على خديها انهماراً... والناس ينظرون... ويبكون...

ثم حمل برسيوس عروسه، ومرق في الهواء كالسهم، والقوم من عجب يتصايحون ويهتفون.

وكانت الرحلة هذه المرة، على شدتها وطولها، من أروح الرحلات إلى قلب برسيوس. وتستطيع أن تتصور القبل الحلوة تنطبع على هذين الثغرين الحبيبين، في ملكوت السماء، لتدرك أي سعادة شعرية، وأي هنيهات سحرية، فازا بها في لازورد الفضاء.

وبلغ مدينة الملك بعد نأي طويل، وسنين عدة، فذهب أول ما ذهب إلى منزل أمه، وناهيك بما كان من عناق، وما تبادلا من تحيات، وبكت داناي المسكينة، وهي تهنئ ابنها باندروميدا، ثم أخذت تقص، ملء أحزانها، وفي فيض أشجانها ما انتابها من سوء، وما لحقها من عسف، لأنها أبت أن تكون خليلة الملك المخاتل الجبار، الذي صب عليها جام نقمته، وأذاقها من الهوان ألواناً، فحزن برسيوس حزناً ممضاً وهيج حتى خيف عليه، وذهب من فوره إلى قصر الملك بكل عتاده! ودخل إلى البهو الملكي بدون استئذان وهو يضمر في القلب غصة، وفي النفس لوعة، وفي الكيس رأس مديوسا!!

وقال الملك حين لمح برسيوس: "أهلاً، برسيوس! لقد عدت أخيراً، وما أحسبك وفيت بما قطعت على نفسك من عهود! لعل شجاعتك التي بالغ الناس في إطرائها والثناء عليها قد واتتك في حربك مع الجرجون؟!"

فأجاب برسيوس، دون أن يحيي بالتحية الملكية: "أيها الملك! لِمَ تخاطبني هكذا ولا تتريث حتى تنظر إن كنت قد عدت إليك برأس مديوسا الرهيب؟"

فقهقه الملك، وملأ التهكم شدقيه، وقال: "طبعاً، ستدعي أنك قتلت مديوسا ولكن رأسها وقع منك في البحر، فالتقمه الحوت؟... يا للشباب المخدوع؟!"

وثارت ثائرة برسيوس، ولم يجد إلى صبر من سبيل، فحسر عن رأس مديوسا وقال: "أيها الملك... انظر!"

وبهت الملك مكانه حين وقع بصره على عيني مديوسا، ثم تحول في لمحة إلى تمثال من الحجر ما يأتي بحركة ولا ينبس ببنت شفة!!

وحدث عما شمل أهل الجزيرة من الفرح حين ترامت إليهم أخبار الملك، وما تم له مع برسيوس. لقد كانوا يؤثرون الموت على أن يحكمهم مثل هذا الظالم العاتي المستهتر، ولقد كانوا يودون له الهلاك، حتى خلصهم برسيوس منه، فهرعوا إليه، وهتفوا في كل مكان باسمه، وحملوه على الأعناق إلى حيث الملك التمثال... وهناك، صبوا لعناتهم على الطاغية، وانصرفوا، يهنئ بعضهم بعضاً، بعد أن اختار لهم برسيوس ملكاً منهم... فاضلاً، عادلاً... وقد عرضوا عليه الملك فأبى... لأن مملكته الكبيرة المكونة منه ومن أمه، ومن أندروميدا كانت آثر لديه من كل ملك عتيد!!

وتوجه إلى حيث لقي هرمز، عند الصخرة المشرفة على البحر، فوجده ينتظره، فتعانقا عناقاً يفيض محبة، ويقطر وداً، ثم رد إليه هدايا الآلهة بالحمد والثناء...

أما رأس مديوسا، فقد أهداه إلى مينرفا، ففرحت به فرحاً شديداً، وهو إلى اليوم مركب في وسط ترسها ترهب به أعداءها الألداء...

أرفيوس الموسيقي

أرفيوس! لسان الطبيعة، ونجي الآلهة، ووحي السماء إلى جي(*) وصاحب القيثار ذات الرنين... والأنين!

كان يعزف، فتشيع الحياة في الصخر، ويقف أبوللو العظيم في مركبته الذهبية(**) مطلاً كانت تنزل من مركبتها الفضية(***) في أعلى أجواز السماء، لتلبث هنيهة بباب أرفيوس، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة، من مشرق الدنيا إلى مغربها.

وكانت الوحوش تسكن إليه، وتجتمع من حوله تنصت وتلتذ.. وتغفو...

والأشجار! إن لها لجذوراً متغلغلة في أطباق الأرض، ومع ذلك فقد كانت حين تسمع أرفيوس، تنزع إليه وتسير وراءه خبباً! وكم شهد الناس حول بيته غابة من الدوح العظيم، والأيك الذاهب، سعت إليه تلتذ موسيقاه، ثم هي تنصرف في المساء فتنغرس في أصولها وقد ازدادت نضارة وازدهاراً!

ومع ذلك، فقد كان ذا غرة مشرقة، وابتسامة حلوة، ما تكاد تفارق ثغره الجميل. وكان جم الحياء، لم ينهر مرة أحد رواده، أو المترددين عليه، بل كان يلقى الجميع ببشاشة الأخوة، وهشاشة الود.

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر، وأفتن من وشى الأصيل، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح.

(*) جي هي الأرض في الميثولوجية اليونانية.

(**) مركبة أبوللو الذهبية هي الشمس.

(***) القمر.

اسمها يوريديس... مصدر الهامة، ومعين عبقريته، وجمال لحنه، وأغنية حبه، وأنشودة هواه. سئل مرة: "ماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس؟"

فأجاب: "قيثارتي... ويوريديس!"

* * *

كانت يوريديس تجمع الأزهار البرية في ربرب من أترابها، لتصنع منها باقة مفوفة تقدمها لأرفيوس، وكانت كلما راقتها سوسنة، أو وقعت في نفسها زنبقة، طبعت عليها قبلة ندية وضمتها إلى الباقة، وهي تقول: وأنت أيضاً لحبيبي أرفيوس...

وبينما هي كذلك، إذا أفعى تنسل من بين الأشجار، فتلدغ قدمها الصغيرة الجميلة المطمئنة في الحشيش الأخضر، فتصرخ المسكينة صرخة مدوية، ثم تنطرح إلى الأرض، وتتناثر الورود والرياحين التي جمعتها حولها، كأنها تنضد سرير موتها.

وتجتمع صديقاتها مذعورات، فتعولن وتبكين، وتحملنها إلى أرفيوس الذي يستطار من هول الكارثة، وينخلع فؤاده من فداحة المصاب، ويحاول المستحيل لإنقاذ أعز الناس عليه، ولكن... ولكن هيهات! لقد ماتت! واحتلكت الدنيا في عيني أرفيوس التعس، وأجدبت قيثارته من ألحان المرح، واستروحت إلى البكاء والأنين. فيا رحمتاه لمن ينصت إليها ويصغي لها، زفرات حارة تصعدها أوتارها، وأنات مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها!

وأرفيوس، مع ذلك منزو عن العالم، عزوف عن الناس، مستغرق في وحدته القاسية، يفكر في يوريديس.

وصمم على ألا يفقدها كما يفقد الناس أحباءهم. بل لابد من رحلة طويلة إلى الدار الآخرة.. إلى هيدز.. حيث إله الموتى بلوتو، فيضرع إليه أن يرد عليه زوجته التي لا حياة له إلا بها.

فكرة غريبة، وتصميم عجيب، رجل من دار الفناء، له جسم، وفيه نفس تتردد من أخمصيه إلى ذؤابة رأسه، كيف ينفذ إلى دار الموتى وعالم الأرواح، ومملكة الظلال والأشباح؟!

لكنه أمل ملأ قلبه على كل حال، وها هو ذا يحمل قيثارته، ويبدأ رحلته، ولا يدري إلى أين؟

ضرب في الآفاق على غير هدى، وذرع الأرجاء في ضلال وحيرة، حتى رثت له الآلهة، فرشدته، وأنارت له سبيله، فاهتدى إلى ضفاف ستيكس(*) ذي الزبد، حيث وقف شارون النوتي الجبار، الذي يحمل أرواح الموتى في زورقه، يعبر بها أنها الجحيم للقاء بلوتو العظيم...

وصاح شارون صيحة راجفة حينما لمح أرفيوس، وزمجر قائلاً: "يا ابن العدم، يا سليل الفناء، يا من له تفض روحه بعد، ماذا جاء بك إلى هنا، ولا تزال تتعثر في برد حياتك الرث، وتتكفأ في قيد دنياك الوبيلة، عد من حيث أتيت، وإلا فوحق بلوتو المتعال لأسحقن عظامك، ولا قذفن بك إلى ستيكس، فيطويك اليم وتشويك الحمم.. عد.. عد.. عد أقول لك.. وي. وكأنك لا تسمع!!

ولكن أرفيوس يثبت غير هياب، ويتناول قيثارته غير وجل، ثم يعزف لحناً من ألحانه الباكية فيزلزل به أركان شارون!

شارون! هذا الفظ. غليظ القلب، أقسى حراس جهنم، يذوب رقة ويمتلئ حناناً لما رأى وما سمع، فيهرول إلى أرفيوس مستميحاً معتذراً عما بدر منه من سوء اللقاء، وعبارات البذاء، ويسأله في لين ورفق عن حاجته فيجيب: "لا شيء إلا لقاء بلوتو!"

(*) ستيكس هو النهر الكبير الذي يحيط بالدار الآخرة "هيدز" في الميثولوجيا، وهو يحيط كذلك بالأنهر التي تنحصر بينها جهنم وسيجيء ذكرها.

فيسأله شارون: "وكيف، وهذا بدنك لا تحتمل زفير الجحيم؟"

فيجيب أرفيوس: "لا عليك ما دامت هذه– ويشير إلى القيثارة– بيميني"

فيقول شارون: "يا صاحبي أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم، وإني مخلص لك أمين، إنك غض الأهاب، موفور الشباب، وإن جهنم لا تبقي ولا تذر، وإنها أبداً ترمي بشرر كالقصر، وإني أمحضك نصحاً علمتني موسيقاك كيف أمحضك إياه، واستنقذك من عذاب مقيم... ألا فلتفكر فيما أنت مقدم عليه، فإن من دونه مهالك، وإن من دونه أنكالاً وأهوالاً..."

وتبسم أرفيوس بسمة حزينة، كانت رداً صامتاً على ما حذر شارون، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغني أغنياته.

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة، حتى تتحدر الدموع من عيني شارون، ويتقدم إليه معتذراً، فيحمله في الزورق، ويجوس به عباب ستيكس، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس إلى تغيظ الموج وتلاطمه، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح، فيقول: إنك، وأنت من أنت، من فوقه، سبب هياجه اصطخابه، ولو خلي بينك وبينه لما أنجاك منه شيء حتى تكون في أعماقه!!" ولكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة، ويتناول قيثارته فيوقع إحدى أناته المشجية، فيهدأ ستيكس الصاخب، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه!..

وتطول الرحلة، ويعبران (أشيرون) نهر العدم، و(ليث) نهر النسيان، و(كوكيتوس) نهر الآلام، و(فليجتون) نهر الحمم واللهب، ويصلان آخر الأمر إلى (هيدز)– دار الموتى– ومملكة بلوتو، بعد عقبات وأهوال تغلبت عليها جميعاً قيثارة أرفيوس، بألحانها الرقيقة، وأنغامها الباكية..

وتبدأ من هذا الشاطئ الأخير رحلة شاقة في ظلام دامس وحلك شديد، في مسالك ملتوية، وشعاب متداخلة، لا تجدي معها موسيقى أرفيوس فتيلاً، وهنا يبدو

له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يوريديس، كيف حملها شارون في زورقه، وكيف عبر بها هذه الفجاج إلى المقر الأخير، وهل كانت تبكي؟ أم كانت راضية بالقضاء الذي فصلها من أحب القلوب، وأقصاها عن أعز الناس؟ وهل حدثته عن الشاب أرفيوس؟ أم كانت في شغل عن كل شيء بما هي فيه؟ وهل كل روح من أرواح الموتى تستغرق كل هذا الزمن في عبور أنهار هيدز وفيافيها؟ وهل تألمت يوريديس حين كانت تعبرها؟...

وكان شارون يجيب عن هذه الأسئلة المتتابعة إجابة مستفيضة حتى وصلا إلى بوابة كبيرة الحجم تصل إلى قصر بلوتو، ولكن كلباً ضارياً بادي النواجذ بارز الأنياب كان رابضاً عندها، فلما لمح أرفيوس، وهو من غير الأموات هاج وماج، وتوثب يريد البطش بهذا اللاجئ الممنوع..!

وتنبه أرفيوس، فحرك أوتار القيثارة، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه، فثاب الكلب وهدأ، وبعد أن أقعى قليلاً، تقدم إلى الضيف الحبيب يلحس قدميه، ويتمسح به، ويا للموسيقى!

ثم هذا عرش بلوتو، وإلى جانبه زوجته ربة الربيع، برسيفون(*) كسيرة القلب مهيضة الجناح، تعلو أساريرها عبوسة قاتمة، وتجثم على قلبها لوعة دائمة. يا لبرسيفون! ويا لهذا المنفى السحيق!

ولشد ما دهش بلوتو حين بصر بهذا المخلوق الذي استطاع أن ينفذ إلى هيدز، وفيه رمق من حياة!!

وقبل أن ينبس بلوتو، جثا أرفيوس لدى قاعدة العرش، وطبع على الأرض قبلة كلها احترام ووقار، ثم تناول قيثارته، وطفق يتغنى قصته المشجية، يرسلها خلل أنغامه

(*) برسيفون، أو بروزربين كما يسميها الرومان، هي ربة الربيع التي اختطفها بلوتو لتؤنسه في وحشته في هيدز، بعد إذ رفضت جميع الربات مقاسمته ملكه.

الحزينة، وملء ألحانه اليتيمة.. حتى أتمها.

وكانت الموسيقى الممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامي، قد تغلغلت في السويداء من قلبي الزوجين، وكانت الرنات، الممتزجة بالأنات، والهديل ليس مثله هديل، قد أحدث أثره في نفسيهما، حتى أن دمعة مترقرقة شوهدت تنسكب على خد برسيفون!

وفي الحق، لقد هاجت قصة يوريديس شجون برسيفون، لما لحظت فيها من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة، في هذا الملك البغيض!

وانزعج بلوتو لمجرد وسواس لج في صدره، لما شاهد من تأثر زوجته، وانسكاب هذه العبرة الحزينة على خدها الشاحب، حتى لقد خيل إليه أن شياطين الحب قد قفزت من فم أرفيوس الخبيث، ومن موسيقاه الشاجنة، إلى قلبها الغض الصغير!

وقال بلوتو: "انهض أيها الشاب" فوحق أورينوس(*) لقد كدت تكون من الهالكين، لولا قصتك الباكية، وموسيقاك المبللة بالدموع. والآن، ماذا جاء بك إلى هنا؟ وما الذي تطلب أن ينتهي إليك من إحسان بلوتو؟"

فركع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة، ثم قال: "مولاي! يوريديس يا مولاي؟ تأمر فتعود أدراجها معي إلى الحياة الدنيا!"

فأجاب بلوتو: "طلبت المحال أيها العبد، ولكن بلوتو الكريم، لن يرد رجية بائس مثلك... لك ما سألت، وستعود يوريديس معك، ولكن على شريطة واحدة، ألا تراها حتى تخرج من هيدز. إنها ستتبعك، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى!"

وركع أرفيوس ركعة الشكر، ثم قال: "سأنفذ مشيئة مولاي"

(*) أورينوس هي المساء، أبو الآلهة، في الميثولوجيا.

وأمر بلوتو فأحضرت روح يوريديس، وبدأت الرحلة إلى الدار الأولى في ظلمات بعضها فوق بعض، والحبيبان يدلجان خبباً.

وكان قلب أرفيوس يدق.. ويدق.

وأنهما ليكادان يبلغان العدوة الأخيرة من نهر ستيكس، حتى يوجس أرفيوس خيفة، ويظن– ويا شر ما يظن– أن يوريديس قد ضلت سبيلها من ورائه، فينسى شرط بلوتو، ويلتفت فجأة خلفه، ليرى أنها ما تنفك تتبعه. ولكن يا للهول! لقد رأى يوريديس باسطة ذراعيها إليه، كمن يتلمس طريقه في الظلام، وحين تراه يلتفت إليها، فيخل بالشرط الذي عاهد ربها عليه، تنثني من لدنه راجعة أدراجها إلى هيدز... متمتمة في صوت ضعيف خافت: "وداعاً يا أرفيوس"! يا حبيبي أرفيوس.. وداعاً...". فيصرخ المسكين صرخة يكون معها في هذه الحياة الدنيا، حياة الشقاء والآلام!

ويظل على شاطئ ستيكس سبعة أيام مفجعاً محزوناً.. يحاول عبثاً أن يعود إلى هيدز.. ولكن هيهات!

ويدخل الدنيا محطم القلب، خفق الأحشاء، موهون القوى... لا يطيب له عيش، ولا يسيغ لذة من لذائذها، ويتخذ مأواه في شعاب جبل تزمزم الرياح في جنباته، وتزمجر الوحوش في غيرانه، وتدوي البواشق في قننه، ويكون كل أولئك خير صحابه، ويا ما أعز الرفاق!

وتلقاه نسوة ممن اعتدن التخلف إليه في أيامه المواضي، فيحتلن علي ليعزف لهن من ألحانه، ولكنه يعزف عنهن ويشيح، ثم يفر منهن، فيقتفين أثره، فيمعن في الفرار، فيتضايقن، ويصمينه بسهامهن، ثم يرجمنه بالحصى المسومة، والحجارة الثقال، حتى يموت!

ويسمعنه إذ هو يجود بروحه يقول: "يوريديس... يوريديس!"

فتردد الأصداء نداءه الحزين: "يوريديس.. يوريديس!"

ولا تزال الأشجار والأطيار تهتف إلى اليوم هتاف موسيقارها المغبون المحزون: "يوريديس.. يوريديس!".

وانطلقت روحه البريئة تعبر بدورها ستيكس وأشيرون، وليث وكوكيتوس، وفليجتون... فيتلقاه شارون الجبار باسماً هاشاً محيياً... ويجلسان معاً في الزورق، يقصان ذكريات الماضي... القريب! ويتلقاه الكلب عند البوابة، فيهرول إليه، ويتمسح به، وفاء وذكرى!

ويتلقاه بلوتو كذلك، فيهنئه بالعود... إذ كان العود أحمد!!

أما يوريديس...!

فلشد ما يكون فرحها بعودة حبيبها!

مأساة أم

رآها زيوس تقطف الزهر وتتيه في حدائق السوسن، وتنشد مع البلابل ألحان الشباب، فتنصت الطبيعة وتتفتح آذان الورد، وتحملق أحداق النرجس ترى إلى كليستو الرقيقة رقة النسيم، الحلوة كأنها حلم جميل في أجفان عاشق، الموسيقية التي يستطيل نغمها حتى يبلغ السماء، ويتسع حتى يغمر الكون، فيثوي بكل أذن، ويستقر في كل قلب، ويخفق مع نبضات المحبين، وينسكب ذوياً من دموع المدنفين المعذبين!

رآها زيوس فجن بها! وبالرغم مما أعطى على نفسه من مواثيق لزوجه حيرا ألا يصبو إلى أنثى غير أزواجه اللائي كن إلى هذه اللحظة ستاً أو أكثر من ست، فقد ذهب يقتفي أثر كليستو، ويرهف سمعه ليملأ بموسيقاها قلبه..

كانت تمشي بين صفين من أعواد الزنبق، تنمقهما ورود ورياحين، وكانت تنثني وتميس، فيهتز الروض وينتشي الزهر، وكلما ترنمت بأغنية من أغنياتها الساحرة، رددت الأزهار والأطيار ما تغنت، كأن كل شيء في تلك الطبيعة الرائعة الفنانة عضو في فرقة كليستو الموسيقية.

وجلست تتفيأ ظل خوخة وارفة كانت تداعبها فتساقط عليها من ثمرها الجني، ورطبها الشهي، فتتذوقه كليستو وهي تبتسم.

وأسكر النسيم الخمري عينيها الساجيتين، فاستسلمت للكرى الطارئ، والغفوة العارضة، وتمددت على البساط السندسي ليحسر الهواء عن ساقيها ولتكون فتنة يضل في تيهها قلب زيوس، وتضرب في بيدائها نفسه... على غير هدى!!...

وبدا للإله الأكبر أن يرتد فتى موفور الشباب ريان الإهاب، ثم يسوق آلهة

الأحلام فترقص في أجفان كليستو، تبهرج لها من الرؤى ما يشب في نفسها رغائب الهوى ولذائذ الحب، ويثير فيها حرارة الحياة.

ونام الخبيث إلى جانبها، وطفق يروح على وجهها ثم نثر ذراعه على جيدها الناهد، وراح يضغط قليلاً.. قليلاً..

ولقد فعلت الأحلام الحلوة فعلها في قلب كليستو، فلما استيقظت، ووجدت نفسها في حضن هذا الشاب اليافع الجميل، لم تنفر، بل خجلت خجلة زادتها جمالاً، وضاعفت سحرها، وفتونها، وفترت أهدابها فاسترخت، وفنيت في حبيبها المفاجئ... وفني هو الآخر فيها.

* * *

وجاءها المخاض!

ووضعت غلاماً أحلى من القبلة الحارة على الثغر الحبيب، وأعذب من ابتسامة الزهرة طلها الندى.

فلما زارها زيوس وبشرت به، اهتز الإله الأكبر وشاعت الكبرياء في أعطافه، فباركه، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة، ثم زف إلى كليستو تلك البشرى التي ظل يخفيها عنها طوال حبه لها، وذلك حينما أشار إلى ابنه بيمينه البيضاء هاتفاً:

– "بوركت يا أركس! يا أجمل أطفال الأولمب!"

وقد اضطربت الأم الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت إلى حبيبها كأنها تستريب، وقالت له:

– "أجمل أطفال الأولمب؟ إذن من أنت أيها الحبيب؟"

– "بشراك يا كليستو! فأنا ربك وزوجك وحبيبك زيوس!"

ولم يسع كليستو إلا أن تسجد لربها وهي ترتعد من الخوف، فقال لها:

– "انهضي! انهضي! ماذا تصنعين يا حبيبة؟ انهضي فقد رسمت ابننا آركس إلهاً، فاكفليه حتى يشب، وإياك أن تراكما حيرا فتسحقكما.."

وقبل الغلام وقبل الأم.. وغاب في الأفق..

* * *

وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة، فإذا خرجت للصيد في الغابات القريبة، أقامت عليه حارسين من كلابها الكواسر، يكفي أحدهما لتشتيت شمال جيش بأكمله.. وكانت تحمل إليه أثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة، حتى إذا اشتد ساعده، علمته الرماية وألعاب الفروسية، مستعينة في ذلك بالسنتور العظيم، شيرون، مؤدب هرقل ومدربه.

وذاعت الأنباء في دولة الأولمب، أن لزيوس خليلة يختلف إليها في الفينة بعد الفينة، وأنه أولدها طفلاً بارع الحسن، وسيماً قسيماً، يكاد يكون في مستقبله هرقلاً آخر، يضارع هذا الهرقل الهائل، ابن ألكمين الذي كان يدوخ أبطال العالم في ذلك الوقت..

وقد مادت الأرض بحيرا حين علمت هذه الأنباء، لأنها كانت تغار من أزواج زيوس، وتخشى أن تلد إحداهن بطلاً يكسف شمس ولديها مارس وفلكان. وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشدها، فكم نثرت في طريقه شوكاً، وكم فجرت تحت قدميه ينابيع من نار. أفلا يحزنها إذن أن يبرز لها خصم آخر يغطش حياتها، ويراوحها بالأشجان والآلام!!

وكانت كليستو تصدح في أصيل يوم من أيام الربيع، فتستجيب لها الغابة، ويردد غناءها الطير، ويمشي في أثرها الدوح، وتهتز الأرض والسماء، وكانت حيرا قد

عرفت أوصافها من شيرون، مدرب فتاها أركس فلما سمعتها تغني، ويمشي وراءها العالم بأسره، عرفت أنها هي!!

وكاد قلب حيرا يصبو إلى كليستو، مسحوراً بروعة الغناء، مأخوذاً بترجيع البلابل.. حتى لكانت تخال الورد نفسه يغني معها!! وكادت بذلك تنسى غيظها، بل كادت تنخرط في هذا الحشد الموسيقي الذي يصغي لكليستو ويستجيب لألحانها! ولكن!..

لقد ذكرت ابنيها مارس وفلكان، وذكرت كيف صرعهما هرقل في حفل الأولمب، حتى لكانا ضحكة كل راء، فنسيت الغناء وأصمت أذنيها، وغرفت من ماء قريب بيديها غرفة جعلت تتمتم عليها بتعاويذ سحرية، ورقى غيبية، ثم صاحت بالفتاة فسمرت مكانها دهشة مأخوذة، فنثرت حيرا في وجهها الماء وهي تقول: "شاهت دبة! شاهت دبة!"... وأسفاه..

لقد أحست كليستو في ذراعيها العاجيتين بخدر شديد ثم نظرت فرأت شعراً خشناً ينمو بسرعة فيغطي جسمها البض الجميل كله!

وأحست أظافر طويلة غليظة تنبت في أطارف أصابعها ومخالب مرعبة تبرز من أصابع رجليها المعبودتين!

وشعرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول، ثم يتغير ويتحول حتى ركب فيه أنف كبير أسود، وفم مغبر في منتهى القبح، يسيل على جنباته لعاب شائه كريه!

وخيل لها أن ذنباً ينبت وراءها، فتحسسته فأيقنت أنه ذيل خبيث.. ما في ذلك ريب!

وفزعت كليستو، فأرادت أن تصبح تستنصر الغابة، ولكن.. يا للهول! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات، وتعوي كما تعوي الذئاب!!

وانخلع قلب الفتاة فحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر، ولكنها لم تستطع أن تنهض على قدمين، بل انطلقت تعدو على أربع كأنها بهيمة من بهائم الأرض!

وأصابتها حيرا بظمأ كاد يصهر حلقها، فذهبت إلى غدير ترتوي، ولما انحنت ترشف الماء رأت صورتها المفزعة تتقلب في صفحته، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد، بل أنها قد انسحرت فصارت دبة قبيحة قذرة ذات أنف طويل أسود، وعينين رجراجتين تقدحان الشرر.

وانطلقت في الغابة تعدو وتعدو، وتتوارى بين الأشجار حتى لا يراها أحد، وكانت الحيوانات– حتى ضواريها– تفزع منها كلما مرت بها، وهكذا شاءت المقادير الظالمة ألا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الموحشة، التي كانت قبل لحظات ترقص بين يديها.. وتنشد تغني!!

وضربت في القفار والفلوات، مؤثرة ألا تعود إلى ابنها الحبيب أركس فتفزعه، وكانت تختلف إلى الغابة، فإذا مر بها بعض أصدقائها القدامى عرفتهم ثم تتوارى عنهم، وفي نفسها هموم وحسرات..

خمس عشرة سنة!!

خمس عشرة سنة قضتها كليستو التاعسة في هذا الشقاء الطويل، لا تمر بها هنيهة دون أن تفكر في ابنها وتبكي.. وتفكر في آمالها.. وتبكي، وتفكر في ذكريات شبابها... وتبكي، وتذكر الموسيقى والغناء.. وتبكي!!

واشتعل قلبها شوقاً إلى أركس، فجلست إلى أيكة حزينة تتناجى:

"ترى! ماذا تصنع الآن يا بني؟ ألا تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الأولمب؟ هل أنت مريض يا أركس؟ هل في جنبك جرح يتفجر دماً لبعد أمك عنك، كهذا الجرح الذي تنزف منه نفسي، وتنسكب

حياتي؟ وهل إذا أصابك ضر، فأنت واجد قلباً يحنو عليك ويترفق بك.. ويرعاك؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرفيق يا ترى؟ أي بني!. يا ولدي!! يا حبة القلب يا أركس!!"

وتبكي البائسة بكاء يذيب الصخر، ويحرق فحمة الليل، ويزلزل أركان الكهف المظلم الذي تعودت قضاء لياليها فيه..

* * *

أما أركس فكان هو الآخر يبكي أمه، حتى استطاع مؤدبه شيرون أن يفل بنصائحه غرب حزنه، ويطفئ بمواعظه نار أساه، فنسي، أو تسلى.. أو تناسى..

اشتد ساعده، وثقف الرماية حتى ما يطيش له سهم، ولا تخيب له رمية، وأحبه شيرون من سويدائه، ولازمه طويلاً، حتى كانت حرب السنتور فودعه، وعاش الفتى وحيداً.. يحيا حياة هي بحياة أمه في شبابها الأول أشبه، يختلف إلى الغابة يصيد منها الثعالب، وإلى البرية يرمي فيها الوعول، ويعود مع الغروب مثقلاً بالصيد.

وفيما هو يرتاد الغابة في ضحى يوم شديد القيظ، إذا أمه المسكينة تلمحه فجأة، وتعرف فيه ابنها، وأعز الناس عليها!.. فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لا تنبس ولا تحير!

فهل عرفت هذه التماثيل المرمرية التي تقف صامتة كالألغاز في المتاحف ودور الآثار؟ لقد كانت كليستو أشد منها تحجراً عندما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال!

ولقد خشيت أن تزعجه بوجودها، لأن الصيادين لا يرهبون من ضواري الغاب شيئاً كما يرهبون الدباب، فحاولت أن تختبئ وراء شجرة أو نحوها، ولكن.. هيهات! فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاها من الحيرة والارتباك!

والتفت أركس ففزع أيما فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه، وهو غير متهيئ للرماية، فارتبك لحظة، ثم تناول قوسه بيد مرتجفة، وأصابع مرتعشة.. ولكنه، ويا للعجب! أحس ببريق غريب ينبعث من عيني الدبة، وشعر بحنان وعطف يتحركان في صميمه من أجلها، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع، وضاعف دهشته أن الدبة سمرت مكانها دون حراك، وأن دموعاً حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين جعلتا ترنوان إليه، وما تريمان عنه!!

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر على الكلام فتقص حكايتها على ابنها، بيد أنها خافت أن تضاعف انزعاجه بصراخها الحيواني المخيف.. فصمتت.. وتكلمت عبراتها!.. ثم..

سدد أركس سهمه إلى رأس أمه، وكاد السهم المميت يمرق فيودي بحياة أعز الأمهات.. لولا أن زيوس.. الإله الذي طال رقاده!. كان يسمع في تلك الآونة ويرى، ولولا أن تحركت في قلبه الرحمة هذه المرة، فلم يبال التدخل في سحر زوجته- حيرا الخبيثة- فأطلق لسان كليستو، وصاحت فجأة:

"أركس.. ابني العزيز.. أنا هي.. أنا هي أمك.."

وسقطت القوس من يد أركس.. وكانت مفاجأة مشجية! وظل الفتى يرمق الدبة عن كثب وهو لا يصدق! وقال لها:

- "ماذا تقولين؟ أدبة تتكلم؟ أم من؟.. من أنت؟"

- "أنا هي يا بني.. أنا كليستو أمك البائسة.. فعلت بي حيرا ما ترى.. خمسة عشر عاماً يا أركس وأنا أتعذب وأبكي من أجلك في هذه الغابة المتوحشة!.."

ولم ينبس أركس ببنت شفة، بل تقدم مهدماً من الهم، فعانق أمه.. ووقفا لحظة يبكيان!!

ثم تدفق حنان السماء، وأمطرت رحمة الآلهة، وأمر زيوس فحملا إلى الأولمب.. أركس وأمه، ومن ثم أطلقهما رب الأرباب في السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها، لا نزال نراهما إلى اليوم، ولا نزال نحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة إذ نسمي الأم "الدب الأكبر" ونسمي الابن، أركس الحبيب "الدب الأصغر".. ولا تزال حيرا القاسية تنظر إليهما وتتميز من الغيظ(*).

(*) أورد الأستاذ جريس هـ. كيفر في كتابه الجميل عن أساطير اليونان زيادة في آخر هذه الأسطورة لم يأت بها غيره، بل لم يشر إليها أحد من مؤرخي الأساطير. والزيادة- إذا صدق حدسنا- هي من ابتكار الأستاذ، ولذا لم نر أن تكمل بها قصتنا.

يوم قيامة وطيش فيتون

عاد الفتى الساذج فيتون إلى أمه الحسناء الهيفاء كليمين، بعينين مغرورقتين، ونفس مكلومة، وفؤاد خافق متصدع، فجرى بينهما هذا الحديث:

– ما لك يا حبيبي! لماذا تبكي؟

– .. ؟ ..

– لا. لا.. فيتون يبكي؟ هذا عجيب! أيكون أبوك أبوللو وتبكي؟!

– أبوللو أبي؟ كذب، كذب!

– كذب؟ وكيف يا فيتون! أمك كذابة؟

– لا. لا، عفواً يا أماه! أنت لا تكذبين، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بي!

– ولم أسخر بك يا بني؟

– الأولاد في المدرسة يغمزونني في أبي، وكلما حلفت لهم أن أبي أبوللو ضحكوا!

– دعهم يضحكوا يا فيتون. ماذا يضيرك؟

– يضيرني أنني لم يعد لي وجه أريق ماءه بينهم، لا بد إذا كان أبوللو أبي أن ألقاه.

– تلقى أبوللو؟

– ولم لا؟ أليس كل الأبناء يلقون آباءهم؟ فلم لا ألقى أبي؟ أأنا بدع من الناس؟

– لست بدعاً، ولكن أبوللو في بلاد بعيدة.. إنه في الهند!

– ولم لا أذهب إلى الهند لأرى أبي؟ صفي لي الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه.

– اذهب إلى الأرض التي تشرق من أفقها ذكاء. فهناك ترى أباك.

وذهب إلى الهند التي تقع في مشرق الشمس مباشرة، وكان عند شاطئ المحيط قصر باذخ منيف، لا يبلغ البصر مداه، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره.. وكان مع ذاك قائماً على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لألاء. وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلمع، ويكاد سناه يذهب بالأبصار، أما أبوابه فصيغت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم، وافتن فلكان فصور فوق الجدران بالرسم البارز الأرض والبحر والسماء بما فيها من قطان، فأقام في الأرض غابها وأدغالها ومدنها وأنهارها وجبالها ووديانها.. حتى آلهتها. وأبرز في البحر عرائسه المائسات الفاتنات، فجعل منهن سابحات يتواثبن فوق الموج، وجالسات على النؤى يمشطن شعورهن الداكنة التي تحكي خضرة البحر، وراكبات على ظهور السمك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن.. وجعلهن ذوات صور متشابهات وغير متشابهات، دليلاً على حذقه وجليل قدرته، وجعل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجها الاثني عشر، بحيث جعل منها ستة إلى اليمين، ومثلها إلى اليسار.. خلق فلكان، ومن أحسن من فلكان خلقاً(*)؟!

وهكذا كان قصر الشمس آية من آيات الفن عجباً، ومع هذه الأبهة البالغة والعظمة الأخاذة، فقد تقدم فيتون غير هياب، ودخل في غير وجل، وكان يلمح اللمحة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة، ثم يسلك سبيله قدماً حتى كان في البهو الأعظم الذي يستوي في صدره أبوه، على عرش ممرد ناصع، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة، تبهر الأنظار، وتخسي الأبصار. وسار الفتى مسافة قليلة، ثم وقف مكانه عشياً من شدة الخطف والايماض، ولم يدر أيان يذهب، وكان أبوه متشحاً

(*) ليذكر القارئ أن القصة أسطورة.

بوشاح فضفاض أرجواني، وعن يمينه وعن يساره وقفت الأيام والشهور والسنون، ثم الساعات في صفوف منظومة متلاحقة، ثم وقف الربيع– وتمثله هنا امرأة– وفوق رأسه إكليل جميل من الغار والزهر، ومن بعده وقف الصيف، وقد نضا جيب قميصه عن صدره، وقبض على حزمة من سنابل القمح الناضجة بيمينه، ثم هم الخريف متهالكاً على نفسه، وعلى قدميه أثارات من عصير العنب.. أما الشتاء، فقد بدا شيخاً وقوراً جلل الشيب رأسه، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع.

وقد لمح أبوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه، وقد خطفت الأضواء بصره، وأخذه المنظر العجب الذي سحره عن نفسه، فيهتف به ويباركه ويقول:

– فيتون! فيم قدمت يا بني! لأمر ذي بال، ليس من ذاك بد؟

– أوه! يا نور السموات والأرض يا فوبوس(*)! يا أبي إن أذنت لي أناديك بهذا النداء! إن كنت حقاً ابنك فزودني ببرهان أقدمه للناس حين أقول إني أنا ابن أبوللو.

– برهان؟

– أجل هب لي من لدنك برهاناً يثبت أبوتك لي، فلقد استهزأ بي التلاميذ، ففضحوني في بنوتي لك لا بد من دليل، هل تسمع؟ لا بد من دليل!

– لا عليك يا بني! لك ما أردت.. على أنه كان ينبغي أن تصدق كل ما قالت لك أمك، وأنا من جهتي لست أنكرك، فأنت ابني وأنا والدك، والآن سل ما شئت فإني مانحك أياً ما تريد.

– صحيح يا أبي؟

– أو لا تصدق ما أقول؟

(*) أحد أسماء أبوللو.

– بلى، ولكن ليطمئن قلبي!

– صحيح يا بني، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسة التي يحلف بها الآلهة!

فيلتفت فيتون حوله ليرى البحيرة، ولكنه لا يجد لها أثراً..

– وأين هي تلك البحيرة يا أبتاه!

– ولد ظريف يا فيتون! أنا ما رأيتها قط، ولكنا نحلف بها في كل أمر جلل يا بني!

– إذن هب لي أن أسوق محفة الشمس يوماً واحداً بدلاً منك.

– وي! فيتون! أي طلب هذا؟

– لا بد!

– محال يا ولدي! أنت حدث، ثم أنت بشري من بني الموتى! سل ملء الأرض ذهباً أمنحك ما تريد! أما هذا، فلا!

– كلا، كلا.. لا بد أن أسوق محفة الشمس من المشرق إلى المغرب ليراني سفهاء التلاميذ، وليتأكدوا أنني ابن أبوللو!!

– إنها ستحرقك وتحرق التلاميذ إخوانك قبل أن يروك!

– لا.. لن تحرقني، أنت قادر على أن تجعلني احتمل كل شيء!.. ألست إلهاً؟..

– بلى، ولكن...

– لكن ماذا؟ لا بد، لا بد، محال أن أسألك شيئاً آخر!

– يا بني، إن هذا ليس في طوقك، إنك ضعيف صغير، والعمل الذي تطلب أن تتولاه شاق حتى على الآلهة، إني أقوم به والرعب يملأ قلبي، وأنا، من أنا يا فيتون.. إن سيد الأولمب نفسه، الإله الأكبر زيوس، جل سناؤه، وتقدست أسماؤه، لا يستطيع أن يسوق عربتي الملتهبة ذات اللظى يوماً أو بعض يوم، فما بالك أنت؟ إن الثلث الأول من الطريق صعب المرتقى لأنه يميل قليلاً قليلا عن خط العمود، وخيلي ترقى مزالفه في صعوبة ليس بعدها صعوبة، والثلث الثاني عالٍ شديد العلو، لأنه يرتفع فوق قمة العالم، حتى لأجزع أنا نفسي من أن أنظر إلى أسفل تقية للدوار أن يأخذ في رأسي حين أرى إلى البحر المتمرد والبطاح الشاسعة والجبال الشم تزدلف من تحتي، أما الثلث الأخير، فحدور شاق كمهاوي الجبل إذا وقفت عليه فوق شعفته، ولذا فهو يقتضي الحذر وحصر البصر، حتى أن تاتيز الواقف في نهايته ليتلقاني، يرتعد من الخوف عليّ، والرثاء لي، خشية أن أتردى في هاوية اللانهاية هذه، ولا تنس السماء التي تجري فوقي لمستقر لها، بكل ما فيها من كواكب وأجرام، فإذا غفلت لحظة، أو أخطأت قيادة العربة، جرفتني في دورتها إلى حيث لا أعلم أين تذهب أو تستقر بي. ثم تدبر معي قليلا يا فيتون، إذا أنا سمحت لك بقيادة العربة، فماذا يصيبك من الهلع حين تنظر إلى السفل فترى الأرض تلف، والسباع تهمهم في الأدغال، والناس يكفون المدن، والآلهة تطل من قصور الأثير، والأشباح تسري حواليك كالسمادير؟ ماذا من الروع يعتريك يا ولدي؟ هل تستطيع أن تكبح جماح الخيل أو تملك ألا يفلت العنان منك؟ إنك ستمر بين قرني الثور أمام الحوت، وعلى مقربة من فكي العقرب وذراعي السرطان. يا بني! هل تستطيع أن تقود الخيل التي تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدنى الدائبة؟ اختر لنفسك يا بني ولا تجعل الناس أن يقولوا أهلكه أبوه".

وتشبث فيتون، وركب رأسه، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة، فلم يسع أبوللو إلا أن ينطلق به حيث عربة الشمس! العربة العظيمة المطهمة، المصنوعة كلها من الذهب الخالص، وقليل من الفضة المزركشة باللآلئ والجوهر، وأحجار الماس التي تعكس

أشعة الشمس جميعاً فتضاعف أضواءها، وتزيد كثيراً في لآلائها.

وتقدمت أورورا ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق، ونضرت بالورد طريق أبوللو، ثم أخذت النجوم تثب كالحمائم قبل المغرب، وفي أثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء..

وتلفت أبوللو إلى الساعات المنتشرة عن جانبيه، فأمرهن أن يسرجن الخيل، فأطعن، وقصدن إلى الإسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس، فوضعن في أفواهها اللجم، وأسرجنها بكامل عدتها..

وتناول أبوللو وجه ولده فنضحه بطيوب إلهية، وضمخه بدهن كريم، ثم قطر في عينيه قطرات من ماء أولمب، كي يقوى الفتى على تحمل الحرارة الفائقة، والصبر لضوء الشمس القوي، ثم وضع على رأسه الصغير هالة النور الربانية، وأشار إليه فاستوى على العربة العظمى التي تجر الشمس، فتنير أقطار السموات والأرض، وقال يوصيه:

– "أي بني! ها أنت قد استويت على عربة أبيك التي ما قادها من قبل أحد غيره، ولا يقدر عليها أحد سواه! أي بني فاشدد إليك أعنة الخيل، وتجنب أن تلهبها بهذا السوط، فهي قد مرنت على الطريق، وهي لا تبطئ حتى تحتاج إلى أن تساط. أي بني ولا تنحرف عن شمالك أبداً، وظل منتهجاً سبيل الاستواء الذي هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس، واحذر أن تعلو إلى الدائرة العليا أو أن تسفل إلى الدائرة السفلى، وسترى آثار رحلاتي من قبل، فسر على دربها تصل إن شاء الله. أي بني ولا ترتق معارج السموات فتصيب مساكن الآلهة، ولا تهو قريباً من الأرض فتجعل كل ما فيها هشيماً جرزاً، بل خذ الطريق الوسطى أبداً، فإن خير الأمور أوسطها.. فإذا أفلتت الأزمة من يديك، فظل حيث أنت، ولا تذهب مذاهب شتى في رحب السماء. وسأتولى أنا بعد ذلك إنارة الأرض والسموات. أي بني وما دمت

قد اخترت لنفسك برغمي، فلا أقل من تعي نصيحتي والسلام عليك".

ورد فيتون على أبيه السلام.. وانطلق من أبواب المشرق، وطفقت الخيل الصافنات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب، وتسابق أنفاس النسيم التي تهب هي الأخرى رخاء من أبواب المشرق..

وعجبت الخيل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذي لا عهد لها به، وعجبت أكثر حين أحست بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذي ليس له صبرة(*) تثبت به في مهب الأعاصير.

وجمحت الخيل.. وانطلقت في غير طريقها المعهود.. ولأول مرة ارتفعت حتى كادت تلامس الدبين الأكبر والأصغر، فثار ثائرهما من لفح الحر، ولأول مرة كذلك تحرك الثعبان المتحوي فوق نجم الشمال حين أحس الدفء فنفث سمه الزعاف، وفرت من طريقه الكواكب.. ونظر فيتون تحته، فرأى الأرض تلف كالخذروف فريع قلبه، وزلزت نفسه، وسقطت من يديه أعنة الخيل فجرت به في السفل حتى اقتربت من الأرض.. ونظر وراءه.. فرأى أنه لم يقطع من الثلث الأول إلا أقله، ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطرق وأوعره، فزادت حيرته، وأسقط في يده، وترك كل شيء للقضاء والقدر.. وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد.. وحدث أن ارتفعت هذه فجأة، حتى كانت قاب قوسين من فكي العقرب، ذلك الهولة المخيف الذي أوشك أن يبتلع العربة بمن فيها.. وشدهت ديانا ربة القمر حين رأت عربة أخيها تتخبط في الآفاق، وتصطدم بالكواكب، فتحدث الشهب، وتحرق العوالم السماوية: "ترى ماذا أصاب أبوللو؟ مسكين! لا بد أنه نام. على كل حال سيستيقظ!" ولكن العربة هبطت فجأة حتى صارت في سماء الأرض، وحتى صارت الأرض منها على مدى رمية سهم.. فما هي إلا لحظات حتى شبت الحرائق في كل الأرجاء.. ها هي ذي الغابات العظيمة

(*) الصبرة والصبارة: الحجر الذي يضعه الملاح في قعر زورقه حتى لا يميل فيغرق، ويسميه العوام (الصابورة).

تشتعل.. وها هي ذي ألسن النيران ترقص في كل فج.. وها هي ذي الوحوش تجري هنا وهناك ثم تسقط في كل البقاع.. والمدن! المدن العامرة الآهلة.. إنها تحترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان.. أما الشباب! واأسفاه على الشباب! إنهم يجرون كالجان إلى البحار والمحيطات والأنهار والينابيع! وها هم أولاء يقذفون بأنفسهم فيها. ولكن! واأسفاه: إن مياه البحار والمحيطات والأنهار والينابيع تغلي وتفور، ويعب عبابها بالحمم، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار! لقد بادت أمم، واختبأت أمم في الغيران والكهوف وشقوق الأرض والجبال.. أما الطيور فقد خربت أوكارها ووكناتها، ولم يسلم منها إلا ما لاذ بأفحوص أو أدحى(**).. ومسكينات عرائس البحار! لقد شحبت ألوانهن، وذوى جمالهن وغصن في الأعماق مع السمك يلتمسن الماء البارد، ولجأت أسراب منهن إلى البحار الجنوبية، وآثرن أن يعاشرن البنجوين!. أما قمم الجبال العالية التي ظلت منذ الأزل الأول مجللة بركام الثلج، فقد خلعت حللها الناصعة، وحلت عمائمها المخملية، وصارت تلتهب.. فهذه طوروس الشماء وتلك القوقاز العاتية، وهاتيك الألب المزهوة كلها تلتهب.. كلها تقذف بالحمم.. حتى أولمب مثوى الآلهة، لقد غدا كومة عالية جداً من النار.

ولقد كانت الصحراء اللوبية فراديس يانعة ولكن فيتون المجنون حولها إلى رمال وكثبان، ولولا أن أدخل النيل رأسه في كثيب مهيل منها لجف ماؤه، وتبخر في السماء كله، ليجري في كوكب آخر! وهكذا فعل الفرات وأخوه، وكذا صنع الكنج والسند.. فشكراً لكل الأنهار التي ضحت بنفسها من أجل سعادة البقية الباقية من النوع البشري!

يا له من يوم قيامة؟. لقد ضجت الآلهة في الأرض، وكلما حاول نبتيون الجبار إله البحار أن يخرج رأسه من اليم ليجأر بالشكوى إلى أخيه كبير الآلهة، خاف وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التي يسوق عربتها فيتون.. ولولا أن جازفت أمنا الأرض

(**) الأفحوص عش في الأرض، والأدحى بيت النعام.

فبرزت من المحيطات وهتفت بزيوس العظيم لأصاب من بقي العذاب الأليم.. لقد قالت له: (يا جوف العلي! يا رب الأرباب! أصغ إليّ، واستجب لدعائي! ما هذا الذي نامت عيناك عنه فذهب بزرعي وضرعي؟ أهذا جزاء خصوبتي وما تهب عبادك من حب وأب وعنب وقضب وحدائق غُلب؟! أهكذا تكون عاقبة إخلاصي في مكافأة عبادك الذين يقيمون لك الهياكل ويبنون باسمك الصوامع والمعابد؟ ماذا من القرابين يا رب الأرباح يذبح باسمك بعد أن يهلك كل ما علي من قطعان وأسراب ورعال؟ ثم هذه العوالم التي ما أنشأتها إلا بعد عناء وجهد! كيف تدع هذه الشمس الرعناء تأتي عليها جميعاً، وتصير كل شيء في ملكك إلى هيولي؟ استيقظ يا جوف واستمع، وأدركنا بلطفك هذه الساعة التي نحن فيها أشد ما نكون في حاجة إليك".

* * *

وهب جوف من سباته العميق على جؤار ربة الأرض، وأبصر فرأى ما حل بالعالم الجميل من تدمير ووبال.. فألم وتصدع.. ونظر إلى عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون ابن أبوللو فهاج وماج، وأخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها، ثم أحكم تسديدها إلى الراكب المجنون.. وأرسلها تقصف وتعزف.. وتهز الأفلاك. فأصماه وأراده!!

وسقط الغلام الأحمق من علو العالم يتقلب في نهر اريدانوس المتدفق في سهول إيطاليا.. حيث مات.. واستراحت الدنيا كلها منه! وعادت الشمس إلى ربها.. أبوللو المسكين.. فهو يجري بها إلى اليوم لمستقر لها!

أماكليمين البائسة، فهي إلى اليوم تبكي ولدها.. وقد بكته معها أخواتها، وكن في كل صباح يذهبن إلى النهر الذي سقط فيه فيسكبن دموعهن، حتى رثت لهن الآلهة، فسحرتهن إلى أيكات ثلاث من شجر الحور، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم.

وكلما سكبن دموعهن حارت الدموع إلى كهرمان كريم.

وحزن سيكنوس، صديق فيتون، على خدن صباه، فجمع رفاته، وبنى لها قبراً من الرخام تظله الشجرات كتب عليه: "ما أتعس الإنسان إذا احتاج إلى برهان على أنه ابن فلان!"

بلوتو يخطف برسفونية

أسطورة الربيع

كانت ديميتير الطيبة[*]، ربة الخيرات ومغدقة البركات، الرحيمة البارة، ملونة الزهر ومنضجة الثمر، واهبة الحقول خضرتها والبساتين نضرتها... كانت ديميتير الطيبة تسكن في قصر منيف يشرف على سهل آنا Enna، أروع سهول جزيرة صقلية جمالاً وأعذبها وأطيبها هواء، وكانت حين يتنفس الصبح، تلبس تاجها اليانع الذي ضفرته من سنابل القمح، وتتناول باقة من زهرات الخشخاش ريانة، وتقبض بيمينها على صولجانها العتيد، المرصع بالزبرجد ثم تستوي في عربتها المطهمة، فتنطلق بها الصافنات الجياد تجوب أنحاء الأرض، وتمر بكل مزرعة، وتقف عند كل كرمة، تهب القمح من نفحاتها فيربو من بركاتها ويزكو، والينع من أنفاسها فيطيب. ثم تعود إذ يجن الليل، فتهرع إليها ابنتها الصغيرة برسفونية فرحة متهللة، لافة ذراعيها الجميلتين حول ساقي أمها، كأنما تبثهما ما في قلبها الصغير من لوعة وغليل!

وكانت الفتاة برسفونيه– تقضي سحابة النهار، إلى أن تؤوب أمها، في سرب من أترابها، بنات الغاب الحسان فيظللن يقطفن الزهر، ويجمعن الرياحين، ثم تنشب بينهن معركة حامية من معارك الطفولة، وملحمة صاخبة من ملاحم الصبا، فيتراشقن بالورد، ويترامين بالزنبق الغض، ويتضاربن بأفواف السوسن.. وهن فيما بين هذا وذاك يقرقعن بالضحك ويتبادلن النكات، ويتغنين الأغاريد، فتستجيب الغابة لهن، وتترقرق الغدران من تحتهن، وتهدل الأطيار من فوقهن، وتمتلئ الدنيا حولهن نشوة وحبوراً.

(*) برسفونيه اليونانية هي بروزور عند الرومان، ربة الربيع. وهي بنت ديميتير ربة القمح والخصب، ويسميها الرومان سيريز Ceres وكان هؤلاء يقدسونها ويقدمون لها القرابين من الخنازير خاصة في عيدها العظيم الذي كانوا يسمونه Cerealia وكانت لوائح مجلس الشيوخ الروماني تحتفظ بها عادة في معبد سيريز. وقد اشتقوا من اسمها اللفظة Cereals للحبوب.

وكان بلوتو: إله الموتى، ورب الدار الآخرة، قد مل هذا السكون المخيم في مملكته تحت الأرض: هيدز، وسئم هذه الأشباح التي تطيف به هنا وهناك في الظلمات المحيطة به، وأرواح الموتى تئن وتتوجع في كل مكان من ملكه الموحش الحزين، فأسرج عربته الضخمة، وألهب جيادها بسياطه القاسية، فانطلقت تعدو به إلى.. الدار الأولى. هذه الحياة الدنيا!

خرج بلوتو يروح عن نفسه، وينشق هذا النسيم الحلو الذي يغمر ملكوت أخيه زيوس، ويروي روحه الظامئة بالتفرج على عرائس الماء وبنات الغاب، إذ أبين جميعاً أن يشاركنه ملكه الرحيب، ورفضن التزوج منه، برغم ما أغراهن به من اللآلىء واليواقيت.

وفيما هو ينهب الأرض بعربته، إذا به يسمع في غيضة قريبة، ضحكات مرنة، وأصواتاً موسيقية، وأحاديث كأنها دنانير من ذهب في كف صيرفي حذق! فساقه الفضول إلى استكشاف أولئك الغيد اللائي يتضاحكن هكذا! كأنما يترنمن بالشدو، ويرجعن بالغناء! فقرق العساليج التي كانت تحجبهن، فرأى البدور البيض على الحشيش الأخضر، كأنهن نغمات حلوة تنطلق من أوتار أرفيوس!

وجن جنون بلوتو!. وأقسم ليخطفن هذه الفتاة الخدجة الممشوقة التي تدل على الجميع كأنها فينوس في دولة الحب، أو ديانا تخطر بين أماليد!

"إلام أظل في هذا الديجور الحالك وحدي؟! وحتام أقاسي منفاي السحيق من غير صديق أو رفيق؟! وما قيمة ملكي الشاسع، وأنهاري الفائرة بالحمم ما دمت لا سمير لي ولا مؤنس، إلا زبانيتي وكلابي؟ وإلا شارون[*] المسخ الكئيب؟

لقد مللت! ولا بد لي من هذه الكاعب الحسناء، والغادة الهيفاء!

---

[*] شارون حارس بوابة الجحيم ونوتي أنهارها.

إن لها لفماً رقيقاً... وأنها لتنثني كالغصن، وتخطو كالقطاة!

يا للثديين..!

ما لهما بارزتين هكذا؟ أتطلبان حضناً قوياً كحضني؟ أم يملؤهما لبن الآلهة، ورحيق السموات؟!

يا للفخذين الملتفتين الممتلئتين!!

أنهما مترعتان باللذة، فياضتان بالإغراء والترغيب! ما لهما تنفجان شهوة هكذا؟!

وهاتان حماتا(*) الساقين! ويلي عليهما وويلي منهما!!

إنهما حماتان خبيثتان كأبرع ما تنحت يدا فنان! إنهما تمتلئان لذاذة، وتطلقان رقى السحر في قلوب الناظرين!

كورتا تكويراً خفيفاً من فوق، وانعقد دهاء الفتنة عند التفاف العضل، فأفعمهما رغبة وشتهاء!!

وقدماها!!

يا للعقبين المستديرتين، والجنة النائمة فيهما!!

والذراعين الناعمتين!

والظهر العاجي الناصع!

والشعر الذهبي يداعبه النسيم كأنه خصلة من ظلال الخلد!!

(*) حماة الساق أو ربلتها: بطنها.

ويلي!

أنا لا أرى إلا هذه الأعضاء السابية، وأغفل عن هذه الابتسامة التي ترف حول الفم!!

إنها أجمل من زهرة التفاح في أوائل فصل مايو، وأرق من بتلات أزهار اللوز في شهر ابريل!!

تلمظ يا فمي، فإنك ظمئ إلى قبلة تطبعها على هاتين الشفتين الأقحوانيتين!

وسمع إحدى الفتيات تناديها: "برسفونيه! انظري هاك بنفسجة حلوة!"

فتحدث إلى نفسه:

"برسفونيه!

هذه عروس الربيع إذن! ابنة ديميتير من أخي زيوس!

لقد كبرت وترعرعت، ونهدت، وطابت في جسمها البض ثمرة الحياة!!

اغفر لي يا أبي ساترن[*]! سامحيني يا رها[**].

سأخطفها! سأجلسها بجانبي على عرش هيدز ستصبح مليكة دار الموتى! ستنقشع ظلمات ملكوتي بوجهها المشرق الجميل...

لن أشعر بشقوة، ولن أحس خباء في ملكي! إنها ستكون جوهرة التاج وفتنة العرش، وستجد الأرواح تحت قدميها المعبودتين!!

سأترك لها أن تغفر وتثيب، وسأدع لها مقاليد السفل تصنع فيه ما تشاء!"

---

[*] تزواجت السماء (أورانوس) والأرض (جي) فأعقبت آلهة كثيرة منها ساترن الذي أعقب بدوره الآلهة زيوس رب الأولمب وبلوتو رب الموتى وهستيا رب النار المقدسة وديميتير وحيرا الخ من أشهر أبنائه يوسيدرن رب البحار.

[**] رها زوجة ساترن وأخته.

ثم ألهب جياده فانطلقت نحو الفتيات، ولشد ما تفزعن إذ لمحن وجهه الأغبر، يتدلى عليه شعره الأشعث. والظلال المظلمة تتخايل فوق جسمه كالسمادير(***)!

ولقد كان كلبه سيربيروس، ذو الرؤوس الثلاثة يلقي الرعب في القلوب!

وفر الحسان مذعورات... إلا برسفونيه، فقد قبض بلوتو على ذراعها الرخصة وجذبها إليه في العربة، وذهب يسابق الريح ويلاحق البرق، حتى اعترضه ماء نافورة أخذ عليه سبيله. وسرعان ما فار الماء كالتنور، وصار يغلي كالحميم، حتى خشي بلوتو الجبار أن يعبره، وأوجس، إن هو انثنى عن طريق آخر أن يضيع الوقت، وتفلت الفرصة، وتروح ديميتير تفتقد ابنتها حتى تستنقذها من يديه. فتناول صولجانه الهائل، وضرب به الأرض فرجفت وزلزلت وانشقت عن أخدود كبير بعيد الغور...

وكانت برسفونيه قد أفيقت من هلعها، فلما رأت النافورة تغلي وتصطخب، أدركت أن إحدى عرائس الماء قد عرفت من أمرها كل شيء، وأنها قد تستطيع أن تؤدي لها خدمة في ذلك المأزق الحرج، فحلت (برسفونيه) زنارها الحريري الأبيض، وألقت به عند ضفاف النافورة عسى أن يصل يوماً إلى أمها عن طريق هذه العروس، فتعلم أين هي، وماذا تم من أمرها.

وانطلق بلوتو في ظلام الأخدود حتى وصل منه إلى مملكته... هيدز! فاستوى على عرشه مثلوج الصدر خفاق الفؤاد!

ثم طفق يترضى برسفونيه بشتى الوسائل، وهي لا تزداد إلا شماساً ونفوراً... طاف بها أرجاء مملكته الشاسعة، وأراها شطئان ستيكس وأشيرون وليث. وسائر أنهار الجحيم، ثم خاض بها وادي الأفاعي والعقارب. ومدينة الزنابير واليعاسيب، والدرك الأسفل من النار حيث المنافقون والكذابون، وحديقة الخونة واللصوص ذات الأشجار من لظى ولهب... ولم يفقه المغفل أنه كان يضاعف فزعها أضعافاً مضاعفة

(***) الظلال التي تتراءى في عين كليل البصر.

كلما مر على منظر جديد من ملكه البغيض!!

* * *

وعادت ديميتير في المساء، ولكن برسفونيه لم تهرع للقائها كعادتها، فحسبتها نائمة... بيد أنها لم تجدها في مخدعها، فافتقدتها في جميع الغرفات، ولكن عبثاً حاولت أن تقف لها على أثر! فاضطربت نفسها بالوساوس، وخرجت تبحث عنها في الحديقة، فلم تجدها كذلك!

ريعت الأم وارتعدت فرائضها، وانطلقت تعدو وهي تصيح كالمجنونة:

"برسفونيه! برسفونيه! أين أنت يا برسفونيه!" ولكن لسان الصدى– ايخو– هو وحده الذي كان يردد نداءها...

ووصلت إلى ابن أخيها هيفيستون(*) إله النار فأعارها شعلة عظيمة تنير لها ظلمات العالم، ودياجير الليل، عسى أن تهتدي إلى برسفونيه.

جاست خلال الغابات، واخترقت الأودية. وفتشت الشطوط، ونفذت إلى أعماق الكهوف، وجالت في مهاوي الجبال، ورقت إلى شعاف الآكام... وبحثت عنها في جميع الآفاق... فلم تعثر بها!!

استعانت بالآلهة، واستنجدت بعرائس البحار، ولكن جهودها ضاعت عبثاً...

وجلست ديميتير كاسفة البال ملتاعة القلب، تعلو جبينها عبوسة قمطرير، وتنوء بروحها آلام وأشجان... وأضربت عن الطعام.

وآلت لا ينضر حقل ولا يذر نبات، ولا تثمر شجرة، ما دامت ابنتها نائية عنها.! فجفت السهول، ويبست سوق الحنطة قبل أن تؤتي أكلها، وخرفت البساتين

(*) هو فلكان الروماني.

دون الثمر، فعجف الناس، وضمرت بهيمة الأرض، ونشر الجوع ألوية الخراب في العالمين!!

وانصرف الناس يصلون لزيوس، ويضرعون إلى ديميتير، ولكن الحزن صرفها عنهم فلم تسمع لصلاتهم ولم تلبِ نداءهم...

وفيما كانت تجوب القفار، وتطوي المهامة البيد، إذا بها تصل إلى النافورة التي ألقت عندها برسفونيه بزنارها..

وأنها لتجلس عند حفافيها تفكر في أعز البنات، إذا بعروس الماء أريثونا، التي لمحت بلوتو يخطف برسفونيه، والتي أهاجت النافورة لتقطع عليه سبيله، تظهر من الماء فجأة لترى من هذه الجالسة عند دارتها تئن وتتوجع، وتعلم أنها الربة ديميتير أم الفتاة، فتتحدث إليها قائلة: "ديميتير! عزيز علينا أن تجزعي هكذا؟! طيبي نفساً وقري عيناً، فإن بلوتو رب هيدز هو الذي خطف برسفونيه! وهاك زنارها شاهدي على ذلك ولقد تبعتها إلى الدار الآخرة احسب أني أستطيع أن أؤدي لها يداً أو معونة ولكن الإله القاسي أغرى بي زبانيته، فانطلقت مذعورة من اللعين ألفيوس... فعليك أن تخلصي الفتاة فإنها لا تذوق طعاماً، ويكاد الحزن يصعقها برغم أنها أصبحت مليكة دار الفناء".

وتناولت ديميتير زنار ابنتها فعرفته ثم طفقت تلقيه على عينيها وصدرها... ساكبة دموعها الغوالي!

وقصدت من فورها إلى زيوس فحدثته بما قالت عروس الماء أريثونا وأقسمت لديه إن لم يأمر أخاه برد برسيفونيه، لتهلكن عباده جوعاً، ولتجعلن وجه الأرض فدفداً يباباً... لا تسمن بزرع، ولا تروى بضرع!

فتأثر زيوس من قولها، وابتسم ابتسامة حزينة ثم قال: "لا بأس من عودة برسفونيه إذن... ولكن! على شريطة ألا تكون قد ذاقت طعاماً في هيدز، مملكة

أخي، فإنها إن كانت قد فعلت، لا تصلح للحياة في الدار الأولى!"

ولسوء الحظ كانت برسفونيه، بعد امتناعها عن ذوق شيء من طعام هيدز طوال هذه الأشهر، قد أكلت في نفس ذلك اليوم الذي وعد فيه زيوس بعودتها إلى الدنيا ست حبات من الرمان فحسب! فلما علم زيوس بذلك، عدل حكمه، فقضى أن تلبث برسفونيه في هيدز عند شقيقه بلوتو ستة أشهر من كل سنة، أي شهراً بكل حبة مما أكلت!! وتعود إلى أمها فتلبث معها ستة أخرى، فيعود بعودها النماء إلى الزروع، والازدهار إلى الحدائق.

عاشت برسفونيه ربة الربيع! ولا طال على الناس مغيبها في هيدز...! عند الشرير بلوتو... الذي حرم الحياة من أن تكون ربيعاً كلها!!

مصرع بروكريس

رأته أورورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرة يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال، فهامت به، ووقفت تعبده، وتروى من جماله، وتسقي نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان.. وحاولت أن تكلمه فشاح بوجهه، وتصدت له فأعرض عنها، ثم انطلق في أثر ظبي فلم يزل به حتى أرداه، وانحنى يحمله.. ولكنه وجد مكانه أورورا!. وجدها متجردة تمرغ جمالها تحت قدميه، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية، وجعلها ترمقه بعيني أفعى، تود لو تنفث في صدره سمها فترديه..

"أنا أورورا، ربة الفجر والندى، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد، لا أرق هذا الأنسي المخلوق من تراب! وحق أبي لأسرنه ولأسجننه، ولأجعلنه يتلوى تحت قدمي، ويبكي من أجل قبلة أمن بها عليه!"

وأرسلت رقية من رقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه، والنسيان في قلبه، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً.. ثم حملته إلى كناسها(*) في شعاف الأولمب وحبسته ثمة، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى، وهب مذعوراً، ثم غرق في شيء كالحلم، لما رأى العماد من ذهب، والطنافس من عجب، والكأس حفها الحبب، والندامى والطرب، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف، فتميل وتختال، ويتأود كالسيف.. وأورورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج، وتفوح وتتأرج، كأنها ربيع بأكمله، زخرف الدنيا بالزهر، ووشاها بالروض، وابتعث فيها المرح والحياة.

– أين أنت إذن؟ سيفال! أين أنت؟

– أين أنا؟

(*) الكناس بالكسر بيت الظبي.

– ألا تعرف؟ هذه غرفات الأولمب؟

– الأولمب؟!

– أجل.. أولمب أربابك

– محال! لن يكون الأولمب هكذا!

– ولمه؟

– لأن الأولمب مأوى الصالحين! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى؟ ما هذا؟ أخمر ورقص وطرب.. وفسق في الأولمب؟ لا.. ليس هذا الأولمب. لن يكون الأولمب هكذا!

– بل هو الأولمب يا سيفال! وليس ما ترى هنا إلا قليلاً مما هناك! هل ترى فينوس؟ ألم تصل لها؟ أنظر من هذه الكوة فهي تطل على حديقتها!

– وأنا ما شأني؟ أريد أن أذهب.

– تذهب؟ تذهب إلى أين يا سيفال؟ لن تبرح عاكفاً على اللهو الذي ترى!

– لا، لن يقوى الأولمب كله على قهري!

– ها. ها. مضحك. أنت مضحك يا سيفال! كل الأولمب؟

– أؤكد لك!

– ولمه؟

– لأني أحب زوجتي وأقدسها.. إنها جميلة جداً

– أجمل من أورورا؟! أليس كذلك؟

– أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعيني زوج أمين مخلص!

– أنت عنيد يا سيفال! إنك تزدريني!

– بل أنا أنتصر للفضيلة التي كان ينبغي أن تتنزل علينا من الأولمب! من جاء بي هنا؟

– أنا..

– ولماذا؟

– أنت تعرف!

– لا أعرف شيئاً.. والذي أعرفه لا يليق بشرف ربة! أرجو أن تطلقي سراحي!..

– إذن أنت تفضل عليّ زوجتك! أهي أجمل مني؟ ألا تزال تعتقد هذا يا سيفال؟

– أنا أفضل زوجتي لأنها لم تتلوث.. وما زلت أقول أنها أجمل منك لأنني انظر إليها بعيني لا بعينيك!

– زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية؟

– أجمل من ربات الأولمب جميعاً، إلا من تجملن بمثل روحها، ولست منهن.

– أيها التعس!

– ولم أكون تعساً وأنا أسعد الناس بزوجتي بروكريس!

– بروكريس! ها! عرفتها، إحدى وصيفات ديانا، حقيرة مثلك، أغرب من

وجهي أيها القذر اذهب! اذهب إلى زوجتك بروكريس التي تفضلها على أورورا، ستتمنى يوماً أنك لم تعرفها، وأنها لم تكن زوجتك، اذهب، اذهب".

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب، ويرتجف مما ألم به، فلقيته زوجته الجميلة الحسان بابتسامة شفت صدره وقبلة ذات حميا أذهبت بعض ما وجد.. إلا أنه كان ينتفض آنة بعد آنة، ويعود فيبتسم، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته، حتى هجس وسواس في قلب بروكريس فقالت له:

- ماذا يا سيفال؟ أتخفي عني ذات صدرك؟

- كلا، ولكنها أورورا...

- ماذا..؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر؟

- كانت تحاول أن تسحرني عنك.. أو... تشركني فيك على الأقل؟!

- ... ؟...

- ولكنها فشلت.. لقد أذللت كبرياءها

- وهل استطعت؟ إنها جميلة وصناع، ولها في الغزل الصارخ أساليب خارقة يا سيفال...

- لقد قهرتها وأساليبها.. إن قطرة من معين إخلاص، تطفئ لظى جحيم يا بروكريس!

- لا ريب يا حبيبي. أنا أمزح فقط... سيفال، عندي لك مفاجأة طيبة

- مفاجأة! أية مفاجأة يا بروكريس؟

- تعال... افتح هذاه الغرفة

– أوه! ما هذا.. كلب عظيم، من أين يا بروكريس؟ إنه سينفعني كثيراً في صيدي

– ومفاجأة أخرى أعظم! أنظر في ركن الغرفة!

– هه! حربة لم أر قط مثل هذه الحربة! إنها ليست من صنع بشر! آه! إنها من صنع فلكان لا شك..! البشر لا يجيدون أن يصنعوا مثل هذه!

– إحزر إذن ممن الهديتان؟

– من الملك!

– وأنى لي أن يهدي الملك إلي؟

– ممن إذن؟

– احزر!

– لا أدري!

– إنهما من ديانا يا سيفال! أهدتهما إلي هذا الصباح!

– من ديانا؟ اه! لقد ذكرت ذلك أورورا..

– ماذا ذكرت لك أورورا؟

– إنك كنت إحدى وصيفاتها!

– وأي ضير عليّ أو عليك في هذا؟ أليست هي إحدى تابعات أبوللو؟ لقد كانت ولا تزال تتمنى أن لو كانت إحدى وصيفات ربة القمر!

– لا ضير، لا ضير يا بروكريس

- إني أهب لك ما أهدت ديانا إلي!..

- أشكرك!

- الكلب لا تسبقه الريح، والحربة لا تخطئ الغرض.

* * *

وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته مثقلاً بأنواع الصيد، وأحب كلبه وحربته حباً لا يعدله إلا حبه بروكريس.

واشتهر أمر الكلب في الإقليم كله وذاع صيته، حتى لقد أخطأ بعض أفراد الشعب في حق بعض الآلهة، فسلط عليهم ثعلباً سلقاً(*) لم يستطيعوا مكافحته، ولم تقو كلابهم له على طراد، فاجتاح ماشيتهم، وأتى على دجاجهم وعاث في حقولهم، ونفش في زروعهم، ولم يدروا كيف يكون خلاصهم منه، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه، كيما يطلقه في أثر الثعلب فيريحهم من شره.. وانطلق ليلاب- وهذا هو اسم الكلب- وراء الثعلب، كما يمرق السهم عن القوس، أو كما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء، وما انفك يحاوره ويداوره، وينبح به فيزلزله، حتى هم أن يفتك به ويمزقه إرباً.. ولكن حدث أن كانت الآلهة تتطلع من قلال الأولمب، تتفرج بهذا الطراد، وتشرح صدورها بمرآة، فالتفت بعضها إلى بعض، وعز عليها أن يقتل كلب إلهي ثعلباً إلهياً أمام الملأ من الناس، فقضوا لتوهم أن ينقلب الاثنان فيكونان تمثالين من المرمر الناصع فهما كذلك إلى اليوم!!

وأسف سيفال على كلبه، وانقلب على عقبيه غضبان أسفاً... ولم يزل في كل يوم، وفي مثل تلك الساعة التي حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة، يتوجه إليه، ويقف قليلاً عنده، حاناً إلى ذكراه، آناً على ما حل به، ثم ينطلق بعد، وفي يده رمح ديانا،

(*) السلق. الذئب واستعمل هنا صفة لتوحش الثعلب.

فيصيد الظباء بدون ليلاب.

وانطلق مرة في أثر ظبي فأنهك قواه، ونال منه الإعياء، وانسدح على العشب الأخضر في فيء دوحة باسقة، ثم راح يتخلج(*) من شدة التعب، وكان الوقت ظهراً، وكان القيظ قد أجج الدنيا حوله، فتفصد العرق من جسمه المنهوك، وتراخت عضلاته، ووهنت روحه، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا:

أين أنت يا نسمة؟ يا ابنة الربيع اللعوب

يا منعشة الروح المتعبة، أين أنت؟

هلمي يا نسمة، هلمي إلى سيفال،

فهو مشوق إليك، يرجو لو تنفسين عنه،

وهبي على رأسه الملتهب، وصدره المكروب،

لقد كنت يا نسمة، يا أحلى قبل الحياة

تداعبين جبيني، وتنعشين نفسي،

فماذا حال بينك وبيني، يا نسمة الربيع،

وساقية الحب، ورسوله بين المحبين..

وكانت أورورا ما تفتأ تتعقب سيفال في كل فج، وترقبه في كل حنية، وكانت تقف في صورة بلبل فوق رأسه، مختبئة في أفنان الدوحة التي نام في ظلها، فلما سمعته يتغنى غناءه، ضحكت واستبشرت، وانتهزتها فرصة نادرة للإيقاع بينه وبين زوجته، وانطلقت من فورها إلى بروكريس، حيث تكشفت لها في صورة إحدى صويحباتها:

(*) يشكو من التعب ويضطرب.

– بروكريس!

– مرحباً بأعز الحبيبات، ماذا جاء بك في هذا القيظ؟

– نبأ أسود ما كنت أوثر أن أحضر إليك به!

– نبأ أسود؟ يا للهول! ماذا؟

– أرجو ألا أثير سخطك علي..

– كلا.. كلا.. عجلي أرجوك!

– سيفال!

– ما له؟

– أتذكرين يوم رويت لي ما كان من أمره مع أورورا؟

– لم أنس! ولكن مال سيفال؟

– يبدو لي أني لم أكن مصيبة في تبرئته! لقد نفيت شكوكك فيما ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر، وقلاه لك لما عرف أنك كنت وصيفة ديانا!

– وماذا حدث بربك؟

– أنه يحب فتاة أخرى اسمها نسمة! إنه مولع بهذا أشد الولوع!

– لا أصدق!

– لا تصدقين؟ وهل أنا كاذبة؟

– وكيف عرفت؟ هل أوحى إليك؟

– بل سمعته يهتف باسمها، ويشدو بحبها، ويتغنى أحر الغناء!

– لا أصدق، لا أصدق، سيفال لا يحب واحدة سواي!

– هل لك في أن تسمعي غناءه بأذنيك يا صديقتي!

–و أين هو؟

– قريب من الدغل الذي عند النبع... سأحضر لك حصاناً صافناً. وغابت أورورا، ولم تتلبث طويلاً، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان، ركبتاهما وأسرعتا إلى الدغل... وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول: "نسمة؟ ترى ما نسمة هذه؟ عروس من عرائس البحر؟ أم غادة من غيد السوق؟ أم ربة كأورورا من ربات الأولمب؟ أهي جميلة؟ أهي أجمل مني؟ ألها عينان كعيني؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحي؟ أهكذا يا سيفال؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لي أمر أورورا معك، فلم تعد الشكوك لتفترسني؟ يا ترى؟ ألست تعود إلى أصيل هذا اليوم مثقلاً بصيدك كسابق دأبك؟ حنانيك يا آلهة السماء" وكانت زفراتها لا تخفى على أورورا، فكانت هذه تواسيها.

واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغني.. وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاختبأت في الحشائش الطويلة القريبة من سيفال، بعد أن تركت جوادها بعيداً عن المكان... وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها، فسمعت زوجها لا يزال يتغنى باسم نسمة ويقول:

يا نسمة، الام أهتف بك يا نسمة

يا نسمة يا أحب شيء في هذا الحرور

تعالي قبلي خدي ووجنتي وجبيني!

كم أنا مشتاق إلى نسمة يا سماء

فابعثيها رخية ندية، عليلة بليلة

تنعش فؤادي وتثلج برفيفها صدري

وكان ما خافت بروكريس أن يكون! فها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه، وها هو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها إليه رخية ندية تشرح الصدر وتثلج الفؤاد. فماذا بعد هذا؟ وأي برهان وقد سمعت الأذنان: "إذن، لقد كذب علي في الأولى، ولم يكذب علي في الثانية.. إذن لقد صبأ فؤاده على أورورا، ولا يزال فؤاده يصبو إلى الغانيات من كل جنس وفي كل فج. آه للنساء الضعيفات من الرجال الأقوياء، ويلي عليك يا سيفال، ويلي عليك وألف ويل!

وعاثت الوساوس في صدرها، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً في عينيها الحزينتين، فأرسلت آهة عميقة قطعت بها على سيفال غناءه، فهب الفتى مذهولاً مروعاً، وحسب أن وحشاً يتربص به في الحشيش، فجمع قوته، وتناول حربته– حربة ديانا التي لا تخطئ– وأطلقها إلى المكان الذي صدرت منه الهمهمة، وذهبت الحربة لتستقر في صدر بروكريس!.. واأسفاه!

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد، فماذا رأى؟

– بروكريس؟ يا للهول؟ أهو أنت؟

– ... ؟ ...

وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتي؟

– لا.. شيء.. فقط.. لا تتزوج.. نسمة. من بعدي!

– نسمة؟ أوه! إنها.. لا شيء.. لقد كان الجو متأججاً من الحر يا حبيبتي.. وكنت أتمنى أن تهب علي نسمة من الريح تروح عليّ!

– أحق... هذا؟...

– هذا هو الحق وحبك يا بروكريس!

– إذن.. سلام... عليك!

– بروكريس! بروكريس! لا. لا تغمضي عينيك دوني؟ افتحيهما لسيفال!

ولكنها ماتت، وماتت بيد زوجها وحبيبها الأمين الوفي!

وأرسل الفتى أنينه في الآفاق، ورفع وجهه ليقلبه في السماء بالشكوى، ولكنه رأى أورورا واقفة تبتسم وتضحك... فجن جنونه، وانطلق هائماً على وجهه، لا يلوي على شيء، ولا ترقأ له دموع... حتى مات!!

أجنحة ديدالوس(*)

لم يكن في أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الفن وكثرة الفنانين، من أمهر من ديدالوس العظيم في نحت الدمى وصناعة التماثيل وهندسة المباني الضخمة. ولقد كان يتنقل بين المعاهد اليونانية، وخاصة بين كريت وقبرص وأثينا، لكثرة الدعوات التي كانت تصله من ملوكها، ليقوم على بناياتهم، وليتعهد تماثيلهم، وليشرف بنفسه على هياكلهم، ليقال في مواضع الفخر، إن هذا التمثال، أو تلك الدمية، أو هذه الزخرفة من عمل ديدالوس.

واستفاضت شهرته، وذاع صيته، وملأ الخافقين اسمه، ولاسيما إذ شاد اللابيرنث (التيه) لمينوس ملك كريت، واللابيرنث عمل من أجل الأعمال الهندسية القديمة، إن لم يكن أجلها جميعاً. ذلك أنه كان لمينوس وحش هائل مخرب يسمى (المينوطور) نصفه الأسفل نصف عجل جسد، ونصفه الأعلى نصف رجل له أنياب الأسد، وغدرة الذئب وقوة التنين العظيم..

وكان لا ينفك يقتل كل من اقترب منه، ولو كان من خاصة الملك. فلما استطار شره، وعظمت بليته، دعا مينوس الملك، ديدالوس المهندس، ليشيد هذا البناء الرائع. ذا المنعرجات والحنيات، والشعاب المتداخلة، التي لا يستطيع أحد أن يفلت منها، إذا أنفتل فيها. وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة محيطها هذه الشعاب والمنعرجات، وفي وسطها فضاء فسيح يربض فيه المينوطور أو يركض.

ولندع الآن ذاك المنيوطور الرهيب جاثماً في اللابيرنث، لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك.

(*) أول محاولة للطيران عرفها التاريخ.

ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية، وما أوتي من حذق ونبوغ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التي كساها إلهامه ظلالاً كظلال السحر، وموهها بأمواه القداسة والخلود، حتى كبر الفتى بردكس، ابن أخي ديدالوس، وكان شاباً ممتلئ الجسم، مفتول العضل، قوي الملاحظة، دقيق الفهم، سريع التصور، ما كاد يتتلمذ لعمله حتى بلغ شأوه بل هو قد فاقه بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والمثالة، ولاءم بين روحها جميعاً، فكان يبرز تحفه في مظهر دقيق وطراز أنيق، ثم هو يضفي عليها من شبابه الغض، وروحه العطرية الشاعرة، ظلال الحب، وسمات الفتنة، ويحرك فيها عواطف الآلهة!

ولهج الأثينيون باسم هذا الفنان الشاب، وتناسوا عمه الذي هو أستاذه وملهمه. وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعاً، وساءه أن تكسف شمسه الوضاءة المتلألئة، نجمه الذي لبث زماناً يسلسل نور الفن في أرجاء هيلاس.

وما فتئ العم يحنق ويحنق، وما فتئ بردكس يسمو بفنه إلى الذروة، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان، ونفثت فيه سمها، فلم يعد يطيق هذا الخصم الذي صنعه لنفسه بيديه، ولم يعد يحتمل أن يرى نفسه هملاً بجانب الفتى العبقري، فأقسم ليزيحنه عن طريقه، ولو بتجريعه كأس المنون.

وزين له أن يحتال عليه، فيذهب وإياه إلى شعاب جبل شاهق، ذي مهاوٍ تنتهي إلى اللج الجياش في اليم، حتى إذا كانا فوق القنة المشرفة على البحر المصطخب، هز منه غرة ودفع به إلى الأعماق، حيث ينشق له قبر من الموت... والنسيان!

وأنفذها ديدالوس المسكين!

ولكن الآلهة كلها كانت تنظر، وتستعد للمعجزة!

وكيف؟!

لقد استجمع الشيخ كل قوته، ووضع في يديه كل منته، ودفع بابن أخيه من

فوق القنة، فتردى الفتى على حدود الجبل، حتى إذا كان من الموت قاب قوسين، هبطت منيرفا(*) سيدة الأولمب، وصاحبة أثينا، من عليائها، فأنقذت بردكس من قتلة محققة، ثم نفثت في أذنه نفثتين، كان بهما فرخاً حزيناً من أفراخ القطا، راح يرف في السماء مدوماً فوق عمه، حتى كاد يصعقه من حيرة وعجب!!

وانقلب ديدالوس إلى بيته أسوان أسفاً، ووقر في نفسه أن الآلهة التي سحرت بردكس لتنقذه من تدبيره السيء، لا بد أنها تترصده، ولا بد أنها ستأخذه بأوزاره في القريب، غير متجنية ولا ظالمة..

ثم مضت سنون، وولد لديدالوس طفل جميل الصورة، طلق المحيا، مشرق الغرة، سماه أيكاروس! ولكن الطفل لم يستطع أن يخفف من الروع الذي كان ينتاب أباه، أو يذهب بسورة الهم التي كانت تجثم على قلبه، وتثقل على نفسه كلما تصور الهامة الفزعة التي يضطرب بها نومه، فتقض مضجعه وتزلزل كيانه.

لقد كانت القطاة تتمثل له كلما أغمض طرفه، كأنها روح ميت تزنق على خصمها تكاد تصقعه. وازداد الشيخ خيالاً حينما ألحف عليه الأثينيون يسألونه عن بردكس أين قضى وأيان ولى! وأخذ الغوغاء يلغطون، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار الفنان، ودأبوا على عمه يسألونه عنه، وهو يضللهم ويخترع لهم، حتى أوجس أن ينكشف سره، فينكل الناس به. فآثر الهجرة عن أثينا المحبوبة، إلى صديقه مينوس ملك كريت، مصطحباً معه ابنه الطفل ايكاروس.

وتطامن الدهر، وشب ايكاروس وترعرع، وأخذ من والده من الفن ما أخذ بردكس من قبل، وحسب ديدالوس أن الزمان قد غفل عنه، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت، وأن الأيام قد ابتلعت إثمه الكبير في تضاعيفها القائمة المظلمة، فاستيقظ الغرور في قلب الفنان الشيخ ولم يتقبل ما غمره به مينوس الملك من النعم

(*) منيرفا هي باللا أثينا، وقد خلقت شجرة الزيتون فملأت الأرض بركة وكان بردكس يصنع لها تماثيل رائعة، وهي هنا تنقذه لترد له قليلاً من جميله.

بالشكر الواجب على لاجئ طريد مثله، بل بطر واستكبر، وكفر بأنعم مولاه، ومد له هواه فولغ في إناء الملك، بعد أن اختلط بأهل بيته اختلاطاً شائناً أدى إلى كثير من القيل والقال.

وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه، واعتقاله في إحدى غرف القصر حتى يقضي في شأنه، فألقى به في حجرة منفردة في طرف القصر، مشرفة على الماء، متصلة بالسماء.

وطالت عزلة الفنان الشيخ في معتقله هذا، وضاق ابنه بالحيز الضيق الذي يكاد يحبس أنفاس روحه، ويحسر مرامي مقلتيه، ويشيع الهم في حنايا ضلوعه، فقال لوالده وهو يحاوره: "أهكذا قضي علينا أن نموت هنا صبراً يا أبتاه!" وكانت كلمات ايكاروس المبللة بالدموع تذهب كالصدى في آذان الشيخ، وكان الغلام يجذب اللفظة المفردة من فم أبيه، فما يكاد يفوز إلا بلا... أو بنعم...

وكانت للغرفة التي اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر الأبيض المتوسط، وكان منظر السفائن الماخرة في البحر كالأعلام، والطير صافات من فوقها كأنها تسبح في لج من زرقة السماء، يثير في نفس الفتى أحلاماً وأخيلة وأمنيات. وأنه لفي أصيل جميل يناجي الطبيعة من شرفة سجنه الصغيرة إذ به يذهب إلى والده مستبشراً متهللاً، ويقول: "أبي! أعجزنا عن أن نصنع لنا أجنحة كهذه الطير. فنفلت بها من هذا المكان الرهيب؟"

وكان الشيخ جالساً في زاوية مظلمة من زوايا الغرفة يجتر أحزانه، ويتغنى آلامه، فلما سمع ما خاطبه ابنه به، افتر فمه العجوز عن ابتسامة منقبضة مغضنة، وشاعت في أساريره بوارق أمل جديد!

وقال لابنه: "أجنحة؟ وأنى لنا بالريش يا ايكاروس؟"

فقال الولد: "لا عليك يا أبي، إن غرفة الدجاج قريبة من هنا!"

وعبس الفنان الشيخ، وقال: "والحارس الفظ؟.." فتضاحك ايكاروس قائلاً: "الحارس!؟ أمره أهون مما ترى... سنرشوه يا أبتاه، فيحضر لنا ما نشاء من الريش، وسنخدعه أننا صانعان له لباساً لا تحلم الملوك بمثله!"

ولكن العبوسة التي رفت على جبين الشيخ أنشبت فيه جميع مخالبها، وقال: "دعني أفكر يا بني، دعني أفكر يا ايكاروس..."

وهكذا كانت العبقرية البكر، الكامنة في هذا الفتى الصغير، لقاحاً بعيد الأثر في عبقرية الشيخ الفاني المتهدم، وهكذا بدأ الفنان الأكبر، باني اللابيرنث، ومشيد هياكل الآلهة، يفكر في هذا المقترح الشارد الذي اقترحه عليه الفنان الصغير!

"أجنحة.. دجاج.. ريش.. الحارس الفظ.. مينوس.. بردكس.. فرخ القطا.. الطير.. ايكاروس ابني..!" وهكذا انبطح الشيخ على حصيرة تتداعى هذه الخلجات في رأسه الساخن المتأجج تذكي فيه الذكريات والمآسي!

واحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقادير هائلة من ريش البط والأوز والديكة، وفكر الشيخ كيف يثبت الريش في مكانه من عضد الجناح، فادخر الشموع التي كانت تترك له يضيئها في الليل، ليضاعف بلهيبها الخافت حزنه، حتى إذا كان لديه قدر كبير منها، عمد إليها فصهرها، وثبت بها ما شاء من الريش، وبذلك صنع زوجين من الأجنحة الكبيرة، يكفي أحدهما لحمل فيل!

وجلس يمحض ابنه النصح ويقول:

"أي بني! أي ايكاروس العزيز! سنطير من هنا يا ولدي! إلى أين؟ لست أدري! ولكننا سنفلت من هذا السجن على كل حال! وهأنذا قد صنعت الأجنحة التي تخيلها أملك الصغير هو أكبر من جميع أمالي! ولقد رأيت إليّ كيف كنت أذيب الشمع قريباً من النار يا ولدي، فأوصيك إذا طرنا ألا تترك سمتي، وأن تكون دائماً قريباً مني، فإني أخشى إذا علوت علواً شاهقاً أن تصهر الشمس جناحيك، فتهوي في

البحر، وتتردى في أعماق الموت! وكما أخشى عليك من العلو الشاهق، فكذلك لا أرى لك أن تدنو من الماء فإنه إن وصل إلى الشمع أيبسه، ولم يعد يصلح لمهمة الطيران، إذ يساقط قطعة فقطعة، ويتناثر الريش، وتسقط، إما في البحر فتغرق، وإما في الأرض فيندق عنقك. فلا تنس يا بني أن تتبعني أبداً، واحذر أن تعلو فتدنو من الشمس، أو أن تسفل فيصيبك رذاذ الماء ورشاشه. إليّ يا ولدي أثبت لك جناحيك، ولنمض على بركة ز.. ز... زيوس!!"

وتلجلج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الإله الأكبر، لأنه يثق أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو محيط بعباده، لا ينسى أن ينتقم من الظالمين للمظلومين!

وانطلقا من الشرفة، وألقيا على القصر، وما أحاط به من حرس وعسس، نظرات كلها نقمة وتغيظ..

ومرا بشطوط كثيرة ومروج كبيرة، وكان الصيادون والزراع والبحارون وأهل القرى كلما رأوا هذين الطائرين الكبيرين، ذوي الهيئة الآدمية، خروا للأذقان سجداً، يحسبون أنهما إلهان من آلهة السماء، هبطا يباركان الناس والخلق، فيهللون ويكبرون!!

فهذا شيخ يطلب إليهما أن يباركا في عقبه ويمدا في أجله، وهذه شمطاء تدعو أن يردا عليها جمالها الضائع وشبابها الذاهب، وتيك رؤوم تناجي ابنها في قبره، فتطلب إليهما أن ينفضاه من الثرى، وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمنا عليهم فيخلصاهم من الفقر والمتربة...

وشاع الزهو في أعطاف ايكاروس، فكان يرتفع قليلاً، أو يهبط قليلاً عن سمت أبيه، ثم تشجع وتشجع، وبهرته زرقة السماء وأديمها الصافي، فجازف وارتفع ارتفاعاً شاهقاً، ونسي وصية أبيه، فعلا وذهب في السماء صعداً، وكان يغريه أن يصغر العالم الأرضي في عينيه، فيعلو ويعلو.

واأسفاه!! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا بردكس! فلقد صهرت الشمس شمع الجناحين، وهوى ايكاروس إلى الأعماق! ولما دنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت في أذن أبيه، فتلفت الشيخ ليرى ولده يغوص في اليم، ويبتلعه مرة ويلفظه أخرى!

فأسرع الوالد المسكين إلى البحر، وانتشل ولده من الماء جثة هامدة، وكان هو بدوره قد أذاب الماء شمع جناحيه، فعالج الموج معالجة شديدة وسبح بفلذة كبده إلى جزيرة قريبة، بلغها بعد جهد وعناء!

وجلس يبكي ولده... وبرزت عرائس الماء من اليم تواسينه!

ثم شق له قبراً صغيراً في رمل الشاطئ، وما كاد يسره فيه، حتى رأى قطاة حزينة تدوم في السماء، ثم تهبط قليلاً قليلا، حتى تكون بمقربة من القبر، فتقف كاسفة مشجونة وتنظر إلى الجثة والدموع تنهمل من عينيها. عبرة، فعبرة...

ويفرغ الشيخ من مواراة ولده في التراب! وينتبه! فيرى القطاة! فينشج نشيجاً مؤلماً: "بردكس!! أتيت تبكي ايكاروس!! سامحني يا بردكس!".

فتزقو القطاة كأنها تنتحب! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه، فتذرف عبرتين غاليتين، وترف في الهواء حتى تغيب عن عيني ديدالوس!

بومونا

عروس من عرائس الغاب يترقرق الجمال في أهابها الوردي، وتلتمع في فمها الرقيق الخمري ثنايا من اللؤلؤ الرطب، وتبتسم... فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل في قلوب العاشقين، تلسعهم، وتسقيهم رحيقاً!

هي بدع من عرائس الغاب، فهي لا تغشى الأنهار تتلاعب في طيات أمواجها، وهي لا تحب البحر لا هادئاً ولا متمرداً، وهي تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعي والوحوش، ومنظر هذه حين يساور أحدهما الآخر يبعث في نفسها اشمئزازاً، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظالمة التي جعلت الضعيف فريسة للقوي يذله ويقتله.. ثم يأكله.

لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة، إلا من نشاط الحياة يسري فيها فتهتز وتربو، ثم تكتسي بالسندس، وتنضر بالزهر، وتطن بموسيقى اليعاسيب... وأولعت كذلك بالحدائق... وقد غرست حديقتها على عدوة النهر، وسوجتها بسياج من شوك، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين... وكانت في جنينتها أكثر وقتها، ولو استطاعت لم تبرحها قط، لأن الزنبق الغض، والنسرين الجميل وأكمام الورد، وهالات البنفسج، ونضرة الشقائق، وأرج التفاح، وعبق الرياحين، وشذى أزهار الخوخ العقيقية، وابتسامات الأقاح، ولآلِيء الندى المبعثرة فوق العشب... كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلي، ونفسها العزوف، من هؤلاء الناس، والآلهة، وأنصاف الآلهة، الذين كانوا ينتظرون أوبتها في المساء إلى دارها، فيقفون في طريقها، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب، حائر الروح، خفق الأحشاء، موهون القوى!

وكأين من قائل لآخر:

– أرأيت بومونا هذا المساء يا صاح؟

– الحسان المفتان! أجل والله... رأيتها، وأورثتني ألف حسرة يا صديقي!

– أو مشغوف أنت بها حباً؟

ومنذا الذي لم تشغفه بومونا حباً، وقد تبلت قلوب الآلهة؟

– إني أغار من كلماتك أيها الصديق... فأقصر!

– وأنا أغار من غيرتك، فاذهب لطيتك!!

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذي ينقدح من أغوار قلبه... عن طريق عينيه... ثم يأخذ كل في سبيله. وهكذا تعادى الناس في بومونا، وهكذا تنافس الجميع في حبها حتى الآلهة فلقد رآها أبوللو وجن بها جنوناً، ولقيها مارس وفتن بها فتوناً... ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع، لا يتفتح قلبها لحب، ولا يرق لشكاة المغرم الصب، وكل ما كان يصبيها ويشغل بالها، هو هذا الفردوس، الحبيب، الذي لا يضايقها بكلمات الغزل، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة، بل يحييها دائماً بالابتسامات البريئة، وبالروح والشذى.

غير أن واحداً من عشاق بومونا كان لا يعدل حبه لها حب، ولا يسمو إلى افتتنانه بها افتتان... فتى لمحها مرة تطوي الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها، فوجد نفسه منجذباً إليها، مجنوناً بها، فتبعها، وجعل يقلب عينيه في مفاتن شعرها المتهدل فوق ظهرها وكتفيها، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق، كأنهما ختم الطبيعة في صك البكور، أو زهرتان من اللوتس، ترشفان صلافة الندى... وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح، فتضرمان في قلب فرتمنوس نيران الحب، وتزلزلانه زلزالاً عظيماً.

وعرف الفتى ميعادها، فكان يصحو مع الفجر، ويهرع إلى الطريق، ويلبث بعد

الدقائق والثواني كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد... حتى إذا أقبلت، شعر بقلبه يخفق، وأعصابه تذوب، وأحس كأنه خف على الأرض، وغدا طيفاً يوشك أن يسري مع نسيم الصباح الذي تنشقه بومونا... له الله! لكم منى نفسه بقبلة يطبعها على هذا الفم الشتيت تذهب حر قلبه وتشفي صدى روحه الظامئة المتعطشة، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سالبة لبه، ولا لب له، ولا قلب معه، ولا مداوي لجراحات فؤاده إلا دموعه يسكبها عبرة في أثر عبرة، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحاً!

* * *

وذوى فرتمنوس وذبل شبابه، وشفه الهم، وأضوى جسمه الفكر، واستسلم لبكاء طويل يتعلل به، وغناء يشبه العويل، يرسله في نبرات تشبه الأنين، يضمنه بثه، وينظمه شكواه، ويلف فيه بقايا فؤاده المعذب، ويودعه النطف الأخيرة من روحه الحيرانة، ويذهب به في الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش، وتسكر بموجع أنغامه الهوام، ويرقص من فوقه الشجر... ثم يبكي كل هؤلاء له... ويعود من حيث أتى!

ولقيته مرة فينوس فرقت له، ورثت لحاله، وراعها أن يلقى محب كل هذا العذاب، في هوى عروس غاب، فجلست إليه تسامره وترفه عنه.

– أهكذا يقتل الناس الحب يا فرتمنوس؟

– أي وحقك يا ربة! لقد نال مني هواها، ولم أعد أفكر في أحد سواها!

– مسكين! وهل كلمتها قط؟

– مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها، ولكنها أشاحت وأعرضت عني.

– وفيم تطمع إذن؟

– أطمع في رضائها، وأطمع بعد ذلك في العيش في ظل حبها..

– وإذا لم ترض؟

– سأعيش لحبها وآلامي! ولكن؟

– ولكن ماذا يا فرتمنوس؟

– ألا تساعدينني يا ربة الجمال؟ ألا تتفضلين فترققي قلبها عليّ؟

– عندي فكرة!

– أشرع إليك يا ربة!

– سأمنحك قدرة التشكل، فتستطيع أن تبدو في أي صورة شئت.

وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات، ثم نفثت فيهن، وتمتمت بكلمات سحرية، ونظرت إلى الفتى في ظرف ودل، ونثرت الماء في وجهه.

– والآن فكر في أي صورة تنقلب إليها.

وأخذ فرتمنوس يتقلب في صور شتى... وكلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع، فتضاحكت فينوس وقالت له:

... فكر أيضاً في صورتك الأصلية قليلاً...

وسرعان ما عاد إليها... ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له:

– تستطيع الآن أن تلقى بومونا، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك!

ورفت فينوس فكانت في سماء الأولمب!

واستطاع فرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته في أي لحظة شاء، وكان يدخلها في صورة بلبل غرد، فلا يزال يغني ويهتف حتى يلفت إليه أنظار بومونا وأسماعها، وكان يتبعها أينما ذهبت، فيقف على أقرب شجرة، ثم يرسل أغاني الحب وأغاريد الغرام، فتنسكب في أذني عروس الغاب، فتقف لتسمع لحظة، ثم تأخذ في عملها كأنها لم تسمع شيئاً... فيتضايق الفتى، ويطير أسوان أسفاً...

واستمر على هذه الحال أشهراً، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً، ويفنى فيها حباً، حتى خيف عليه من المرض، وأحس هو أن ريب المنون يسري في عظامه، وبرد

اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه، ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته في صورة أخرى تختلف عن تلك الصورة البلبلية التي اعتاد أن تراه فيها، ثم عول هذه المرة- إذا لم يفز بحبيبته بومونا- على أن ينتحر تحت قدميها في صورة البلبل الحزين!

رأى أن يزورها في صورة عجوز شمطاء! ولم لا؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن؟ أليس لهن حديث طلي يتصل من حيث ينقطع، ويتشفق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة، وبأسلوب ظريف يشبه (تنميل) الخمر في أطراف السكارى؟!

وقف فرتمنوس في ظل أيكة باسقة نامية في منعرج قريب من حديقة بومونا، ثم طفق يفكر في صورة عجوز طيبة القلب، سمحة الملامح، وراح يتخيل شعرها الأشمط(١٣) وذوائبها الخلس(١٤) وغدائرها الزعر(١٥) ويديها عاريتي الأشاجع(١٦)، وعينيها الغائرتين، وجبينها المجعد، ووجهها المعروق(١٧)... فكان له كل ذلك، ثم كانت له هيبة ووقار وأسر، في سكينة ودعة وحسن سمت... وأضفى عليه حيرة سوداء فضفاضة، وجعل في قدميه خفين هرمين، وفي يده عكازاً مقوساً أشبه بصولجان الموت!

ثم جعل يدب في هيئته تلك، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه، وكانت بومونا تقطف الزهر وتصنع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس الغاب في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع... فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها، أسرعت إليها وحيتها أحسن تحية وألطفها، ثم فتحت لها وأدخلتها، وكانت الخبيثة- أو كان الخبيث- تبالغ في إظهار الضعف وتعمل الإعياء، فكانت بومونا تسندها من

---

(١٣) بياض الشعر يختلط بسواده ويزيد عليه.

(١٤) بمعنى أشمط واحدتها خلساء وخليس.

(١٥) جمع زعراء أي قليلة الشعر جداً.

(١٦) بدت عروقها.

(١٧) قليل اللحم.

هنا، وتشد أزارها من هناك... حتى وصلتا آخر الأمر إلى ظلة وارفة ذات أفياء، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج، يغازل العيون والأحشاء، وأشارت العجوز كي تجلس على إحدى الأرائك التي صفت عليها الوسائد والحسبانات(*) ففعلت، ولكن..؟ بعد أن أخذت بفودي بومونا... وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة... قبلة الأماني والأحلام!!

لقد شدهت بومونا من أسر هذه القبلة، لأنها لم تكن من تلك القبل الفاترة الباردة التي تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء، بل كانت قبلة ناعمة فيها خمر ولها حميا، وفيها شعر وموسيقى، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتي العجوز كأنما حاولت أن تلقي في صدر الفتاة بكل أسرارها!!

ولولا أنها كانت عجوزاً حيزبوناً لعشقتها بومونا..

ووثبت الفتاة فقطفت عزقاً(**) من العنب وقدمته للضيفة العجوز.. ولكنها بدلاً من أن تجدها تهش للثمر الجني الشهي، وجدتها غائبة عن رشدها... أو... كالمغشي عليها! ترى ماذا أصاب أخانا فرتمنوس المختبئ في جلد هذه العجوز؟! آه! مسكين! إنه لم يكد يفيق من سحر القبلة، حتى رفع بصره إلى بومونا، فشهد العجب العاجب، والجمال النادر، والحسن الباهر، والرونق والرواء!! لقد شهد الساقين الجميلتين والقدمين الصغيرتين! وشهد الركبتين الملتفتين... وقليلاً من الفخذين اللجينيتين.. فأستطير لبه، وصبا قلبه، وشردت أفكاره، وغشي عليه؟!

ولما أفاق- أو أفاقت العجوز- سألتها ماذا أصابها، فشكت وطأة السنين وضعف البدن، وتهافت أعضائها من الكبر، ثم شكرت لها عزق العنب، وأخذت في أكل حباته، وهي تخالس العروس النظرات... ثم نظرت إلى الكرم العارش فوقهما، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية، ثم قالت تحدث الفتاة:

(*) المساند.

(**) عنقود.

– أرأيت يا حبيبتي (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش، هل كان يؤتي أكله، ويحلو عنبه، كما هو حلو هكذا؟

– كلا يا أماه! هذا شيء بدهي!

– تعنين أن الكرم لا يستغني عن هذا العريش!؟

– طبعاً!

– ولا غناء للعريش من غير كرم!

– لا يكون منظره جميلاً رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم!

– عجباً لكن والله يا عذارى!! تعرفن ذلك، ولا تفكرن في عطلكن!!

– أو عاطل أنا يا أماه؟ ماذا تقولين!

– عفواً يا ابنتي... فإن لك ألف حيلة من جمالك الذي لا جمال مثله... إنما قصدت أنكن تزهدن دائماً في أن يكون لكن أزواج كما لهذا الكرم عريش... ولاسيما أنت يا صغيرتي بومونا... إني أعرف أن كل شباب المدينة مولعون بك، وكل أمراء النواحي متيمون في هواك، وأنا أعرف أيضاً أن منهم من يتعذب بالليل، ويذل بالنهار، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك في الطريق، وقد وقف لهذا اللقاء ساعات وساعات بل أعلم يا أجمل عرائس الغاب أنك قد برزت هيلين الهيفاء، وينلوب اللعوب في كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك، وتخبت قلوبهم لحسنك، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين. ماذا؟ لم يا بنيتي لا تختارين لنفسك من بينهم كفأ يقاسمك هذه الحياة وتقاسمينه، ويشركك هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه، ويبسم لك وتبسمين، ويواسيك وتواسين؟ ما غايتك من هذه الوحدة، وأنت بها في منفى، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة، ومثلها من الورود والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذي اسمه.. اسمه.. اسمه ماذا؟ آه! فرتمنوس! ذكرت أني سمعت أنه يحبك حباً أورثه السهد، وأولاه الضنى، حتى لم يبق منه هواك إلا حشاشة تترقرق دموعاً في عينيه، وتتأجج نيراناً في صدره.. لم لا ترحمينه يا بومونا؟ لم لا ترثين له يا

أجمل عرائس الغاب؟ إنه ليس إلهاً ولا نصف إله، ولكنه خليق بحبك، جدير بأن تكوني له من دون العالمين، لأنه مغرم بك أكثر من كل عشاقك، وهو ليس كجميع العشاق، لأنه لم يحبك إلا عن بصر بك، وتقدير لحسنك، ولأن عشاق هذا الزمان مفاليك لا ألباب لهم، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى في صدورهم، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم إليها، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأبَ تلك الشياطين أن تتصرع تحت قدميها.. أما فرتمنوس، فقد أحبك ولم يشرك حسناء في هواك، لأنه لا يرى لك في قلبه شريكة تسمو إلى أخمصيك.. ارحميه يا بومونا، اعطفي عليه، وانظريه كأنه يتوسل إليك بلساني، ويشكو لك بثه بعيني (!).. ألا تخافين أن تقتص له فينوس منك؟ ألا تعلمين أنها تثأر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب؟ ألم تعرفي ما صنعت بالقاسية أناجزرتيه؟

– ومن أناجزرتيه يا أماه؟ وما قصتها؟

– ألا تعرفينها؟ ولا تعرفين مأساة الفتى ايفيس؟

– وما مأساة ايفيس؟ قصيها عليّ بالله عليك!

"لقد كان ايفيس فتى جميل المحيا وضاء الجبين، ولكنه كان من صميم الشعب، وكانت أناجزرتيه من بنات الأعيان والعلية الموسرين.. وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع ايفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون. وكان كلما لقيها غشيه من الغرام ما لو حمله جبل لناء به، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه وتزور، وتطوي الطريق عجلانة إلى قصرها الباذخ المنيف ذي الشرفات.. وكان الفتى يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدي ثم توصده من دونه، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع اللهفان من خلل القضبان، ثم يذرف دموعه، وينثني إلى داره، وليس في قلبه إلا حبها مع ذاك، ولا في عينيه الباكيتين إلا صورتها! وطالما كان يهب من نومه في جنح الليل فيطوي الطريق مفزعاً، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها، وعانق قضبانها، وبكى ما شاءت له الآلهة، وتغنى آلامه

وغرامه، ثم ارتد وقد تضاعف وجده، وازدادت صبوته.. وكم ذا رأته أناجزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه، بل كانت لا تعفيه من كلمة قارصة، أو غمزة تهكم واستهزاء، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة، بل زادها قسوة وعناداً.. ولما جد به الجد، ولم يكن بد مما ليس منه بد، ذهب إليها في ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع، ثم تعلق بالبوابة، وكانت حبيبته ترتع وتلعب في حديقة القصر، فهتف بها وقال: "أيتها القاسية أناجزرتيه اسمعي! لقد قهرت قلبي وغزوت نفسي وتم لك النصر! فهنيئاً لك! تغني أناشيد الفرح واللذة العارمة لأنك قتلت ايفيس! اعقدي فوق هامتك إكليل الغار لأنك أذللت قلبه العزيز، ومرغت في التراب روحه العالية.. ولكن أصغي إليّ يا متحجرة القلب.. لقد عولت على أن أشرب كأس المنون، ولكني آثرت أن أشربها أمامك إن لم يكن بين يديك، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر الموجع الأخير، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك علي.. بيد أني أهتف بك يا آلهة السموات أن تثأري لي، وأن تجعلي لي ذكراً في قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف، ويتذاكره الناس في طويل العصور والآباد.." وكانت السماء كلها تصغي لما يقول ايفيس فلبت واستجابت.. وكان قد ربط حبل مشنقته في قضبان البوابة، وجعل أنشوطتها في عنقه، فلما انتهى من مقالته ألقى بنفسه.. وقبضت روحه! ولم تتحرك اناجزرتيه مع ذاك، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم يبكون ويضجون.. وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها، ثم حمل الجسمان في اران(*) إلى المقابر، ومر الموكب الحزين من الشارع الذي فيه قصر الفتاة القاسية فصعدت لتنظر إليه، ولكنها ما كادت ترى إلى الجثة مسجاة في النعش حتى تثلجت عيناها، ثم استحالتا إلى رخام بارد.. وروعت لما أصابها، وأرادت أن ترجع قليلاً، ولكنها لم تستطع لأن الرخام سرى في قدميها أيضاً.. ثم في ساقيها.. ثم في ذراعيها.. ثم في جميع جسمها.. أما قلبها، فقد كان رخاماً منذ زمن بعيد.. وكذلك تحولت أناجزرتيه إلى تمثال لا يزال محفوظاً في متحف فينوس بسلاميس.. عظة

(*) نعش.

ذكرى.."

وكأنما عملت القصة عملها في نفس بومونا.. فانذرفت من عينيها الحزينتين عبرتان حارتان.. ونظرت لترى إلى العجوز.. ولكن.. لقد كان فرتمنوس العاشق الحزين الجميل القوي يجلس مكانها، ويأخذ برأس الفتاة على صدره.. فقالت له:

– من أنت أيها الفتى؟

– أنا...

وانفجر في بكاء شديد وقال:

– حبيبك فرتمنوس يا بومونا.. فرتمنوس.

فقالت: أهو أنت؟! آه يا ساحر!

وتبادلا قبلات أشهى من الشهد، وأشد أسراً من الخمر..

خرافة جاسون

غلب بلياس الظالم أخاه ايسون على ملك تساليا، فهام الملك على وجهه في أقصى الأرض، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة آلسميدية، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون... وعرجا في تطوافهم بأستاذ أخيل العظيم شيرون، فدفعا إليه بالطفل يهذبه ويؤدبه، وينشئه على الفروسية ومكارم الأخلاق، ورجواه أن يكتم سرهما حتى يشب ويترعرع، ويبلغ أشده، فيثير في صدره الحمية، ويرسله ليثأر لأبويه، وليستخلص العرش من غاصبه. وأخلص شيرون في تربية جاسون الإخلاص كله، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد، وغير جاسون.. ثم مرت الأيام، وشب الفتى على غرار أستاذه، فلم يكن في الدنيا بأسرها أحمل منه لسيف، ولا أرمى لسهم، ولا أرجح في تفكير، ولا أوفر في حظ من جمال وكمال. ووقفه شيرون على سر أبويه، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده، فثار ثائر الغلام، وازلزل قلبه، وضرب برجله يود لو يخرق الأرض فيكون عند الظالم، فيذرو عظامه في الريح!

ووعظه شيرون، وأوصاه بالصبر وطول الأناة وأعمال الروية، وحذره أن يعيث فساداً في الأرض، ونصحه أن يكون رحيماً بالضعفاء، وألا يألو جهداً في مساعدة من يطلب منه المساعدة، وألا يكون عداؤه لعمه سبباً في عدائه لجميع الناس.. وأعطاه الفتى موثقه، ثم اخترط سيفه، وربط على قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية، وانطلق يذرع الرحب إلى يولكوس، حاضرة تساليا.

ولقي في طريقه سيلاً زاخر العباب، فوقف حياله ينظر ويفكر، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها. وكان السيل جياشاً ينحدر من شعاف الجبل القريب، فيجرف في سبيله الجلاميد والنؤى، وتظل تتدحرج ويضرب بعضها بعضاً فتنسحق وتتفتت،

فراعه أن ينزلق وسطها ويكون مصيره مصير جلمود منها.. وفيما هو يعمل فكره، وفيما هو يلتفت يمنة ويسرة، إذا به يرى عجوزاً تابة(*) تدب على عكاز غليظ، مقبلة نحوه، مادة ذراعها المعروقة، مستغيثة: "لهفي بني! بني انتظر أرجوك انتظر يا ولدي!" من هذه؟ لا يدري جاسون. بيد أنه انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها، فتوسلت إليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل! ووجم جاسون قليلاً، لكنه ذكر وصاة شيرون أستاذه، فتبسم، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاهله القوي المتين، ثم رجاها أن تدفع إليه بعكازها يتوكأ عليه ففعلت، وتقدم بخطى وثيدة، ولكنها أكيدة، إلى مجرى السيل لا يفكر في نؤيه وجلاميده، ولا جيشانه واصطخابه، بل يفكر في أنه يجب أن يؤدي يداً لهذه العجوز التي استغاثت به.. وعبر مجرى السيل، وبلغ عدوته الأخرى بعد عناء وجهد، ووضع على الرمال اللينة المتطامنة حمله.. ولكن.. يا عجبا!! أين هي المرأة العجوز الحيزبون؟ أين الكومة من الجلد المتهافت، والعظام النخرة، التي كانت ترهق كاهله؟ لقد ذهبت ووقف مكانها شباب رائع، وجمال فتان، وغادة حسان مفتان!!

– يا للآلهة! من أنت بحق السماء يا ربة؟

– أنا؟.. ألا ترى إلى هذا الطاووس المزهو بذيله وألوانه أيها العبد الصالح؟

– أوه؟ أو أنت جونو(**)؟

وسجد جاسون بين يدي الربة، سيدة الأولمب، ثم أذنت له في أن ينهض، وأخذت برأسه فباركته، وسألها أن تهبه رعايتها في حله وترحاله فوعدت، ثم رفت في أثير السماء التي تفتحت لها أبواباً، وغابت عن بصر جاسون!

ووقف الفتى لحظة مسبوهاً مشدوهاً، ثم انطلق في طريقه... ووراءه بعد مرحلة

(*) تابة أي متقدمة في السن.

(**) عودنا القراء في أساطيرنا أن نسميها باسمها اليوناني (حيرا) وهذا هو اسمها الروماني.

طويلة أن يرى إلى قدميه فلا يجد إلا نعلاً واحدة في إحداهما.. أما الأخرى، فقد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها، وهو لا يستطيع استعادتها، لأن حمله كان يرهقه!

ثم بلغ يولكوس

ورأى جمعاً حاشداً حول ملكها بلياس، الذي وقف ينحر الذبائح، ويقرب القرابين للآلهة، ويفرق حواياها(*) على الفقراء! فدافع الناس، وشق طريقه إلى حيث وقف الملك، ثم سار إلى عمه قدماً، حتى كان قبالة المذبح.. وما كادت عين صاحب العرش– أو غاصبه– تقع على الفتى الذي يلبس نعلاً واحدة حتى شحب لونه، وغاضت الدماء الوردية من خديه، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً.. ذلك لأنه ذكر تلك النبوءة التي تنبأ له بها أحد سحرائه، والتي حذرته من الشاب الذي يقبل من بلاد بعيدة لابساً نعلاً ذهبية واحدة في إحدى قدميه، في حين يكون هو مشغولاً بتقريب القرابين للآلهة!! إن هذا الشاب يقتله!!

وأمر حراسه بالقبض على الفتى وإحضاره إلى غرفة العرش فجيء به إليها، ولم ينتظر حتى يبدأه عمه بالكلام بل وقف أمامه جباراً يغلي الدم في عروقه، وطلب إليه أن يعتزل الملك ويخلع التاج، ويعطي الصولجان صاحبه، وأن يعيد الحق إلى نصابه.. "لأنك انتهزت ضعف أبي الذي وهنت عظامه، واشتعل رأسه شيباً. فعتوت عليه وألبت عليه الأوباش من مرتزقة الجند، ورعاع الشحاذين والأفاقين، فلبست تاجاً ليس لك، واستويت على عرش تزعزعه الجريمة من تحتك، ثم حاولت أن ترشو الآلهة وتخذع السماء بالأضحيات والقرابين، ولكنك لا تخدع إلا نفسك فالتمس لها السلامة من موت يبغتك، ومغبة وبال يحيط بك.."

وكان بلياس يسمع هذه الكلمات الثائرة كأنها سهام تملأ أذنيه، ومنايا تطير

(*) حشاياها.

حول قلبه.. بيد أنه استعد لها بالمكر، وتهيأ بصدها بالخدعة، فتبسم لابن أخيه وقال: "ماذا تقول يا جاسون؟ أتحسبني يا بني قد سلبت أباك عرشه، وغلبته على صولجانه؟؟ كلا والله يا بني كلا... ولكن.. ليسكن طائرك قبل كل شيء.. فلقد دعوت نفراً من (رعاياك!) لوليمة إلهية، وقد أقبلوا من كل فج، وهم ينتظروننا الآن، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم، فهلم نلقهم يا جاسون، ونرحب بهم، فإذا فرغنا وفرغوا من طعامهم، عدنا سوية لنبحث هذا الأمر الذي أهمك وأقلقك، وملأ فؤادك بالوساوس والأراجيف، وسترى أن الذي أنبأك هذا النبأ زخرفه عليك، وشوه حقيقته في نفسك، بدليل هذه النيران التي تنقذف كلمات من فمك:.. تعال.. مرحباً بابن أخي جاسون؟ لشد ما أنا مشتاق إليك يا حبيبي!"

ثم قبله في جبينه قبلة صفراء قاتلة، أفتك من قبل التماسيح، وانطلقا إلى البهو الكبير، حيث صفت الأخاوين(*) الحافلة بأشهى الآكال. وأطيب الأشربات، وحيث جلس المدعوون إليها صفوفاً صفوفاً وألوفاً ألوفا.

وجلس جاسون فأكل وشرب، ثم أخذت الموسيقى تعزف فتشرح الصدور الحرجة، وتشفي النفوس من كل حرد، واعتلى المنصة التي أقيمت في صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص، شرعوا يسردون قصصهم، ويتناشدون أشعارهم، ويروون من أنباء الأبطال ما يأسر القلوب ويسحر الألباب، حتى أن جاسون نفسه كان يصغي إليهم، وكأنه يتلقى وحياً من السماء يتنزل على قلبه، ويدعوه إلى فعال الفتية الأبطال.

قال أحد المنشدين؛ "واسمعوا أيها الناس حكاية الملك الذي صبا قلبه إلى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه، فبنى عليها(**) ولم يبالِ أن ينقض ركن الأسرة وينهار عمادها.. ذلك هو أثماس أحد ملوك تساليا في الزمان القديم،

(*) أخوان لغة في خوان الذي جمعه خون وفي القلة أخونة.

(**) تزوجها.

ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفليها مكر ضرتها، فاعتزمت أن ترسلهما إلى ملك كولخيس ليكونا بنجوة من اينو الخبيثة.. وفيما هي واجمة تفكر في ذلك إذا هرمز الأمين يتنزل من السماء فيسألها وتجيبه:

– نيفيل أيتها العزيزة؟ فيمَ تفكرين حزينة هكذا؟

– هرمز؟ تباركت يا رسول السماء، أفكر في ولدي هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر اينو..

– لا عليك يا حبيبة الآلهة، إنني مساعدك، كفكفي دموعك..

– شكراً يا إله الرحمة، سأسبح لك ما حييت!

– وأين تحسبينهما يكونان في سلام وأمن يا نيفيل؟

– لا يكون ذلك إلا عند ملك كولخيس، ولا أدري كيف أرسلهما إليه؟!

– لا أهون من هذا، فانتظري طرفة عين!

ومضى الإله فغاب برهة، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الإبريز، فقدمه إلى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها، ولينقلهما إلى ملك كولخيس، وسجدت الملكة شكراً لهرمز، ثم قبلت طفليها فركسوس، وابنتها هلة، وطبعت فوق جبينهما وخدودهما ألف ألف قبلة، ودعت لهما، ثم انطلق الكبش في الأثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التي لا تنتهي.. وطفق الكبش يعرج في السماء، ويخفق فوق الممالك، حتى كان فوق بحر صاخب مضطرب تقلبت أمواجه، وتناوحت زوابعه. فنظرت الفتاة المسكينة هله تحتها لترى ما هنالك، ولكنها فزعت فزعاً شديداً، حينما رأت سراطين البحر وحلازينه تقتتل، وتحترب ويأكل بعضها بعضاً، فارتجفت رجفة هائلة، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عل وجعلت تهوي حتى تردت في البحر وابتلعتها أمواجه... ومنذ ذلك الوقت، وهذا

المكان يعرف من أجل ذلك باسم (الهلسبنت[*]) نسبة إلى الفتاة البائسة هله! ومضى الكبش يستبق الريح، ويطوي العوالم، حتى وصل إلى مملكة كولخيس، فهبط قليلا قليلاً، حتى إذا كان على الأرض نزل الفتى فركسوس، فصلى للآلهة، وذرف الدمع على أخته، وسلم على الملك الذي هش له وبش، وأحسن لقياه، وأكرم مثواه، ثم شحذ سكينه وتل الكبش لجبينه، وكبر وسبح باسم جوف وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قرباناً لهم جميعاً... وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذي فرح بها فرحاً شديداً، لأنها كانت تعدل كل ما في كنوز الملوك من ذهب... وقد ربطها الملك في سنديانة باسقة، ووكل بها تنيناً هائلاً ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رجيم... ومنذ ذلك اليوم والفروة التي تعدل ألف كنز معلقة لا تمتد إليها يد، ولا يجسر أحد أن يقترب منها وإلا جازف بنفسه، فأصبح لقمة سائغة للتنين..."

ولحظ بلياس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد، فانتهز الفرصة، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غنى، وأوفرهم ثراء، ثم ليخلد اسمه بين أسماء الأبطال الذين دوخوا الممالك، وأتوا من الفعال ما جعلهم أنشودة المجد في فم الزمان... "ولم لا يا ابن أخي؟ لقد علمت أن أستاذك الذي نشأك، وهذبك وأدبك، هو شيرون السنتور الأكبر، أستاذ أخيل العظيم، وقد خلد أخيل اسمه على أسوار طروادة، وأعلى ذكره في جميع الأنام، فلِمَ لا تذهب إلى كولخيس لتحصل على الفروة الذهبية إما سلماً وإما حرباً، وأنت من أنت في أبطال الوغى وصناديد الحروب؟ ألست أرمى الناس لسهم، وأضربهم بسيف وأحذقهم طعاناً برماح؟ إنها فرصة المجد لمن يبتغي المجد يا جاسون، فلا تضعها! لا تقل "بل حسبي أن أحكم الناس" فالناس يعشقون أشجع الناس..." وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى، حتى هاج في صدره الشاب نائم المنى وساكن الآمال... فرضي جاسون بالاضطلاع بهذه المجازفة، وظن أنها من اليسر بحيث لا تستعصي على

---

[*] هو الدردنيل.

شجاعته. بيد أنه عندما خلا إلى نفسه، وراح يفكر في الوسيلة التي يبلغ بها مناه، بدت له حقائق أسقطت في يده، وجعلته يتخاذل، ويندم على الوعد الذي وعده عمه، غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد، وربطه بالشرف، فصمم على السفر إلى كولخيس وجلس يفكر فوق عدوة النهر، وكانت سمادير اليأس تملأ عينيه، فلم يهتد إلى الوسيلة! وانطلق إلى غرفته، فقضى فيها ليلة ليلاء مثقلة بالهم والفكر.. ثم انبلج الصبح، فانطلق إلى هيكل جونو عند دودونا...

– جونو... جونو... لقد كدت أنسى جونو، يجب أن أصلي لجونو، فقد وعدتني أن تدركني بغوثها كلما حزبني أمر... لقد حملتها على كتفي هذين في صورة عجوز شمطاء! وهي ستحمل عني هذه المرة!

ووقف بجانب المذبح يرجو ويتوسل ويصلي، وكانت سنديانة هائلة– هي الناطقة بنبوءات جونو– نامية وراء المذبح، فسمعها جاسون تهتف باسمه وتقول:

– لبيك أيها الفتى لبيك! لبيك وسعديك يا جاسون يا حبيب جونو لبيك! كفكف غوارب دمعك فسترعاك الربة وتحفظك.. تعال! اصعد فوقي! اقطع أحد أغصاني واصنع منها عصا، واجعل لها رأساً على هيئة السفينة التي تحملك إلى كولخيس، وسيبنيها ارجس(*) لك، وذلك بإشراف مينرفا. ولتكن العصا معك دائماً، ولكن لا تنقلها من السفينة فهي حارستها، وكلما ألم بك خطب أو حز بك أمر، فارجع إليها، فهي تكلمك وتشير عليك..." وسكتت السنديانة، وصنع جاسون العصا وذهب عند سيف البحر، ليرى عمال آرجس، بإشراف مينرفا، قد فرغوا من السفينة الهائلة وأنزلوها إلى الماء ففرح واستبشر، وسماها (آرجو) نسبة إلى صانعها، ثم أعلن عن حاجته إلى نفر من شجعان هيلاس، يقاسمونه مجازفته، فاجتمع إليه عدد غير قليل، منهم هرقل الجبار وكلستو، وأدمتوس، وتيزيوس، وأرفيوس، وبولكس

(*) حيوان رائع من أتباع جونو.

ويليوس.. وأعدوا ميرتهم، واستكثروا من ذخيرتهم، ثم همت الفلك، واحتواها الماء.

مساكين هؤلاء الآرجونوت[**].

لقد كانت رحلة شاقة مضطربة بالمتاعب، مليئة بالأشجان، في بحر لجي وأمواج كالظلل، ظلمات بعضها فوق بعض، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض، وطريق كله سعالى[*] وأغوال.

لقد لقي الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أي رهق.. فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسمة الدوح، نما أيكها واستطال، وغلظت جذوعها واستوت، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق في الغابة يقطع أغصاناً تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للآرجو، فأوغلا.. وكانت الطريق ملتوية مضلة... فلما أن قطعا من الأغصان شيئاً كثيراً، أصاب هرقل ظمأ شديد لم يصبر عليه، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التي كانت معهما من نبع قريب. كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى في سكون الغابة... وذهب هيلاس، وجلس هرقل ينتظره... ولكن وقتاً كافياً طويلاً مضى قبل أن يعود الفتى... ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها... ثم ساعتان... ثم أكثر من ذلك... ثم أكثر... ماذا؟ ترى ما الذي عوق هيلاس؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا في ذلك الزمن، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق، وصدر رحب أخيلي، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال، وعينان يترقرق في بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى، ولا تحسه إلا قلوب الحسان... وشفتان إن كانتا لرجل، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة... وجبين متلألئ وضاح، لماح كإشراقة الشمس في مولد الصباح... تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبى، وما كان أجمل هيلاس!!

[**] المسافرون في السفينة (آرجو).

[*] جمع سعلاة أو سعلاء وهي الغول أو ساحر الجن.

ذهب يملأ الجرة... وما كاد ينثني ليضرب بها الماء، حتى رأته عرائسه الغيد، الخرد الأماليد، فشغفهن وامتلك قلوبهن، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله، وينهلن من حسنه، وليقسمن بسيد الأولمب ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملاك كريم!! واقتربن من مكانه، ثم لم يقوين على البعد فاقتربن أكثر، ثم تأجج الهوى في فؤاد إحداهن وهي أجملهن، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها، فهتفت به، فلم يجب، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى الماء.

– ماذا بالله عليك يا عروس؟

– تعيش معنا!

– أعيش معكن في الماء وأنا بشر؟

– لن تكون بشراً بعد اليوم، بل تكون إلهاً كريماً.

– وأنى لي هذا وأنا غلام هرقل ومولاه، وهو ظمئ إلى جرعة من مائكن تشفي جواده؟

– ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا؟ إذن هذا عقابه! تعال! سيمنحك الخلود سيد الأولمب!

وجذبنه إلى القاع.. ولكنه لم يغرق.. وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً، ولا يجوع ولا يظمأ!

ونهض هرقل يقص أثر فتاه، حتى إذا انتهى إلى النبع، ووجد الآثار هابطة إلى الماء، إلى غير عود، صرخ صرخة تجاوبت أصداؤها في أركان الغابة، ثم جلس ساعة على حفافي المقبرة التي ابتلعت هيلاس، ينشج ويبكي... وأقسم لا يذوقن من مائها قطرة، وأقسم كذلك لا يصحبن الآرجو في هذا السفر... وعاد أدراجه، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن، وعاش حياته الطويلة المقاحمة لا يفتأ يذكر

هيلاس، ولا يفتأ يبكي على هيلاس!

* * *

وأرست الارجو في شاطئ تراقيا، ونزل جاسون في نفر من رجاله يمتارون، فعلموا أن ملكاً أعمى يقال له فينوس، شديد البؤس، طويل الشقاء، يحكم هذه المملكة.. ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخلق، لها جسم الطير وريشه ومخالبه، ورأس الإنسان ولؤمه وخبث طباعه.. كانت هذه الطيور تنزل بساحة القصر الملكي، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام، فتلتهم غداءه، فلا تبقي ولا تذر. وكان الملك في أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها. لأن هذه الطيور لم يكن دأبها أن تبقى علي شيء.. حتى على الفتات.. ولم يكن يردها عن قصر الملك كلما حان موعد الطعام، قتلتهم غذاءه، فلا تبقي، تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم، وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تحير الألباب، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه، وجأر بالشكوى إلى آلهة السماء.

ودهش جاسون، وذهب بالقصة إلى رفاقه الأرجونوت، فتقدم إليه البطلان الصرغامان، ولدي بوريس، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حرباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور، فإما أن يتم لهما النصر عليها، وإما أن تكون لها الكرة عليهما... وصادف الاقتراح هوى في نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذي هش لهما وبش، وفرح بما عرضاه فرحاً شديداً... فلما حان موعد الغذاء، جلس الملك وضيفاه – وكان جاسون قد عاد إلى السفينة – إلى المائدة ثم لم تمضِ لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتدوم، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة، ولم يمكناها من خدش واحد تحدثه ببدنيهما، بل هجما عليها هجوماً ذريعاً، وأخذا يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوي

فوق الأرض فيلطخها بدماء حارة فائرة... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يوناني مبين... ثم فرت بقية الطير... ولكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك، وهتفت به كي يأمر بوقف الملحمة كي تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى... بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة... فقاسمته ملكة الطير، وأشار إلى ولدي بوريس فأغمدا حساميهما. وذهبت الملكة، وعادت بعد قليل في شرذمة من جندها، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها، حملتها، وذهبت إلى غير عود(*)... وبرت قسمها، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً. وشكر الملك لولدي بوريس، وعرض أن يستوزرهما، فاعتذرا شاكرين، ليصحبا جاسون.

* * *

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة في عالم الطير فهبت جبابرته تأخذ بثأر الهاربز، فإنه ما كادت الأرجو تبعد عن شطئان تراقيا، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع في أشعة الشمس كالذهب، حتى إذا كان فوق الأرجو طفق يقذف راكبيها بحجارة مسومة من سجيل، فألحقت بهم أذى كبيراً.. ولم تنفع سيوفهم ولا قسيهم شيئاً، فاختبأت كل كوكبة منهم في قمرتها وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يتسشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيله من هذه الطير، فتكلم الرأس العجيب، فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدثوا صوتاً تنزعج الطير منهم، وتفر مروعة إلى غير عود.. ودعا جاسون جنوده ففعلوا كما أشارت العصا وفرت الطير ذاهلة ممزقة في رحب السماء.

* * *

(*) تعرف هذه الطيور في الميثولوجيا باسم هاربز Harpies وروي أنها نفت نفسها في جزيرة ستروفيد.

وحاقت بهم كوارث أخرى لا حصر لها.. ثم اقتربوا من برزخ سمبلجيدز الذي ليس لمسافر إلى مملكة كولخيس سبيل غيره.. وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عدوتيه صخرة هائلة، فلا تزال الصخرتان تنطبقان وتنفجران، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيرانه هباء عفاء كأن لم يغن من قبل.. وكأين من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما، فحطمتهم وعفت على آثارهم... ولم يدر جاسون ماذا يصنع وجلس رفاقه يقلبون الأكف على ما أنفقوا في مخاطرتهم هذه، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعات وساعات وهما ترتطمان، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتقية الصمم.. وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيها ماذا يفعل، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب، فأشار بأن يطلق جاسون حمامة بين الصخرتين حين تنفجران، ويرى هل تمزق قبل أن تنطبقا عليها؟ ثم يرى، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة..؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا، وكم كان عجبهم شديداً حين رأياها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشة واحدة انتزعت من ذنبها فصارت هباء نثره الهواء واستعدوا للمقاحمة، وطفقوا يقيسون مسافة ما بين البحرين في البحر الذي هم فيه، ثم يطلقون حمامة كالتي أطلقوا، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو.. وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعتها فيها حمامتهم الأولى.. ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة، وأرواح ترتعد فرقاً من الموت في أبدانها، فمرقت السفينة، كما يمرق السهم عن قوسه.. واحربا!! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم.

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة، حتى انسدحوا[*] في الملك يلهثون

---

[*] انطرحوا.

ويتنفسون، ويهنئ بعضهم بعضاً..

* * *

وبلغوا كولخيس بعد عناء وجهد، ومثلوا بين يدي ايتيس ملكها الجبار، فسلم جاسون بسلام الملوك، ثم سئل عن طلبته فقال:

– عز نصر مولاي، لقد تجشمنا مشاق هذه السفرة في سبيل الفروة الذهبية التي يقتنيها ملك الملوك، لأنه نمى إليّ أنها كانت من تراث آبائي.. ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا.

وقهقه الملك ملء شدقيه كالساخر المستهزئ، ثم ربت على كتف جاسون وقال:

– أي بني! أبق على شبابك الغض، وجمالك الفينان، وعلى شباب هذه النخبة أولي القوة والفتوة ممن معك.. أي فروة ذهبية يا بني تبتغي؟ وتراث آبائك من؟! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عيني، وسلخه بين يدي، وضحى باللحم والحوايا(*) للآلهة، ثم أهدى إليّ الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها! ففيمَ إذن تجشمك تلك المشاق، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتي سملجيدز؟، وفيمَ كل تلك المهاوي والمهالك؟ عد يا بني إلى بلادك فهو خير لك، وأبق على حياتك، وانعم بحضن أمك الدافئ، فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان، ومنايا تثير الأشجان والأحزان!

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك، فأخذ ايتيس يعظه وينصحه، فلما رأى تصميمه واستمساكه، قال له:

– "لك إذن ما طلبت يا بني، ولكن اسمع، وأصغ إليّ، إن أمامك مخاطر كنت

(*) الأحشاء.

أوثر ألا تلقي بنفسك في تهلكتها، ولكن ما دمت قد غرتك الأماني وأزهدتك هذه النخبة من أبطال بني جلدتك، فاذهب إذن، وحاول ما استطعت أن تلجم عجلي فلكان الهائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما ويفتكان بكل من اقترب منهما، ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجبوب(**) التي تقدست باسم مارس، فإذا فعلت فازرع ما حرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس باني طيبة، فإنك لا تلبث أن ترى الأرض تنبت جيلاً من المردة مقنعين في الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح، فإذا قدرت عليهم فإن عليك أن تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية، فإذا فعلت، ولا أحسبك تفعل، فإن الفروة لك، كنزاً ليس كمثله كنز، وذخيرة من الذهب الإبريز ليست تعدلها ذخيرة، هذا إلى فخر يرفعك إلى عليين، وينقش اسمك في لوحة الخلود إلى آخر الزمان!"

وسمع جاسون.. وخفق قلبه، ووجبت روحه وجيبا محزناً، ثم أخذ على نفسه عهداً أن يفعل!!

ونصحه رفاقه أن ينكث، وأشفقوا عليه أن يضحي بهم وبنفسه في مثل هذه المهالك، بيد أنه صمم على أن يلجم عجلي فلكان، وأن يحرص بهما الأرض الحبوب، وأن يزرع فيها أنياب التنين، وأن يحارب المردة، فإما هزمهم وإما غلبوه، وأن يقتل الذي يحرس الفروة الذهبية ليفوز بها وليعود إلى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر، فيحكم ويكون خير الحاكمين!

وكان يتكلم أمام رفاقه في شجاعة مدعاة، وفتوة مفتراة، فإذا خلا إلى نفسه حزن أشد الحزن، وأسلم نفسه للتفكير العميق.. ثم استوحى عصاه السحرية، فقالت له: إنه ينبغي عليه أن يلقى ابنة الملك الأميرة ميديا، فإنها مشغوفة به حباً منذ أن رأته يحدث أباها.. وأنها تكاد تجن به جنوناً.

(**) الغليظة.

– وكيف ألقى ميديا هذه يا معجزة جونو الحبيبة؟

– اتصل بإحدى عجائز كولخيس تقضِ حاجتك.

– ومتى ألقاها وأين؟

– يا لك من فتى؟! ألم تسمع من يقول: وكم لظلام الليل عندي من يد؟ ألقها في جنح الليل، ولتكن له يد عندك، وألقها في حديقة قصر أبيها الملك!

– ولمه؟ ألست ابن ملك مثلها؟ ألست صاحب عرش عظيم؟ أليس لي ملك تساليا بعد أن أعود من رحلتي هذه؟

– بلى يا بني! ولكنها تخشى أباها أشد الخشية. أليس يرى فيك عدوه الأكبر لما تريد من استلابه الفروة الذهبية التي هي أكبر كنوزه؟

– دعي هذا اليوم يا أماه، ولكن طمئنيني كان الله.. هل تحبني ميديا حقاً؟

– ومن أنبأك هذا؟..

– نبأتنيه ربة من السماء لا تضل ولا تنسى..

– ربة؟ تقدس اسمها؟! من عساها تكون يا ترى؟

– هي جونو يا أعز الأمهات؟ لا أكذبك، أنها جونو!

– أتعرف ما تقول؟

– وهل يكذب بشر على آلهته؟

– إن كان ما تقول حقاً. فلا أذيع سراً أذاعته سيدة الأولمب، ومليكة جوف الكبير المتعال، إن ميديا يا بني مولعة بك ولوعاً شرد المنام من عينيها، وجعلها في أيام

معدودات طيفاً لا يردد لسانه غير اسمك، ولا تذرف عيناه إلا من أجلك.. و..

– ميديا تبكي؟ ومن أجلي؟ ولِمَ تبكي؟

– تبكي لأنك كلفت بأمور لا تحملها الجبال! وأين أنت من عجلي فلكان والأرض الجبوب التي لمارس؟ ومن أنت والجيش العرمرم من المردة من نبات أنياب التنين؟ ثم من أنت وما هذا كله في مواجهة التنين الهائل الذي يحرس الفروة؟ حقاً لقد جازفت بنفسك حين وافقت الملك على خوض تلك المخاطرة..

– وما الرأي إذن، ولابد مما ليس منه بد؟

– الرأي أن تلقى ميديا فهي حبيبتك، وأن عندها، فضلاً عن ذلك، أم كتاب السحر، ولن تبخل عليك بعلمها مهما كلفها ذلك من حنق أبيها، وإغضاب أربابها.

* * *

لقد كان الليل يضرب على الدنيا بجرانه، وكانت النجوم تلتهب في فحمته كقلوب المحبين، والفرقدان يتقدان من هول الزيارة المطلوبة بي العاشقة المدلهة، والفتى المقاحم ذي الآمال..

وأقبل جاسون فوجد العجوز تنتظره عند الباب الخلفي... وهمست إليه، فسار في أثرها، حتى كانا عند منعرج مسوج بنبات ذي عسالج، يؤدي إلى رحبة واسعة ينتشر في أرجائها أرج الورود والرياحين، حتى ليوقظ القلوب النائمة، ويعطرها بفغمة الحب ويسكرها برحيقه المختوم، الذي كله لغو وتأثيم!

وهناك، كانت تنتظره ميديا بنفس غرثى(*)، وقلب ظامئ خفق، فلما رأته غمرها إحساس ثائر، واستولت عليها عاطفة صارخة، لم تستطع معها إلا أن تلقي

(*) غرثى: جائعة والمراد مشوقة.

بنفسها على صدره القوي الرحب، تبلله بدموعها..

ووقف جاسون ساكناً هادئاً، كأنما كان يوجس خيفة من هذا الحب الذي أقبل فجأة يهاجمه ويداراً عليه، ويدفع بعضه بعضاً من حوله.. لقد كان قلبه بارداً كالثلج، وذراعاه جامدتين كالرخام.. وكانت ميديا تبكي وتنثر اللؤلؤ من عينيها المرتجفتين، ولكنه لم يستطع أن يرد تحية واحدة من تحايا هذه الدموع.. وكأنما كان يحس، حينما كانت الفتاة تلف ذراعيها حوله، أن حية رقطاء تتحوى عليه، وتنفث سمها فيه.. لماذا؟ لم تكن إله الآلهة وحدها تدري!!

– جاسون.. أحبك.. أحبك من أعمق أغوار قلبي! لم أكن أعرفك قبل أن رأيتك من الشرفة تكلم أبي، فلما رأيتك فنيت فيك..

– أشكرك يا عزيزتي.. أشكرك شكراً لا أدري كيف أعبر عنه!

– جاسون! ألا تكون لي الأبد؟

– أنا خادمك.. بل عبدك إذا شئت!

– لم رضيت لنفسك ما عرضه عليك أبي يا جاسون؟

– وماذا يخيفني يا ميديا؟ نحن الإغريق لا نرهب الردى، ولا نخاف الموت!

– هذا جميل.. ولكن الموت أكره الأشياء وأقبحها لمثل هذا الشباب!

– قد انتصر، والنصر لاسيما في المخاطرات، أجمل تاج يتألق على جبين الشباب!

– هذا محال إذا لم أساعدك!

– تساعديني؟

– أجل!

– وكيف؟

– عدني أولاً!

– وبماذا أعدك يا أعز الناس!

– أن تكون لي.. أن نتزوج!

– أعدك!

– بل أعطني موثقك!

– أقسم لك!

– بل أحلف بجونو، فهي حارستك واحلف بهياكاتيه!

– أ.. أ.. أحلف. أحلف بجونوا وبهاكاتيه!

– تحلف بجونو ماذا؟

– أحلف بجونو أن نتزوج!

– وأن يعيش كل منا للآخر إلى الأبد!

– أ.. أ.. إلى الأبد؟!

– إذن.. لا ضير عليك.. ستنجو من كل شيء يا جاسون.. خذ!..

– ماذا يا ميديا؟

– أسلحتك التي تقيك!

– أسلحتي.؟ هاتان علبتان.. وهذا حجر أسود صغير! أكل هذه أسلحتي؟ ماذا أصنع بها؟

– علبة من فضة إذا فتحتها اصاعدت منها ريح تفل من حدة عجلي فلكان، وتقي وجهك حر النار التي ينفثانها من منخريهما، فتستطيع أن تلجمهما وتضع على عنقيهما النير حتى يكون المقوم(*) بيدك، أما الحجر الأسود الصغير فتقذفه وسط المحاربين الذين تنبتهم أرض مارس الجبوب، وإنه لحجر مسوم من سجيل، يجعلهم كعصف مأكول! وأما العلبة الصغيرة الذهبية فتنثر مما بها من طيب في وجه التنين، فيسكر وتتخدر أعصابه وينام لساعته، ولك عندها أن تقضي عليه..

وسكتت ميديا..

ومدت فمها إلى جاسون، فطبع عليه قبلة فاترة خائفة ترتجف وترتعد، مما سمع من سحر الحجر الأسود، وريح العلبة الفضية، وطيب العلبة الذهبية!!

* * *

وكان الجو العبوس القمطرير يزيد في منظر الحفل الحاشد روعة ورهبة، وكان الملك الجبار يملأ بجسمه الضخم، عرشه الممرد، فوق الأكمة المشرفة على الأرض الجبوب المقدسة باسم مارس، وكان الناس الذين أقبلوا من كل فج مشاة وعلى كل ضامر، يجلسون على الشعاف وأحياد الجبال المطلة على الميدان، متزاحمين متدافعين كأنهم في يوم حشر... وكان إخوان جاسون يجلسون عصبة بينهم وفي قلوبهم حسرات على صاحبهم، وألسنتهم ما تفتر عن الدعاء له، والتوسل إلى الآلهة من أجله.. وكانت ميديا العتيدة تجلس في ركن من مقصورة الملك تشعوذ وتعوذ وتطلق الرقى..

ثم دق الناقوس الكبير فصمت الناس وشملهم سكون عجيب.. وانفتح باب

(*) المقوم الخشبة بين الثورين يمسك بها الحراث، أما النير، فالقصبة التي تشد المحراث على عنقيهما (الثعالبي).

الزرب فبرز عجلا فلكان، ثم جعلا يعصفان ويتلبطان(**) وينفثان من منخريهما شرراً وذخاناً يختلط بهما لهب أزرق، ما مس شيئاً في الميدان إلا حرقه.. حتى العشب الرطب المندى، بله الهشيم اليابس..،.. وبرز جاسون من مكمنه، فانحبست أنفاس الناس، وسكنت الريح، وأشرف الآلهة من نوافذ السماء تنظر إلى هذا اللقاء العظيم.. وأهطع(*) أصحاب البطل، وطارت ألوان وجوههم، وتحسس كل منهم فؤاده... ولكن جاسون الهائل خطر شطر العجلين غير هياب، وعليه دروعه، وفي يده سيفه، فلما كان قاب قوس منهما، جعل يتلطف بهما، ثم فتح العلبة الفضية فصعدت منها ريح هدأت ثورتهما، وأسلست قيادهما، فأسرع إلى النير فوضعه على عنقيهما، وشد وثاقه، ثم ربط إليه المحراث وبدأ عمله الشاق.. وكانت الريح السحرية قد بطل عملها أو كاد، فعاد العجلان إلى سابق دأبهما من التوحش والقماص والشبوب(**) وعاد منخراهما يقذفان دخاناً أبيض وشواظاً.. بيد أن جاسون سيطر عليهما حتى أتم حرث الأرض كلها، ثم قادها إلى زربهما وأطلقهما، وغلق عليهما، وقصد ناحية الملك يسأله أنياب التينين ليزرعها.. فدفعها الحراس إليه، وطفق يغرسها في الأرض الرحبة، حتى إذا فرغ من عمله، نظر، فإذا رؤوس مقنعة في خوذات من حديد تنبت من الأرض، ثم تنمو فتبرز الرقاب، ثم تظهر الصدور وعليها الدروع السابغات، ثم تشقق الأرض وتكون الجذوع كلها من فوقها، وتخلص الأذرع وفي أكفها السيوف المرهفة تلاعب الهواء.. ثم ترتفع الأفخاذ وعليها كل لامة دلاص(***)، ثم يقف أمام جاسون جيش عرمرم من هذه الشياطين المسلحة ترغي وتزبد تزأر، ثم ينقض عليه الجيش بأكمله، وقد شرع كل جندي حسامه، فيتلقاهم البطل بأحسن ما علمه شيرون أستاذه العظيم من قوة في كر، وحزم في فر، وحذق في تحرف لقتال، ورسم لخطط النضال.. وكان

(**) الأعصاف السير السريع الذي يثير الأرض، ويتلبطان يختلطان في سيرهما.

(*) مدوا رؤوسهم.

(**) أن ترفع الدابة يديها غاضبة.

(***) الدرع الواسعة السابغة.

الملك ينظر إلى كل ذلك ويتعجب، وكان الشعب يفغر أفواهه من دهش وذهول.. وكانت ميديا- برغم ما سلحت به جاسون من سحر- تمسك قلبها الخفاق بيدين مرتجفتين.. أما رفاق جاسون، فوا رحمتاه لهم! لقد كانوا يرون الأبالسة يحدقون به من كل صوب، ويزلزلون الأرض تحت قدميه، فتزيغ أبصارهم وتتقلب قلوبهم، وتتثلج مشاعرهم، وينظر بعضهم إلى بعض، لا يملكون لهذه رداً ولا دفعاً..

وظل جاسون يناضل ويناضل، وكلما قتل عشرة وقفت مائة مكانها، وكلما جندل مائة بدلت بألف فانقذف شيء من الرعب في قلبه، وسرى إلى نفسه دبيب من اليأس كاد يقتله لولا أن أقبلت جونو تكلمه في بسمة روحت عن قلبه، وتذكره بالحجر الأسود.. ولكن الحجر الصغير الأسود كان في جيب صداره، فأنى له به ولو غفل لحظة عن الدفاع عن نفسه لباء بقتلة شنيعة يقطر سمها من ألف ألف سيف!!

وجعل المسكين يحاول مرة بعد مرة أن يخرج الحجر الصغير الأسود.. ولكن محاولاته كلها ذهبت سدى.. وكان قد بلغ منه الجهد، وتولاه الإعياء والضنى.. فلهج لسانه فجأة باسم جونو.. فأسرعت سيدة الأولمب لنجدته، وأخرجت الحجر الأسود من جيبه، ووضعته في يده، فقذفه جاسون وسط جيش الأعداء الحدقين به، فما هي إلا طرفة عين حتى تفرقوا من حوله، ثم تصرعوا غير مأجورين.. وماتوا جميعاً.

وأهرع أصحاب جاسون إليه، وطفقوا يحيونه ويهنئونه ويذرفون حوله دموع الفرح لما كشف عنه من غمة هذا البلاء، ثم حملوه وهم يهتفون أحر الهتاف، وأهرعت الجموع الزاخرة في آثارهم نحو البحر، وهي لا تفتأ تردد صيحات الإغريق، حتى خاف الملك على عرشه أن يثله شعبه، وأن يجلس عليه جاسون.. لذلك أربد وجهه، وانتشرت عليه سحابة من الكآبة والهم تملأ أساريره.

وبلغ الإغريق سفينتهم فشكروا للكولخيين جميل ما حيوا به بطلهم ثم خلوا بعد ذلك إلى جاسون فنضوا عنه ثيابه، وضمخوه بالطيوب والعطور، ثم هيأوا له طعاماً

وشراباً، من أفخر ما يقتنون. وفي الليل أسر لهم بسره وانطلق ليلقى ميديا.

ولقيته ابنة الملك بابتسامة لم يجزها عليها بمثلها... ثم تركها وقتاً غير قليل تغمره بقبلها وتنضح يديه وخديه وجبينه بدموعها، وتعبر له عما كان يقيمها ويقعدها حينما انبرى لعجلي فلكان، وحين أحدق به أبالسة التنين يقاتلونه ويتكاثرون عليه، وهو صابر لهم، ثابت لجموعهم، حتى قذف الحجر فانقذفت في قلوبهم المنايا.

– أرأيت إذن يا حبيبي ما صنع الحجر الأسود من الحجر؟ أيقدر على مثل ذلك غير من أوتي من العلم ما أوتيت؟

– كلا!

– ما لك لا تتكلم يا جاسون؟

– الفروة الذهبية! أريد أن أفرغ من هذا الهم الطويل؟!

– الفروة الذهبية لك من غير ما ريب، فلا تبتئس! قبلني!

وطبع على ثغرها قبلة ميتة كانت ترتجف من شياطين السحر التي ترقص دائماً في فم ميديا... وانطلقا إلى الجانب القصي من الغابة المجاورة، حيث كان التنين الهائل يحرس الفروة المعلقة على شجرة السنديان، وهناك، فتح جاسون العلبة الذهبية ثم اقترب من التنين في غفلة منه، وقذف في وجهه بما كان فيها من قطرات السحر... فترنح الوحش المخيف الرائع، واستل جاسون جرازه، وأغمده في صدر الأفعوان الكريه، فخر يتلبط في دم غزير... وانقض الفتى على الفروة الثمينة التي ترجح ألف كنز فانتزعها من الشجرة.. وعادا عجلين إلى القصر الملكي الرهيب، حيث كان وصيفاتها في انتظارها، وقد جمعن كل ما استطعن حمله من أذخار القصر، كما رسمت لهن ميديا من قبل، وحين أوشك الجميع أن يغذوا السير إلى الآرجو... إذا بالفتى أبستروس، أخو ميديا غير الشقيق، وولي عهد الملك، يقبل لبعض شأنه، فتغريه أخته

بالسفر معها في رحلة جميلة إلى أبدع بلدان العالم... تساليا... ويرضى ولي العهد... وينطلق الجميع إلى المرفأ حيث رست الآرجو، فيركبون فيها، وتقلع بهم في موج كالجبال.

* * *

أقلعت الآرجو وطفقت تطوي عباباً من بعده عباب، ولجة من ورائها لجة، وبدا الطريق كأنه يطول، والأفق كأنه يحلولك، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز ايتيس وابنته وولي عهده...

ونمي الخبر المفزع إلى الملك فجن جنونه، وهب من فوره يعد أساطيله ليقتفي آثار جاسون، عسى أن يقبض عليه، ويعود بابنيه وأعز كنزه... وانطلق هو الآخر يطوي العباب، ويتواثب بأسطوله فوق أعراف الموج، ووقف بين الملاحين يحضهم ويحرضهم، ويستحثهم ويشجعهم، حتى لاحت الآرجو لهم كالنكتة السوداء في حمرة الشفق، أو المطوقة الورقاء في صحيفة الأفق، فضاعفوا الجهود وشدوا الأذرع، واستبقوا إليها من كل فج، وكانت سفينة الملك في المقدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب، ونظر الأرجونوت فأبصروا السفينة تنقذف فوق نواصي الموج نحوهم، فراحوا بدورهم يعملون المجاديف ويهدهدون الشراع للريح، وكلما اقتربت السفينة خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر، وكانت ميديا تنظر إلى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الفرق... وفكرت في ألف حيلة وألف سحر، ولكن أفكارها ذهبت كلها أباديد، وبطل سحرها كله، فهو لا ينفع ولا يفيد... واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رمية سهم... وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادي، ويتوصل أن ترد إليه ابنه.. ابنه الأوحد.. أبستروس... "ميديا! ابنتي! أنا أبوك! أتوسل إليك! ردي علي ولدي واذهبي أنى تشائين! إنه أملي في الحياة! إنه ولي عهدي وحافظ ذريتي! ميديا! أرسليه في زورق واذهبي أنت...!" ولكن الفتاة غلقت فؤادها وسدت بالجحود سمعها! واأسفاه! يا للقاسية! يا لبرودة القلب الذي لا يحس، والنفس التي لا ترحم؟ لقد أمرت ميديا بالفتى فأحضر إليها، ثم شحذت سكيناً وأغمدته في صدره، وتدفق الدم

الحار... دم الشباب الفينان... يلطخ اليد الأثيمة المجرمة... اليد الشقية، يد ميديا التي طوعت لها نفسها المغلقة قتل أخيها، ثم تقطيعه إرباً..؟

* * *

ماذا خطر برأس الساحرة؟ أواه! لقد أخذت تمزق أخاها مزقاً مزقا، وكلما اقتطعت منه شلواً قذفت به في الماء، وأبوها المسكين المجنون يرى، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشله، ثم يتلبث عند الشلو الذي يليه... وهكذا دواليك، حتى انتشل آخر الأمر الرأس العزيز... الرأس الصغير الذي كان يبسم لاينع الآمال، ويحلم بأجمال الأماني... رأس أبستروس... ولي العهد، والأمل المدخر لأمة بأسرها...

لقد انتشر الظلام في عيني الملك... وغمر قلبه قنوط مر... وأمر الملاحين فطووا الشراع، وأخذوا يعودون أدراجهم إلى الوطن في بحر هادئ كله هم، وكله حزن، وجلس ايتيس وبين يديه أشلاء ولده يغسلها بدموعه، ويخضبها بالدم الذي تذرفه عيناه.

– آه يا بني! أية فروة وأي كنز؟ ليتك خلصت لي بكل ملكي! ميديا! غضبت عليك آلهة السماء يا عاقة! تبت يداك يا أغدر البنات! ألا ليت أمك لم تلدك...! أبستروس! رد علي أيها الحبيب...!" وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد إلى الوطن!

ولكن جاسون ما خبطه؟! مسكين! لقد كان ينظر إلى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب هذا الإثم... لكنها حدجته بنظرة آمرة كان يرقص فيها ألف جني، فسكت! وهل كان في وسعه أن يفعل شيئاً؟! أليس يذكر الحجر الواحد الصغير الأسود الذي أهلك جيشاً بأكمله؟ ورد عنه كيد ألف ألف مقاتل من المردة الجبابرة؟! بيد أنه عرف ماذا يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل! لقد كان السر الرهيب المطوي في صحائف الغيب هو الذي يصون جاسون من مبادلتها حباً بحب وغراماً بغرام، وقبلاً حارة ملتهبة بمثلها!

وقد فكر جاسون في ملكه الضائع المغتصب، وفي أبيه الضعيف الطريد، وفي عمه الجبار العتي، وفكر في قوة ميديا الخارقة، فآثر أن يبقي عليها عسى أن تنفعه... لهذا أظهر لها التودد، وتعمل في حضرتها البشاشة... حتى وصلت الآرجو إلى ايولكوس، حاضرة تساليا..

وحمل جاسون الفروة الثمينة، وقصد إلى عمه...

وذهل بلياس... وجعل يحملق في الكنز العظيم الذي أتاه به ابن أخيه... وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق... ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه ببصر عينيه جميعاً؟!

– "ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كولخيس على هذا الكنز العظيم؟ إن الملك كان أحرص عليه من نفسه التي بين جنبيه؟ ألا كم هلك أناس طمعوا في فروة فركسوس؟ عجلا فلكان! وأرض مارس! وجيل بأكمله ينبت من أنياب التنين...؟ والأفعوان الهولة الذي يحرس الفروة؟ أظفر جاسون– هذا الفتى– بكل أولئك؟ جاسون ابن أخي؟ عجيب وحق الآلهة...؟ بل أساله، فلا بد من سر في هذا الأمر..." وسأله، وتبسم جاسون، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب في جوانح عمه، وظل يتغنى بشجاعته، ويصف ما كان من ظفره بعجلي فلكان، وحرثه الأرض الجبوب، وغرسه أنياب التنين، ثم هذه الحرب الزبون التي شبها عليه المردة وما كان من أفنائه لجموعهم، وتلك الملحمة التي قتل فيها التنين الرهيب الذي وكلت إليه حراسة الفروة العظيمة... ثم أنه لم يشر بكلمة إلى ميديا.

وأكرم عمه مثواه وطلب إليه جاسون أن يتنزل له عن العرش، فمطله، وراوغه، وزخرف له الأماني، حتى أيقن جاسون أن عمه يعبث به، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها، ولا يعكر عليه صفو الحياة أي من تلاميذ شيرون.

* * *

ولقى جاسون أباه فراعه أن يرى كومة من العظام، نخرها الكبر، وجللها المشيب، وأوهاها الحزن، وأوهنها الألم المتصل، وناءت تحت كوارث الزمان... وبكى جاسون! ولكن أباه انتهره وقال له: "أي بني! ليس لرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكي!! إنما يبكي النساء والمستضعفون من الرجال. على أنه ماذا يبكيك؟ ألا إن كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش، فلهذا عهدت بك إلى أستاذك العظيم، وأحسبه قد ذكر ما كان من وصاتي له حينما عهدت بك إليه يهذبك ويؤدبك، ولقد أصبحت رجلاً شيخاً هالكاً، أما أنت فمن صباك في إبان، ومن عنفوانك في ريعان، وأنت بالعرش أحق مني وأولى، وهو بك مني ومن عملك أليق، ولن أغفر لك قعودك عنه، وليس في تساليا إلا شعب يحبك ورعية تلهج بالثناء عليك، فشمر عن ساعدك، واطلب حقك بالقنا يا جاسون".

وذهب الفتى، وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النقمة على عمه، فلقي أول من لقي ميديا.

– ماذا، فيمَ أنت مقطب هكذا يا حبيبي؟

– لا شيء... لا شيء مطلقاً!

– لا شيء؟ وكيف؟ ألا تفهم ميديا ما في نفسك؟ حدثني ولا تخفِ عليّ!...

– لا شيء وحقك يا ميديا

– أومصر أنت على كتمان دخيلتك عني؟ إذن لقد كان أبوك يعظك!

– أجل! وبهذه المناسبة أريد أن أقول كلمة...

– قل يا حبيبي! تكلم يا جاسون!

– إن لك إلماماً تاماً بغرائب السحر، وعلم التعاويذ والرقى، ولقد نفعني

علمك في أحرج مواقفي... ولن أنسى مساعدتك يوم لقيت عجلي فلكان، وحاربت المردة، وقتلت التنين... إنما فعلت كل أولئك بمعونتك، ولي راء إليك...

– رجاء؟ أي رجاء يا حبيبي؟ إنما لك أن تأمر...

– شكراً..! ألا تستطيعين يا ميديا أن تردي الشباب إلى أبي؟ إنه رجل شيخ محطم، وإن الأيام لتنحدر به إلى القبر، كما تنحدر صفوانة من شاهق.. فهل عزيز على علمك أن ترديه إلى ما ولى من الصبا؟... خذي من عمري فصلي عمره إن استطعت! أتوسل إليك يا ميديا أن تفعلي!..."

– اطمئن يا حبيبي فليس أيسر مما طلبت، وسأرده إلى ميعة شبابه بقليل من العناء... وسأزيد في عمره ما أحببت على ألا تنقص سنوك شيئاً بل تزيد إن شئت؟!

لقد كان البدر تاماً والليل الفضي الجميل أروع ما ينثر لجينه على الطبيعة النشوانة(*)، وكل ما في البرية نائماً ساكناً والعشب الحلو كان نائماً كذلك... وكانت ميديا تخطر كالشبح الأبيض بين الآكام وملء الأدغال، حتى أتت إلى ربوة تشرف على كل ما حولها فصعدت فوقها... وتلبثت قليلاً تفحص الطبيعة الرائعة في الأرض والسماء بعينيها الجبارتين، ثم بدأت تتلو تعاويذها وتقرأ رقاها... وتصلي للنجوم صلاة سحرية كان يحملها الليل الصامت إلى أرجاء السماء، وإلى القمر الحالم الساهم... ثم سحبت سبحاً طويلاً باسم هيكاتيه ربة السفر والسحر، وباسم تللوس ربة هذه الأرض العجيبة النائمة التي تنبت البقل والعشب لما تعمل ميديا، وصلت كذلك لآلهة الغاب والأنهار والبحار، والغدران، ولآلهة الرياح والضباب والسحاب، وصلت لجميع الآلهة، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل الرقى...

* * *

(*) المشهور نشوى وقد استعملنا هنا لغة بني أسد ككرانة.

ثم سكتت، وصمت من حولها كل شيء، حتى الرياح كتمت أنفاسها، ثم تشققت السماء فكانت وردة كالدهان... ثم انفتح باب كبير من ذهب، وبرزت منه عربة عجيبة يجرها أفعوانات هائلان، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمي ميديا... وتقدمت الساحرة وهي تبتسم، فركبت في العربة وانطلق الأفعوانان يجرانها في الهواء، ويرفان بها فوق الوديان والغيران، وفوق قلل الجبال وهضاب الأرض، وفوق الغاب الساكن المستسر، وفوق الأنهار والبحار.. حتى انتهت إلى آخر أقطار الأرض، حيث تنبت الأعشاب العجيبة التي تنفعها في سحرها... وهناك... مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقي البقل ذا الأسرار، ثم ركبت عربتها، وانسابت في الهواء حتى أتت بيت جاسون، فنزلت بحملها العجيب، وعرج الأفعوانان في السماء...

* * *

وفي الصباح، فوجئ جاسون بوجودها فذعر ذعراً يشوبه شيء من التفاؤل بعودة الشباب إلى أبيه كما وعدت... وأمرت أن يخلي بينها وبين ايسون حتى لا ترى عين إلى ما تصنع، ولا تنكشف أسرار سحرها لأحد ما من العالمين. ثم أنها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتيه ربة السفر والسحر، والآخر باسم هيب ربة الشباب، وذبحت لكلٍ شاة سوداء فاحمة السواد، ثم صبت على دمائهما صلاة للربتين من خمر ولبن... وتوسلت بعد ذلك إلى بلوتو رب هيدز، وإلى زوجته برسفونيه ألا يعجلا بقبض روح ايسون. ثم بدحت(*) نحو الرجل فتمتمت برقية أسلمته إلى نوم عميق، وأضجعته على فراش مهدته له من الأعشاب العجيبة التي حملها من أقصى الأرض، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة، وشعرها المتهدل يداعبه النسيم، وصدرها المنكشف ناهد نحو السماء.. حتى إذا أتمت دورات ثلاثاً وقفت وشحذت سكيناً ماضياً، وجعلت تشعل أعواداً من عشبها وتنظمها حول المذبحين. ثم تناولت أدواتها التي حفظت بها أعشابها ذوات الأسرار، وحفظت بها أزهاراً فيها من الرحيق

(*) اتجهت إليه.

السحري ما هو آية، وجعلت فيها من حجارة الشرق ورمال البحر المحيط، ومن البرد الذي جمعته أثناء رحلتها في ضوء القمر، وجعلت فيها رأس بومة وجناحيها وحوايا ذئب، وبقايا من صدفة سلحفاة، ومزقاً من كبد غزال، ورأس غراب ومنسره، وما إلى أولئك من آثار الحيوانات المعمرة، ثم صبت على ذلك كله ماء وتمتمت بكلمات، وأشعلت ناراً فجعلت عليها الأداوة بما فيها، وتركتها تغلي وتفور، وهي فيما بين هذا وذاك تعوذ وتهمهم وتتمتم وتغمغم، ثم تقلب ما في الأداوة بغصن زيتون أملود... فما كان السائل يفور حتى نمت في الغصن أفنان من الورق الأخضر وحبات من الزيتون، يكاد زيتها يقطر منها، وكلما نثرت منه على الأرض شيئاً نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ما ينمو العشب في إبان الربيع!

* * *

ثم شحذت سكينها مرة ثانية، ثم أهوت على حلقوم الشيخ فقطعته، وتركت دمه ينبجس من الجرح الكبير حتى سال أجمعه، ثم أنها صبت من الأداوة في الجرح وفي الفم، كأنما تجعل منه مكان ما سال من الدم. وما هي إلا لحظة حتى دبت الحياة الفتية في جوارح الرجل المهدم المحطم... فهذا شعره يسود ويصير فاحماً غربيباً... وهذا وجهه الجعد ذو الأسارير يمتلئ باللحم وبالدم، وهذا ظهره المحني يستقيم ويمتلئ قوة وعنفواناً، وهذا دم الشباب يجري في عروقه كما كان قبل أن يكتهل، وها هو ذا يثب كالغلام الأمرد السمهري، ويشب على أخمصيه كأرشق ما يفعل الصبيان! وها هو ذا الوجه يكتسي جمال العصر الخالي... ثم ها هو ذا جاسون يقبل من بعيد فينظر إلى أبيه وكأنه في حلم... ويعانقه ويهنئه... ويشكر ميديا... ويبكي!!

– أرأيت يا حبيبي؟ أليست لك حاجة بعد؟

– وكيف يا ميديا؟ إني مفتقر أبداً إلى واسع علمك ومبين سحرك!

– أمهمة أخرى؟

– أجل يا ميديا! ألا ترين إلى والدي مطروداً من عرشه، وأن الحزن يقتلني من أجل هذا؟ ألا تصنعين شيئاً ينفعنا في ذلك؟

– ولم لا تقتل عمك؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه الجرائم؟

– أنا ضعيف يا ميديا... وهو رجل جبار وله جند...

– إذن أنا أكفيك مؤونة ذلك...

* * *

وأخذ ايسون يجوب شوارع المدينة فيراه الناس، ويعجبون لهذا الشباب الذي تدفق في برديه، فيسجدون له، وإن منعهم الجند وطاردوهم... وعلم بنات الملك بما ردت ميديا إلى عمهن من رونق الصبا، وما ألبسته من رواء الشباب... وكان أبوهن قد بلغ منه الكبر، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب، فوددن لو أتين بميديا لتصنع معه ما صنعت مع ايسون... واتصلن بالساحرة، وأغرينها بالمال، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد إلى أبيهن الصبا، حتى لا يغلبه على الملك ايسون ولا ولده جاسون... وأحضرت الأداوة بما وعت من عشب، ثم جيء لها بالشاة السوداء، ولكنها حين تمتمت بكلماتها السحرية، وكانت الأداوة تغلي بما فيها من سائل عجيب، قفزت الشاة فكانت في أداوة، ثم قفزت منها فكانت حملاً وديعاً جرى إلى السهول يرعى العشب... وطرب البنات حين شهدن آية السحر وإعجازه.. ثم جيء بالملك وحراسه ليشهدوا... وأعطت ميديا كلا منهن سيفاً مسلولاً وتمتمت بكلمات فدارت الأرض برأس بلياس وصحبه وحراسه، فسقطوا وغطوا في سبات عميق... وأشارت ميديا إلى البنات أن يضربن بسيوفهن عنق أبيهن وصدره، لتبدأ هي عملها... فتلكأن أول الأمر.. ثم أطعن، وحركن أيديهن بالسيوف في ضعف وفرق، فأحدثن به جروحاً أيقظته.. فلما شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن: "ويلاه! بناتي يقتلنني؟!" وخافت ميديا أن يبطل سحرها، فبدت في صورة إحدى بناته، واستلت سيفاً مرهف السنان،

وأغمدته في صدر الملك اللص.. فمات إلى الأبد، وأغمض عينيه ليفتحهما في هيدز، وفي هيدز فقط!

وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت إليها العربة التي يجرها الأفعوانان، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبلج، فركبتها ولاذت بالفرار، قبل أن يكشف صنعها أحد!

سبحان مقلب القلوب! إن كل هذا السحر لم ينفع ميديا لقد كان قلب جاسون مغلقاً دونها برغم أنه بر بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالاً أبرياء أطهاراً أنقياء كالثلج!! لقد أحب جاسون الأميرة كروزا ملكة كورنث وأحب هذه المرة حباً صريحاً لا يشوبه ذعر، ولا تعكره التعاويذ، ولا تتلفه رقى السحر.. وأعلنت الخطبة، فجن جنون ميديا! واسودت الدنيا في قلبها وعينيها.. وهالها نكران جاسون جميلها الذي ناله مثنى وثلاث ورباع.. ولم لا؟ أليست هي التي مهدت له سبيله إلى العرش؟ أليست هي قاتلة بلياس؟ إذن، فالويل له!!

ودست إلى أميرة كورنثا ثوباً لو اجتمعت الجن والأنس لم تقدر على مثله، فلما كانت ليلة الزفاف، لبسته كروزا، ولكنها ماتت لساعتها! أواه! لقد كان الثوب مسموماً، وكان ما به من سم يكفي لقتل شعب بأسره!

ولم تكتف الساحرة بذلك، بل شحذت سكينها، وأعادت مأساة أبستروس، فقتلت جميع أبنائها من جاسون.. وأشعلت النيران في القصر الملكي، وفرت إلى أثينا على العربة السحرية لتتزوج من ملكها ايجيوس، ولتلقى ثمت مصرعها!

فينوس[*]

ربة الجمال والحب

تعالوا يا أعزائي المحبين نسمع أغنية الجمال والحب، من ربة لجمال والحب، بارزة من الثبج، فوق الموجة الكبيرة، وسط اليم.

لقد كانت السماء زرقاء صافية، ولكنها لطفت ورقت وتضاعف صفاؤها، عندما ذاع في ملكوتها النبأ العظيم، وبشرت بمولد فينوس!

ابتسمي أيتها الشفاه الحزينة، وانبسطي أيتها الأسارير المقطبة، واثلجي يا صدور المكلومين!

وأنت أيها القلب الملتاع قف خفقاتك، وأنت أيها الطرف الساهم كفكف عبرتك، ويا نفوس العاشقين اطربي، فقد ولدت فينوس!

برزت عرائس البحار يصلين في بكرة الصباح لأبوللو، فما راعهن إلا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الأبيض كما تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية، وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نوراني فيسجد الماء تحت قدميها الصغيرتين، متمتماً بصلاة الحب لربة الحب، مرتلاً أنشودة الجمال لربة الجمال!

وافتر فم الدنيا عن ابتسامة سعيدة حلوة، يحيي الفم السعيد الحلو، الذي سيملأ قلوب العالمين رضى وسعادة!

وأشرقت ذكاء تحمل أبوللو، فلمح السوسنة الوردية تخطر على لازورد الماء،

---

[*] اسمها اليوناني أفروديت، وسميت في أساطير كثيرة ديون، كوثيريا، وهي آلهة الجمال والحب، وربة الضحك والزواج.

فترك عربته المطهمة بالذهب تعرج وحدها في القبة الزرقاء، وانثنى هو يزف البشرى إلى آلهة الأولمب!

وهرعت عرائس الماء إلى فينوس الطفلة فرقصن وزغردن وتغنين، وحملنها إلى قصورهن المرجانية في الأعماق، حيث أرضعنها لبان الهوى، ولقنها كلمات المحبة، ونشأنها على أساليب الصبابة والغرامة، حتى أينعت وترعرعت، فأزمعن المسير بها إلى الأولمب حيث يتلقاها الآلهة، فتأخذ مكاناً بينهم..

وكم كان جميلاً رائعاً أن يصطف التريتون والأوسيانيد والنيريد(*) من حولها، وكم كان جميلاً رائعاً رقص التريتون على صفحة الماء الجياش بالزبد، وتغريد الأوسانيد كأنها بلابل الروض الأخضر ترسل في هدير المحيط شدوها فيحور غناء كله!

وكم كان جميلاً رائعاً من النيريد أن يتضاحكن مترنمات في الحلقة الأولى حول فينوس فتستجيب السماء لهن، ويميد البحر من طرب بهن!

كم كان جميلاً رائعاً أن يخب موكب الحب فوق الماء، حتى يكون على فراسخ من قبرص معدودات، فينثني الجميع، إلا فينوس التي يهدهدها زفيروس الطيب، رب النسيم الجنوبي، حتى يصل بها الشاطئ، حيث يكون في انتظارها بنات ثيميز(**) ربة العدالة، وبنات يورينوم ربات الفضيلة والخلق الحسن، فيتقدمن إلى ربة الحب، فيصلين لها، ويجففن شعرها الذهبي المتهدل فوق كتفيها العاجيتين، ثم تدلف بينهن، لفاء هيفاء، غراء غيداء، مهتزة الجيد، وضاحة الجبين، كلما خطت خطوة قبلت الأرض قدميها المعروقتين، وكلما مرت ببلقع اهتز وربا، واعشوشب وأزهر، حتى يلقاها آلهة الحب الأربعة، رب الشهوة هيميروس، ورب الغزل سواديلا، ورب الألفة

(*) التريتون هم أبناء إله البحار ونصفهم الأعلى نصف رجل والأسفل نصف سمكة- والأوسيانيد هن عرائس المحيطات وأجمل عرائس الماء وهن بنات أوسيانوس رب المحيطات ومنه اشتقت Oceans والنيريد طائفة أخرى من عرائس البحار وهن بنات الإله نيروس.

(**) بنات ثيميز هن ربات الفصول الأربعة، وبنات يورينوم هن تاليا وأحاليا ويوفروسين.

بوثوس، وهيمين رب الزواج، فينخرطون في الجماعة ويهطعون إلى الأولمب!

وتكون الأنباء قد تواترت عن قدوم الربة الجديدة، فيصنع لها عرش عتيد ما تكاد آخر ياقوتة تركب فيه، حتى تصل فينوس فجأة فتستوي عليه، وتتصارع أبصار الآلهة العطشى حول جسمها الخصب، المترع بالمفاتن، وتتلمظ الشفاه الجائعة تود لو تفترس هذا الفم الأحوى الجميل، وتسري كهرباء الاشتهاء في الأذرع القوية، والصدور الهرقلية، تحلم بضم الجيد الناهد، ومخاصرة الوسط المياس، و.. كأنها العنقاء ترسل اللمحة من طرفها الساجي فتصرع هؤلاء وهؤلاء!!

وتقدم الآلهة كل بدوره يطلب يد فينوس، وكان كل إله يفاخر بما لديه من نعم وآلاء. وكان مضحكاً أن يسفه الآلهة بعضهم بعضاً بين يدي ربة الجمال والحب حتى ازدرتهم جميعاً، وخبرت من حماقتهم ما لا يتفق وهذا الورد المتفتح في خديها، والسحر النائم في مقلتيها، والفتنة الثاوية في كل جارحة من جارحاتها، فرفضتهم أجمعين، وإن تكن برفضها قد أغضبت أباها كبير الآلهة وسيد أرباب الأولمب.

ولم يغض الآلهة عن تحقير فينوس لهم، بل انقلب إعجابهم ثورة، وارتد افتتانهم نقمة، وود كل منهم لو خلي بينه وبينها فيبطش بها بطشاً شديداً.

وأجمعوا أمرهم ضحى، وذهبوا إلى زيوس يطالبونه بالثأر لكرامتهم كأرباب مرهوبي الجانب مخوفي السلطان، من ابنته ربة الحب الطائشة!!

وخاف زيوس من ثورة الآلهة، وأفزعه تجمهرهم في ردهة الأولمب يتصايحون ويصخبون، فخرج إليهم هاشاً باشاً، ودق بصولجانه على الأرض المرمرية وقال: إخواني.. أبنائي:

"لستم أنتم وحدكم تنقمون من فينوس الجميلة ما بدر منها في حضرتكم من زهو وخيلاء، بل أنا معكم ناقم على هذه الابنة العاقة التي صعرت في حضرتي خدها، وشمخت بأنفها، وحسبت أنها خير من الآلهة درجة وأعلى مقاماً..

لتطب نفوسكم يا إخواني ويا أبنائي.. لقد أصدرت الساعة إرادة أولمبية تقضي بأن تتزوج فينوس المتكبرة المتغطرسة، المختالة، من فلكان الحداد، صانع دروعكم ولجم خيولكم!"

وما سمعه الآلهة حتى صاحوا لساناً واحداً: "ليحيى زيوس العادل! تقدست يا زيوس! طوبى لك يا أولمب!"

وكان فلكان بين الجماعة وهي تهتف، ولكنه كان مشغولاً عنها بتلك السعادة التي هبطت عليه من السماء، وكان يحمل أرزبته الهائلة، فلما سمع النطق الأولمبي، ضرب بها الأرض ضربة راجفة، أحس بها بلوتو في أعماق الجحيم...

* * *

– "يحسب الآلهة أننا معشر الربات ملك إيمانهم دائماً، يتصرفون بنا كما يحلو لهم!! ما عليهم إلا أن يأمروا، وما علينا إلا أن نطيع! لقد كنت أوثر أن ألبث في القصور المرجانية في أعماق الأعماق، على أن تشرق علي شعاعة من أشعة الشمس الدافئة التي يرتفع فيها أولئك الآلهة العتاة الظالمون!"

– "هوني عليك يا مولاتي فقد يصفح غداً سيد الأولمب!

– "يصفح أو لا يصفح...

– "يا للهول!...

– "أي هول يا فتاة...

– "ينبغي ألا تعرضي نفسك لغضب رب الأرباب...

– "رب الأرباب! أنت تضحكينني يا أجمل العرائس الأوسيانيد!

- "مولاتي...!

- "إن رب الأرباب يحكم دنيا من الخزعبلات.. أما القلوب.. أما قلوب العذارى.. فالحب وحده يتولاهن. ويهيمن عليهن..

- "إلهتي فينوس...

- "لا تنزعجي هكذا يا عروس الماء.. لقد ولدت لأكون ربة الجمال والحب.. فأولى لي ثم أولى، أن أسعد بالحب، وأن أختار من ذوي الحسن متعتي الغالية ونعيمي الأوفى.. فلكان!! أنا أقسم أن هذا الحداد لا يفرق بين القبلة والجذوة، ولا بين نشوة الحب وزفير الكير! وأخشى أن يغازلني يوماً فيقذفني بارزبته. يحسبها ريحانة أو زنبقة! يا للحداد القذر!"

- ولكن زواجكما تسجل في السماء يا ربتي!

- "إن كان سجل السماء مدنساً بكل هذه المقابح الاستبدادية، فأنا... فينوس ربة الجمال والحب والزواج.. آنف أن يدرج في صفحاته اسمي!

والآن اسمعي يا أوسيانة(*)، اذهبي إلى حبيبي مارس(**) فبلغيه أنني منتظرته الليلة، بعد مغيب الشفق، تحت السنديانة الكبرى في أول منعرجات الغابة.."

وهكذا أقبلت ربة الحب على كؤوس الحب تنهل منها ما تشاء، وتستعرض الآلهة(*)، تقبل منهم على من تشاء وتعرض عمن تشاء... وما أكثر القطيع وما أشد نهم الذئب!

(*) واحدة الأوسيانيد.

(**) اسمه اليوناني ايرس.

(*) في الميثولوجية اليونانية الآلهة هم أبناء الخلص فأنصاف الآلهة هم من كان أبوهم أو أمهم من البشر في حين تكون الأم الأخرى أو الأب الآخر من الآلهة..

لقد علقت مارس القوي إله الحرب، ورب الدمار، ولم تبالِ بزوجها الفظ القذر المنتن، الذي لا يميز جرس الموسيقى من طرق الحديد، ولا نسيم الجنة من زفرات الجحيم!

وعلقها مارس وافتتن بها، حتى لكان يعد دقات قلبه دقة فدقة، حتى يلقاها، فتهدأ أعصابه، ويطمئن قلبه، ويثوب إليه رشده.

لقد كانت فينوس فتنة حقاً!

لقد كانت تتلألأ كتمثال من النور، في إهاب من البلور! وكان لها شعر كأشعة الشمس، يغدودن فوق كتفيها العاجيتين، فيظل النسيم العاشق يقبله.. بل يعبده فإذا تعب، تركه لينتشر فوق الخصر أو الصدر، ثم يعود إليه بقلوب الآلهة وأرواحها، فينثرها تحت القدمين الدقيقتين، لتسحقها فينوس الجبارة.

والسعيد السعيد من فاز بابتسامة من هذا الفم الأحوى المفتر، أو غمزة من ذاك الطرف المفتر، أو إشارة من ذلك البنان المخضوب بدم العاشقين!

وكان مارس لا يخشى من أعين الرقباء مثل ما يخشى من عيني أبوللو، ولذا كان إذا وافى فينوس في هذا المنعزل الغرامي السحيق، في أعمق أحشاء الغابة، ترك خادمه أليكتريون عند أول الشعب المؤدي إلى الطريق العام، يلحظ المارين وينبه إلى خطر الأعداء والناقمين، حتى يكون الاليفان بنجوة من الفضيحة، وفي حرز من ألسن الكاشحين.. فإذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ذهب أليكتريون فأيقظ العاشقين الآثمين، فينهضان من غفوة الهوى إلى يقين الفراق، قبل أن تشرق الشمس.

ولكن! لقد ذهب العاشقان يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً، حتى إذا نال منهما الجهد وترنحت أعينهما تحت عبء السهاد الطويل، انبطحا على الحشيش الأخضر. هو إلى جانبها وهي إلى جانبه، غريقين في سبات هنيء! ولمح أليكتريون ظبياً نافراً،

يتفزع في ظلام الغابة، فتبعه، وطفق يعدو وراءه حتى لحق به بعد عناء شديد، فاحتمله، وعاد به إلى مركزه من مكان الحراسة... ولكنه ما يكاد يصل ثمة، حتى يساقط متهدماً من التعب، ويغلبه نعاس عميق..

* * *

وأشرقت الشمس! وبرزت المركبة الذهبية حاملة أبوللو، رب هذا الكوكب المشرق المتأجج، وبدأت رحلتها السماوية، وأخذت ترتفع في العلاء رويداً، حتى إذا كانت بمنزلة الضحى، أطل أبوللو فرأى مارس الأثيم، وفينوس الغاوية، متعانقين على الحشيش الأخضر، وكانت بين أمه لاتونا، وأمها ديون، ما يكون عادة بين (الضرائر) من بغضاء وشحناء، وكانت ديون تفخر على زوجات زيوس جميعاً بأنها أم فينوس وحسب! وكانت لا تعدل بابنتها واحدة من جميلات الأولمب، بما فيهن ديانا أخت أبوللو، وابنة لاتونا.

انطلق أبوللو والشماتة في قلبه الناقم على فينوس، يحمل الخبر الفاجع إلى فلكان، فألفاه مستغرقاً في صنع شبكة حديدية هائلة، والنار تتلظى في أتونها الكبير، والدخان ينعقد في جو المصنع كأنه ينقذف من بركان، والملاقط والمبارد والمخارط متناثرة على الأديم المعفر القذر كأنها أعجاز نخل..

– "فلكان!..."

– "هلا... أبوللو.. ماذا جاء بك في هذه الضحوة.. وأنى غادرت عربتك؟"

– "آثرت أن أطأ ثرى هذه الأرض بقدمي على أن تحملني بوح(*)، وقد تدنس شرف الأولمب بالفضيحة المزرية!..."

– "الفضيحة المزرية؟ ماذا وراءك يا أبوللو!.."

(*) الشمس.

– "فلكان! أين زوجتك؟.. هل أويت إليها الليلة؟"

– "ماذا؟..."

– "أو لم تفقه بعد؟.. ولكن قل لي: ماذا تصنع بكل هذه الأسلاك الغليظة؟"

– "أصنع شبكة كبيرة..."

– "ولمه؟"

– "لقد لاحظت النجس مارس يحوم حول حماي... وأنا لا بد صائده"

– "هلم، هلم..."

– "وإلى أين؟..."

– "تصيده.. ألم تنته من صنعها بعد؟"

– "بل انتهيت.. وأين هو هذا الوغد؟"

– "على الحشيش الأخضر، في أول شعاب الغابة، مما يلي الطريق العام"

– "ومع من؟..."

– "مع.... إنه قطعة واحدة مع... فين"

– "معها؟.. يا للهول؟.. يا للعرض الأحمر؟.."

* * *

واحتمل شبكته العظيمة، وانطلق الإلهان إلى حيث.. النائمان الحالمان الآثمان!

لقد كانا ملتصقين التصاقاً تاماً.. حتى ما يكاد ينفذ الماء بينهما!

ونسي كل إلف شفتيه في شفتي الفه، فهما جلنارتان تبثان نجوى الهوى إلى جلنارتين.

يا لله!

ليس هذا فسقاً أيها الآلهة، بل هو التمازج الذي سميتموه الزواج[*]!

وانقض فلكان كالمذنب المدمر، فألقى شبكته على الخائنين!

وانتفض مارس وهو يكاد يصعق من الذعر، وانتفضت فينوس وهي تكاد تذوب من الخجل! ولكن! أي ذعر وأي خجل، وهذه الشبكة قد أمسكت بهما كسمكتين!!

لقد مضى فلكان، بعد إذ ربط الشبكة بما كسبت في أصل دوحة كبيرة، وعاد بكل الأسرة الأولمبية (لضبط الحادثة!)

* * *

وكانت ساعة رهيبة، انصبت فيها لمزات الآلهة الناقمين على رأس فينوس، وراح كل منهم ينتقم لكرامته المهدورة من كبريائها وصلفها، وهي ما تكاد تبين!!

وأطلق فلكان سراحهما، أما فينوس فذهبت تنشد عشاقاً آخرين!

وأما مارس، فمضى إلى حيث خادمه الأحمق اليكتريون، فألفاه لا يزال يغط في نومه غطيطاً مزعجاً، فركله ركلة أطارت صوابه، وأخذ بتلابيبه فخضخضه تخضيضاً!

ثم أنه أقسم لينتقمن منه انتقاماً يكون أحدوثة الآباد وضحكة العباد، فنفث في أذنيه نفثتين، ارتد بهما الخادم المسكين ديكاً عجيب الصورة، أرجواني التاج، طويل

[*] هذه السطور من كيتس وهي من أبدع شعره في فينوس.

الجناحين، عظيم الذيل!

وركله مارس ركلة ثانية، وقال له: "اذهب فلن تذوق عيناك غفوة الفجر أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وستصحو قبل كل الخليقة لتصيح في النائمين:

ويحكم أيها الغفاة، هبوا فقد كاد أبوللو يقطر مركبة الشمس!!...

* * *

ولا يزال اليكتريون، ديكنا المحبوب، يوقظنا قبيل الشروق إلى اليوم!...

القرية الظالمة

ذهبا يدلجان في هدأة الليل، ويضربان في ظلام الوادي، ويتحدث أحدهما إلى الآخر حديث الآلهة، وكلما نال منهما الجهد، جلسا يتسامران أو ينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة، إلى السحر الذي تنفثه قيثارة الفتى اليافع.

– "حسبك يا بني، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة".

– "وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه؟"

– "أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجباً هذه الليلة من طبائع الناس. أترى إلى هذه القرية النائمة في أكتاف الجبل؟"

– "أين يا أبي؟"

– "أنظر جيداً"

– "الظلام دامس، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئاً..."

– "أنظر في الجهة التي تشير إليها يدي"

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعة من نور شديد كشفت القرية للفتى.

– "آه. هذه هي. عمش خفيف أصابني الليلة يا أبتاه!"

وكان الفتى حلو الدعابة، رقيق النكتة، ثرثاراً، فقال له الشيخ يحذره:

– "إذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثاً، ولا تخاطبني إلا أن أخاطبك، وإياك أن تأتي بإشارة تسقط هيبتنا في أعين القوم، فإنهم لؤماء سفهاء، وقد تفسد علينا ثرثرتك

ما جئنا من أجله الليلة إلى هذه القرية!"

- "نسيت القفل يا أبتاه!"

- "أي قفل؟"

- "الذي أقفل به فمي فما يتحرك ببنت شفة"

- "يا خبيث.. أصمت"

* * *

وأشار الشيخ بيده إلى السماء فاربدت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعدها، وانصبت ميازيبها بماء منهمر، وانطلقا إلى القرية!

ووقفا عند منزل فخم ضخم ذي شرفات، فقال الشيخ:

- "تشبث يا بني بأحياد الحائط حتى تكون عند النافذة، فانظر ماذا ترى"

وفعل الفتى، ونزل، وقال للشيخ:

- "أبتاه! نسوة عاريات يرقصن، وندامى وخمر، و.. وموسيقى وفتيات.. و.."

- "وماذا يا صغيري العزيز؟"

- "ودعارة وعهر يا أبتاه... لماذا جئنا هنا؟ لماذا جئنا هنا؟..."

- "قلت لك جئنا لأريك عجباً هذه الليلة من طبائع الناس هلم إلى باب هذا المنزل"

وطرقا الباب، فبرز لهما فتى غُرانِقٌ وقال: "ماذا؟ شحاذان قذران!" فقال الشيخ:

– "على رسلك يا بني. أنا رجل شيخ غريب، وهذا ابني، وقد فجأتنا العاصفة فلجأنا إليكم نرجو أن تضمنا غرفة صغيرة إلى الصباح، ونطمع أن نتبلغ لديكم بلقمات..."

– "غرفة ولقمات؟ هاها... اذهبا اذهبا... لصوص! هذه حيل قطاع الطرق والسفاحين بلوناها من قبل"

ثم قذف بمصراع الباب في وجهيهما. فنظر الشيخ إلى ولده وقال: "أرأيت؟ سر إلى هذا البيت القريب"

وقال لابنه: "هلم إلى النافذة فانظر.."

وتسلق الفتى وحملق قليلاً ثم قفز وقال: "أبتاه! أناس يخزنون الذهب في خواب عظيمة، ويختمون عليها بالرصاص المذاب، من أين لهم بهذا الذهب كله يا أبي؟.." فقال الشيخ: "هم لصوص يا بني، وإن كانوا لا يقطعون طريقاً، ولا يسطون على دار، ولكنهم يمتصون دم الفقير والمعوز، ويصهرونه ذهباً ويكنزونه هكذا؟! إنهم أصحاب هذه الضياع والبساتين! هلم إلى بابهم..."

وطرقا الباب، وسألا طعاماً، ومبيت ليلة، فقالت لهم العجوز صاحبة الدار:

– "إن هذا العالم عام شدة، ولم تبق لنا المجاعة على زرع ولا ضرع، ماذا عندنا لنعطيكم؟ هيكل زيوس قريب من هنا فناما فيه، وكهنته أسخياء كرماء، وعندهم في كل آونة خمر... سيطعمونكما ويسقونكما! وربما قدموا لكل منكما غادة! فهم فساق عرابيد... انطلقا إليهم... اذهبا..."

وقذفت بالباب في وجهيهما...

قال الشيخ: "أرأيت يا بني؟" فقال الفتى مداعباً: "نحن نستحق أضعاف هذا الهوان! ما لنا وللناس؟!"، فقطب الرجل جبينه وقال: "ما لنا وللناس؟ إذن ما نحن في

هذه الدنيا يا بني؟ ولكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة، سر بنا إلى ذلك القصر العتيق".

فلما كانا عنده، تطلع الفتى فرأى صحباً كثيراً لا يزال يتعشى، والموائد حافلة بالاشربات والأشواب، وبكل ما لذ وطاب. والندامى البيض كالنجوم رافلات، ورافلون، في وشي وأفواف. وكأن الفتى أستطير من العجب، فقال للشيخ: "كل الناس هانئون هذه الليلة المقرورة إلا نحن!! الجميع يأخذ في نشوة ولذة ونحن نضرب في وحل وننشق من غيظ؟!"

قال أبوه: "ألم أقل لك ألا تبدأ حديثاً حتى أبدأك؟ هلم إلى الباب" وقرعا الباب فبرز لهما شاب مفتول العضل كأنه هرقل. فلما سألاه حاجتهما، قادهما إلى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع.

قال الشاب المفتول: "إليكم أيها الإخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيراً في قريتنا هذه، ولولا طول الحذر ما ذقتم الليلة رجل دجاجة... ... إنهما يطلبان مبيتاً وعشاء، ولا أدري لم لم يقصدا إلى هيكل الأب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الكثير؟! وحيث أشياء أخرى... ..."

وقهقه السمار وتكبكبوا حول الغريبين، ثم أخذوا معهما في ألوان غير محتشمة من المزاح الثقيل. هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ، وذلك يرفع ذيل الفتى مما وراء، وهذه تعانق الشيخ وتقبله وتقدم له كأساً من الخمر، وتلك تركب الفتى "زقفونه!"(*)... ...

ولما فاضت الكأس بالشيخ والفتى، نظر أحدهما إلى الآخر نظرات، ثم غابا عن أنظار الجماعة، كأنما تحولا إلى هواء...؟! فشده القوم وأوجسوا خيفة.

(*) لم نعرف غير هذه اللفظة النابية للتعبير عن الركوب على ظهر الإنسان مع لف الساقين والذراعين حول الوسط والعنق وابتكرها أبو العلاء في رسالة الغفران فنقلناها عنه.

لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان في شوارع القرية الموحلة من بيت إلى بيت، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزئ بهما وطردا شر طردة وأخسها، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمة والده في هذه الرحلة المضنية في ذلك البلد البخيل... فقال له: "اذهب أنت فسأنتظرك على هذه الصخرة الناتئة في حيد الجبل، وسأتسلى بموسيقاي حتى تعود" فقال الشيخ: "وحكمتي التي أردتك أن تراها بعينيك؟ هلم، هلم... أترى إلى ذلك الكوخ، لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا"

وكانت في الكوخ كوة صغيرة ينبثق منها نور خافت. فلما نظر الفتى تمتم يقول: "أبتاه! امرأة مهدمة وشيخ محطم أبا لبؤس الحياة، ويا لشظف العيش! لماذا أثرت العاصفة يا أبي؟ إن الماء ينز عليهما ويبلل فراشهما...".

- "سترى أن هذا الكوخ هو وحده الذي يبقى"

- "ماذا تعني يا أبي؟ هل تهدم القرية؟"

- "صه! هلم فأطرق باب الكوخ"

- "قم يا فيلمون... إن بالباب طارقاً"..

- "نامي يا بوسيز! إنه البرد ترجم به العاصفة"

- "لا. ليس بردا!. اسمع! أناس ينادون. قد تكون بهم حاجة"

ونهض فيلمون متهالكاً على نفسه ففتح الباب. وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش، وتلقى الرجل وابنه أحسن لقاء.

- "مرحباً مرحباً... أنتما في حاجة إلى دفء. بوسيز. انهضي يا امرأة فأوقدي ناراً. أنا أعرف أن الحطب مبلل، ولكن حاولي... مرحباً يا كرام ومعذرة، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر. بوسيز، هاتي قربة النبيذ أولاً.. ليس فيها إلا صبابة!

لا بأس، فسيبارك زيوس للضيفين فيها.. هاتي شيئاً من المشمس الجاف يا امرأة!.."

وتأتي بوسيز بقربة النبيذ، وما يكون فيها إلا ثمالة، فيتناولها الشيخ ذو اللحية البيضاء، فيتمتم فيها بكلمات فتمتلئ نبيذاً من خير ما عصر باخوس، وبعد أن يروى منها هو وابنه، يدفع بها إلى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم يمتد إليها فم! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول: "بحق زيوس إلا ما أخبرتني أيها الصفي الصالح من أنت؟" فيقول الشيخ: "أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار، وهذا ابني الموسيقي البارع. أتطرب للموسيقى؟"

ويهتز الرجل، ويوقع الفتى على قيثارته لحناً كأنه لسان العاصفة، بما فيها من سنا برق، وهزيم رعد، ومكاء ريح، وتنقير مطر، ثم هو مع ذاك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب... وطرب فيلمون، ورقصت جوانح بوسيز، وأحضرت طبقاً به قليل من المشمش الجاف فقدمته للفتى، ناسية أن تقدمه إلى الشيخ، وهذا من أثر الموسيقى في أعصابها، ثم قدمته إلى أبيه في أدب واحترام.. وما كادت اليد البيضاء الناصعة تمس الفاكهة حتى عادت إليها النضارة، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة، وتضاعفت في الطبق حتى ملأته. فأكل الشيخ، وأكل ابنه، وأكل فيلمون وزوجته، وهما لا يصدقان ما يريان!

وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم، فكان القليل يزداد والمشفوف يتضاعف. وكانت لديهما أوزة عجفاء حاولا أن يجزيا عليها التجربة فهما بذبحها ليصنعا منها شواء يقدمانه للضيفين، ليريا ماذا يكون من أمرها. ولكن الأوزة فزعت فزعاً شديداً، وانطلقت في ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه. فابتسم، وربت على ريشها الناعم النظيف، وأجارها من سكين فيلمون.

وكان نسيم السحر قد أخذ يهب في الأفق الشرقي، فقال الشيخ:

– "أيها العزيز فيلمون. أيتها التقية الكريمة بوسيز، من إلهكما!"

– "إلهنا زيوس تبارك في علياء الأولمب.."

– "أو يسركما أن يكون معكما الآن؟"

– "معنا؟ هو دائماً معنا!"

– "أجل هو دائماً مع عباده المخلصين. ولكن، أيسركما أن تكونا في حضرته يحدثكما وتحدثانه؟".

فيصيح فيلمون:

– "أنت هو زيوس. تقدست. تقدست"

ويسجد الرجل وزوجته، وما تفتأ تأخذهما رعدة شديدة

– "أجل. أنا زيوس. أتيت أبتلي هذه القرية. وهذا ولدي هرمز. انهضا. والآن ستزلزل الأرض زلزالها فلا تنزعجا.."

ووقف زيوس، وأشار بيده إشارة خفيفة إلى الشرق، ثم إلى الغرب، ثم إلى الجنوب، ثم إلى الشمال، ثم نظر إلى فوق وتمتم بكلمات وجلس.

وما كاد يفعل حتى رقصت الأرض، وسمع كأن الجبل القريب يندك، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها، وتنقلب القرية إلى جحيم ملتهب، وكلما أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفة الزلزال، فيطمئنهما زيوس.

– "الكوخ يا إلهي! أنا رجل فقير!"

– "مال كوخك يا فيلمون!"

– "إذا أنهدم عشت في العراء!"

– "لا عليك! فلن تقوض الزلازل إلا قصور العتاة؟".

وأشرقت الشمس، فنهض الإله الأكبر، ونهض الجميع معه. وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب، وارتد على عقبه مذعوراً:

– "مولاي! لمن هذا القصر المشيد؟"

– هو لك يا فيلمون، أمرت الآلهة فبني لك في ساعة السحر جزاء كرمكما. هلما نشهد غرفاته"

وانطلق الجميع يتنقلون في غرفات القصر وردهاته، وكلما مر فيلمون وزوجته بتمثال إله سجدا له وأخبتا حتى إذا كانوا في أكبر ردهات القصر، وقف زيوس وقال: "فيلمون، هذا هيكلي! وقد جعلتك كاهني الأكبر، فتمن الآن عليّ، فسأجيبك إلى كل ما تطلب"

فتبسم فيلمون وقال: "مولاي! الشباب يا مولاي! ليعد الشباب إليّ وإلى زوجتي بوسيز، ولنعش طويلاً، فإذا جاء وعدك فلنمت في يوم واحد وفي ساعة واحدة!" وسجد يقبل الأرض بين قدمي الإله الأكبر!

فقال زيوس: "انهض يا فيلمون فطلبك مجاب، وستعيشان راغدين!"

* * *

وسلم الإلهان، ثم غابا عن الأنظار، وخرج فيلمون وزوجته ليريا إلى القرية، فلم يشهدا شيئاً غير بحيرة تعج أمواجها، وجزيرة كبيرة خضراء في وسطها قصرهما المنيف! فآمنا بزيوس وسبحا له!

وعاشا طويلاً واستمتعا بشباب دائم، وماتا في يوم واحد وساعة واحدة، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكراهما في العصور.

غرام أورورا

رأته على رمال الهلسبنت(*) يرتع ويلعب، فوقفت تملأ عينيها وقلبها بجماله، ثم نظرت إليه وهو يداعب البحر المضطرب، ويتواثب فوق عبابه الزاخر، فسحرها قوامه، وفتنتها قسماته، ونسيت أنها ربة الفجر الوردية الهيفاء، وأن من ذكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب– تيتون بن بريام ملك طروادة– جمالاً وأشد فتنة، وأخلق بحب ربة جميلة لعوب مفتان مثل أورورا... ولكن ماذا يصنع أهل هذا العالم في قلوبهم، ولا سلطان لأحدهم على فؤاده؟ يستوي في ذلك الأرباب وغير الأرباب.

لقد كان تيتون يتقلب بين الموج، فتتقلب نفس أورورا في جحيم من الهوى، وتتلظى في سعير من الحب، وتنجذب نحو الفتى الجميل المفتول بكل ما فيها من نورانية وقداسة.. وكان يبرز من الماء ليستجم على الشاطئ الناعم الوداع، فتكاد تجن به، وتود لو ترشف قطرات الماء التي تنحدر على جسمانه ذي العضل، وتتلألأ في ثنايا شعره الأسود الفاحم.

وطفقت توسوس لها نفسها بالأمان! وتزخرف لها الأحلام، فصممت أن تتكشف له، وتتبرج على مقربة منه، وتدل وتميس، عسى أن تأسر لبه، وتسبي قلبه، فيسلس قياده، وينخذل فؤاده، دون مشقة أو عناء... ولكن تيتون أبى، واستكبر قلبه أن يلين، ولم يستطع ذلك المرمر الناصع الذائب في ساقيها، ولا هذا الورد المتفتح في خديها، ولا الأبالسة الراقصة في عينيها وفوق ثدييها، أن ترقق من عناده، أو تنتصر على فؤاده، أو تسكب في نفسه صبابة أو هوى.

– إذن أنت ماذا تشتهي!

(*) مياه الدردنيل.

– أشتهي ماذا أيتها الغادة؟ اذهبي فاعرضي مفاتنك الرخيصة على غيري!

– ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا؟

– أورورا؟ كيف؟ ما يدريني؟

– أجل أنا أورورا.. انظر

وأخت ترف في الهواء، وتسبح في السماء، وتغوص في الماء، وتأتي من آيات الإعجاز ما بهر تيتون.

– الفصح إذن يا ربة؟!

– لا صفح إلا أن تهب لي حبك، وتلقي بين يدي قلبك!

– وكيف وأنا بشري عاجز، ولا ألبث أن أفنى في بضع سنين، وهذا أبي الضعيف الشيخ قد خطب لي حسناء من بنات الملوك؟

– "إما أنك عاجز فلا، وإما أنك لا تلبث أن تفنى في بضع سنين فسأهبك الخلود، وسيخلعه عليك زيوس سيد الأولمب فلا تموت أبداً، بل تحيا كالآلهة إلى لا نهاية الأزل، وأما أبوك الضعيف الشيخ، فلا أحب إليه من أن يراك في كل ما ذكرت، ولاسيما إذا علم أنني سأكون لك من دون هذه الفتاة التي خطبها لك، والتي لا تلبث أن يخط الشيب رأسها، ويعصر الزمان عودها فتجف وتذوي، وتحملها أنت كأثقل الأعباء إلى القبر حيث الدود والذباب..."

– ولكن... ألا تأذنين لي في لقاء أبي؟

– لن يكون هذا أبداً...

– هذه قسوة يا ربة!

– ستفتنك هذه القسوة بعد قليل.

وانطلقت تداعبه وتلاعبه، وتضاربه وتغالبه، حتى زالت عنه وحشته، فأنس لها، وأقبل بكل مشاعره عليها، واتفقا على الرحيل من فورهما إلى أولمب، فانطلقا يطويان الرحب.

– من هذا يا بنية؟

– ... ؟...

– صيد جميل، ومجازفة جديدة، أليس كذلك؟

– أجل يا أبي.. وليست مجازفات أبنائك أروع من مجازفاتك..

– مجازفاتي أنا؟ أية مجازفات يا أورورا؟..

– مجازفاتك الغرامية التي لا تحصى مع الغيد الرعابيب من عبادك.

– أي غيد رعابيب يا أورورا؟ تلك جراءة بالغة!

– لعل الإله الأكبر، سيد الأولمب، قد نسي! وعلى كل حال فسيدة الأولمب، حيرا العظيمة، لا تنسى... لقد شهدتك تلهو مع يو، وتعبث مع لاتونا، وتتساقى كؤوس الغرام مع يوروبا.. و.. و..

– أسكتي.. إنك ابنة لا خير فيك... وماذا تبتغين لهذا الشاب الغرانق الجميل يا أورورا؟

– الخلود... الخلود يا أبي... ينبغي أن يعيش أبداً... لن يموت.. ألا تراه جميلاً يا أبتاه؟ ألا تبهرك منه وسامته وقسامته؟ ألا تنظر إليه كيف هو عبل قوي، عبقري سمهري؟ لقد لقيته عند شاطئ الهلسينت، ورأيته يشق اليم فعلقه قلبي وهويته نفسي..

وكان الموج يلفه في أعرافه، ثم يسجد تحت قدميه كأنه يقبلهما، فلما خرج من الماء رأيت الدنيا كلها تحف به، وتغازله وتناغيه، فلم أر أن يفوز به غيري، ولا أن يستأثر بجماله سواي، وقد رضي أن يتبعني إلى أولمب، فتفضل أيا أبتاه وامنحه الخلود، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة. وذبول هذا الحسن شيء مخيف جداً... ينبغي أن يعيش إلى الأبد حبيبي تيتون.. أليس كذلك يا أبي؟ أليس خليقاً بالخلود كالآلهة؟

وتقدم تيتون فسجد بين يدي الأولمب، وتفضل رب الأرباب فمنحه الخلود.. واأسفاه! ألا ليته ما فعل.. ألا ليته ما فعل؟!

قال زيوس وهو يحدث نفسه:

"اذهبي يا أورورا، سأعذبك بهذا الحبيب، وسأنتقم لكبريائي منك، وسيكون تيتون عبئاً ثقيلاً على قلبك وسيعيش إلى الأبد بجانبك كما اشتهيت، وسأعلمك كيف تستبيحين أن تكلمي أباك كما فعلت.. فوعزتي وجلالي لأعذبنك بألف حبيب وحبيب!"

* * *

وعاشت أورورا مع حبيبها تيتون أحسن عيش وأجمله، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام، وأنجبا طفلهما اليافع الجميل ممنون(*) فكان لهما كالقبلة الحلوة فوق ثغر الحياة الباسم.

ومرت الأيام وأورورا جميلة وردية كما هي، لأنها ربة، ولأن قوانين الزمان من قدم وحداثة لا تنطبق على الآلهة، لأنه لا أول لهم ولا انتهاء، فأورورا جميلة دائماً، وردية أبداً، لا يني قلبها يخفق بالحب وينشده، ويهيم بالجمال ويفتقده، ونفسها عاشقة وامقة كذلك، وإن أماني الغرام تجيش في صدرها دواماً، فهي إن خلت إلى

(*) قتله أخيل في حروب طروادة.

حبيبها تيتون ألزمته فنوناً من الغزل، وضروباً من النجوى، إذا صبر لها الشباب، واحتملها الصبا، فليس المشيب بصابر لشيء منها، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها، ولا له جلد على أفانينها.

– ما هذه الشعرة البيضاء التي بزغت في سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر في أخريات الليل يا حبيبي؟

– "أية شعرة بيضاء يا أورورا؟ ربما كانت نذير المشيب يا حبيبتي!

– "المشيب؟! كلمة غريبة لم أسمعها إلا منك! ماذا تعني؟

– آه! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب، أما نحن، معشر البشر، فسرعان ما يذهب صبانا، ويولي شبابنا، فنشيخ ونهرم، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه إبر الشوك، يقول الشعراء إنه نور قبيح يسعى بين أيدي الكهول ليشق لهم ظلام القبور!!

– يا للهول؟ إن هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفني!

– اطمئني! أنا باق إلى جانبك آخر الدهر. أليس قد وهبني الخلود سيد الأولمب؟

– بلى! ولكن...

– ولكن ماذا؟

– هذه الشعرة البيضاء التي قال فيها شعراؤكم ما قالوا؟

– الشعرة البيضاء؟ ما لها هذه الشعرة البيضاء؟ ليست شيئاً ما دام سيد الأولمب قد وهبني الخلود، إن الذي أفزع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به من غروب شمس الحياة!

– ولكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا؟

– آه! قد فهمت ما يوسوس في صدرك؟ ألم أعد جميلاً يا أورورا؟

– بل أنت لا تزال جميلاً يا حبيبي

– إذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء.

* * *

وتمتعا سنوات أخريات، ولكن الشعرة البيضاء أصبحت شعرات وشعرات، حتى غلب نور المشيب حللك الشباب، ولم تعد لطرة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللمعة، وذلك السحر الذي كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام في قلوب العذارى... بل حال(*) لونها الأسود الفاحم، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن باسر(**) ذي أسارير، يبعث الرهبة في أفئدة الشياطين!

– تيتون!

– نعم يا حبيبتي!

– لا! لا! لا تناديني بهذا النداء

– ولمه؟

– لم يعد يصلح... لقد اشتعل رأسك شيباً، وتغضن جبينك، وترهل خداك، وبرزت عظامك، وغارت عيناك جداً، وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض، والصبا

(*) تغير.

(**) مقطب.

الغريض(***). وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون! وي! مالك تنحني هكذا؟ هل ضاعت منك درة ثمينة، فأنت تبحث عنها في أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ؟ آه! بل ضاع منك شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه في هذا الثرى!

– حسبك يا أورورا... حسبك يا ربة!

– "لا، أبداً، ليس حسبي، أغرب عني أيها المسخ الشائه! ظل في عقر الدار حتى أرتد إليك!!

وانطلقت ربة الفجر الوردية غضبي صاخبة، وذهبت تطوي الفيافي وتهيم في الرحب حتى كانت من غير قصد عند شاطئ الهلسبنت، حيث لقيت لأول مرة حبيبها الجميل الشاب تيتون بن بريام ملك طروادة، منذ نصف قرن من الزمان!! أواه تيتون!! يا للذكريات الحلوة التي تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعيني نائم!! هنا، على رمال ذلك الشاطئ الهادئ، وبين طيات ذلك الموج الذي يبدو كأنه لم يتغير، رأت أورورا الوردية تيتون البارع، وشعره الأسود الفاحم يتهدل على جبينه الوضاح، ثم لا يلبث أن يستوي حين تمر عليه أمشاط الأمواج. وهنا.. ثارت عاصفة الغرام القديم في قلب ربة الفجر الوردية لأول مرة، وشب لظى الحب ملء جوانحها... وفوق هذه الرمال السافيات تكشفت أورورا لتيتون الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه، ولكنها ما استطاعت إلى ذلك من سبيل، حتى تقلبت تحت قدميه، وتبرجت بين يديه، فرضي ما عرضت عليه، وانطلق معها إلى أولمب! فما لها اليوم غضبي على تيتون؟

مشت على شاطئ غرامها الأول، فثارت في فؤادها الذكريات، وأرسلت عينيها تفتش بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة، التي تطفو هناك.. هناك فوق ذاك الثبج كحلم جميل... صورة تيتون وهو يصطرع مع اليم فيصرعه،

(***) الغض الطرئ.

ويغالب اللجة فينتصر عليها... ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلئ بالذكريات... وطفقت تبكي!

لا ريب أنها عنفت نفسها على ما صنعت أمس مع تيتون! ما ذنبه؟ ما جريرته؟ بأي حق تنعي عليه شيبته ولا يد له فيها؟ ولماذا تخزه بقوارص الكلم لأن جبينه تغضن وامتلأ بأسارير الكبر؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الغائرتين المنطفئتين! ولم تذكره بشبابه وتتهكم عليه، فتقول له إنه يبحث عنه بعكازه في التراب؟

لا ريب أنها كانت قاسية، ولا ريب أنها لامت نفسها، لأن كل تلك الأفكار ترددت في أعماقها، وقد سألت روحها المتألمة ألف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيما صنعت...

* * *

وعادت أورورا أدراجها إلى تيتون البائس الهرم، فهشت له وبشت وراحت تملق له، وتتحايل على قلبها ترجو لو تستطيع أن تخدعه فيسيغ هذه الكومة المتراكمة من القبح والشوه والدمامة، قبعت في ركن سحيق تحمل أوضار السنين وتنوء بكارثات الليالي.

ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين، ولكن للآلهة كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال، ومدى غير واسع من الصبر، وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شاقة، عادت بعدها إلى التبرم بتيتون، والضيق بشيخوخته الثقيلة، والنقمة على تلك اللحظة الأسيفة التي لقيته فيها، ونوبة الجنون التي جعلتها تتورط لدى سيد الأولمب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخلود.

– وفيم كل هذا الحزن يا أختاه؟

– وما العمل للخلاص منه؟

– أنت المخطئة، ذلك لا ريب فيه

– مخطئة! وكيف؟ هل كنت عامدة أن أقصد إلى الهلسبنت لأراه ثمة؟

– ليس هذا ما عنيت

– إذن كيف كنت مخطئة؟

– لأنك سألت سيد الأولمب أن يهب حبيبك الخلود، ونسيت أن تسأليه أن يديم له الشباب، ويحفظ عليه صباه. إذن كنت تمتعت بجماله الفينان ابد الحياة!! أليس كذلك يا أورورا؟

– بلى، هو ذاك ولكن... لقد سبق السيف العذل!

– على كل حال هناك من هو أجمل من تيتون فلا تبتئسي..

– أجمل من تيتون؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شيء؟

– لا أيسر من ذلك، اسحريه!

– أسحره؟! آه؟ فكرة يا أختاه! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذي عنيت أنه أجمل من تيتون؟

– وي

– لا بد من صيد آخر قبل أن يطلق سراح الصيد القديم؟!

– إذن فاذهبي إلى جبل هيماتوس حيث يرعى سيفالوس الجميل قطعانه!

– ثم...؟

– ثم عودي فاسحري تيتون واخلصي منه!

– وماذا ترين أن أسحره إليه؟

– إنه عجوز هرم يدب على عكاز... ألا تسحرينه جندبا(*)؟

– بلى! فكرة نابغة يا أختاه!

ولقيت أورورا حبيبها الجديد سيفالوس الراعي فهويته وشغفته حباً، أما تيتون فيا ويحه، ويا ويح للعشاق من قلوب العذارى! أنه لا يزال إلى اليوم يثب مع آلاف الجنادب في الحقول والغيطان بعد إذ سرحته أورورا.

(*) نطاط.

بجماليون المثال

أسطورة الفنان الذي عشق تماثيله

في مدينة أماذيس، الراقدة كالحمل بين مهاوي الجبال على شاطئ قبرس الجنوبي، كان يعيش المثال بجماليون عيشة كلها عزوف عن العالم، وانزواء عن مشاغل الحياة، وهرب من الناس. كان يأوي إلى ممثله إذا تنفس الصبح، ويكب على عمله حتى توارى الشمس بالحجاب، فيأوي إلى فراشه، سادر النفس، مهموم القلب، مكتئباً حزيناً.

ولم يكن حزنه من نوع هذه الأحزان التي تتعارفها قلوب أبناء آدم، بل كان حزناً فريداً من نوعه، غريباً في أسبابه، شاذاً في دواعيه، حتى لنحسب أن أحداً من الناس لم يشق بمثله من قبل.. ولا من بعد.

كان في بجماليون صدود عن الناس شديد، لا يراهم جديرين بتودد، ولا خليقين بمؤاخاة. ومع أنه كان يضفي من عبقريته على تماثيل الآلهة التي طالما تفننت فيها يده الصناع، فكان يخرجها على نسق الفاتنات الحسان، وفي سمات الغيد القيان، فإنه لم يصب مرة إلى امرأة، ولم ترتبط أسبابه بفتاة. فكأنه كان يسمو بحبه على النساء، وإن كن في الحقيقة صاحبات وحيه، وفيض نبوغه، واللمع الخاطفة التي يتجه شطرها مثله الأعلى..

ولم تكن هذه الحياة الصحراوية التي يحياها لترضيه، ولا تلك المعيشة الآلية التي أغطشت أيامه لتقنع خياله الخصب، وقلبه الرحب. لقد كان يقف منقبض الصدر، مغلول الروح، أمام هذه الدمى الصامتة، والتماثيل الخرساء، التي صنعها لأبوللو،

ومينرفا، وديانا، وكيوبيد، وفلكان!

ولقد كانت المناحت والأزاميل والمثاقب والمناشير، والمبارد والمناعم، وكل عدده تثير في نفسه السخط على الحياة، والبرم بالأيام، كلما فكر في حاله فعلم أنه يحيا بلا حب، ويعيش بلا أمل، ويعمل بلا غرض، ويسعى على غير مطمح!

وبينما هو في يقظته النائمة هذه، إذا بحجارين يحملون رخامة كبيرة، على جرارة ضخمة من هذه الجرارات الثقال، التي تُرى كثيراً في محاجر اليونان، ثم يقفون أمام الممثل، ويطرقون باب بجماليون، فينقدهم ثمن الرخامة، وينصرفون كل إلى طيته، وكأنما كانت هذه الرخامة على ثقلها الهائل، وحيا خصيصاً من السماء، أو آية من آيات الأولمب، هبطت على هذا المثال المهموم، فبدلت يأسه أملاً، وقنوطه المظلم رجاء نير الآفاق! فإنه لينظر إليها نظرات تشف عن التمثال الرائع الذي سيولده منها، وأنه لينزع ملابسه، ويضفي عليه ملابس العمل، ثم يتناول أزميله ومنحته، ويهوي على الرخامة مستلهماً الحول والقوة من "فينوس!!"

"يا فينوس الجميلة، يا ربة الحسن والحب، يا من تسبح لك القلوب العاشقة، وتلهج باسمك النفوس الوامقة ياسر الورد الجميل، ونسمة الفنن الضاحك! يا أم كيوبيد الحالم، وبنت ديون(*) الباسمة، يا فينوس الجميلة، العون، العون يا فينوس!"

* * *

وهكذا لبث هنيهة يصلي، ثم أخذ في عمله، وكأن فكرة تنزلت على فؤاده، وامتزجت بشغاف قلبه، فراح يصورها ويمثلها، في هذه الرخامة النقية كالندف، البيضاء كالثلج. بل كأنما استجابت فينوس ربة الحب لصلاته، فأودعت في يده نفحاتها المباركة. فما دق دقة، أو نقر نقرة، إلا وتمثل فينوس الجميلة أمامه، ناذراً لها

(*) في الميثولوجية اليونانية أن زيوس كبير الآلهة كان مزواجاً، وزير.. ربات. فمن زوجاته ديون التي أولدها فينوس.

هذا التمثال، برغم التماثيل البارعة التي نحتها لها، والتي تملأ معابد اليونان وأقداسهم.

وأقبل على عمله بروح جديدة، ويد لا تكل، فلم يكن يحول بينه وبينه إلا الليل يرخي سدوله، وإلا سنة من النوم ترقص في جفنيه، فإذا نام تتابعت الرؤى، وتلاحقت الأحلام، كل منها يبدي له ناحية كان يجهلها من جمال فينوس!

ولقد بدا له كفنان، أن يروح عن نفسه بيوم يقضيه في الأدغال، وبين مسارب المياه، لكي يجدد نشاطه، وينعش ما خمد من ذهنه، وخبا من خياله، لطول ما أكب على العمل، فانطلق ذات صباح إلى سيف البحر يناجي أبوللو، وهو يوقظ الشمس من خدرها فتعاونه في مركبتها الذهبية الاثباج، وظل يعلو ويهبط، ويروح غادياً إلى هناك، حتى شارف أن ينتهي، وعاوده هواه الملح، فندم على ما قتل من ساعات في هذه الراحة الخاملة، والفسحة الباطلة، فعاد أدراجه إلى الممثل مستغفراً في طريقه الطويل فينوس!

ووصل ما انقطع من عمله، فكان يستذكر أحلامه ليضفيها على التمثال، ويستوحي السماء فتلهمه من أديمها الصافي، وتشيع في يديه وقلبه بطهرها ونقائها، لتنتقل من ثمة سحراً وفتنة فوق تلك العضلة، وتحت ذياك الإبط، وبين انفراج هذين الثديين، وبالقرب من العكن، وحول الفخذين، وعند هذا الأنف الإغريقي الأشم، وملء ذاك الذقن الدقيق، والعنق الرقيق، ولفتة الحدقتين، وانفراجة الشفتين، وتبسيم الثغر، وتكويم الشعر، وتمليس الردف، وتدوير الكعبين، وتنعيم العقبين.. وتباركت يا فينوس!

لكأن بجماليون يحس الحياة تسيل من أزميله الحنون، فوق هذا الجوهر المكنون! وكان يتقدم فينظر، ويتأخر فيرى، ويميل من هنا وينثني هناك، ثم يهطع إلى عل، وينحني إلى أسفل، ليتفقد التمثال من جميع نواحيه، فماذا رأى؟ لقد أستطير من الفرح، ومادت أعطافه من الخيلاء! ولكنه سكن قليلاً، وانطلق يتحدث إلى نفسه

"ويحي!! لم صنعتك أيها التمثال، ما دمت قد بلغت هذا الجمال ولا تتكلم؟ أنا بجماليون التعس، الذي يعيش في هذا العالم القفر، وعلى هامش تلك الدنيا المجدبة، لا أنيس لي، ولا قلب ينبض بحبي، فينبض قلبه بحبه، ولا نفس تصلي لي، فاصلي من أجلها! تكلم أيها الرخام الصامت، وانفرجا بكلمة واحدة أيتها الشفتان الساحرتان! أنا بجماليون! أنا صانعك أيتها الأنثى المتحجرة.. تكلمي، ردي عليّ، فوحق فينوس المعبودة قد أودعتك سر روحي، ولغز حياتي! أوه، ألا تردين على بجماليون المسكين؟ آه فينوس! النجدة يا فينوس! أنا لا أصلي إلا لك يا فينوس... الغوث الغوث!.."

وظل المسكين مكباً على هذه الدمية التي صورها بقلبه كله، وروحه جميعها، يشكو إليها كأنها تسمعه، ويبثها كأنها تصغي إليه، ثم انتهى حاله إلى هيام شديد، وحب ودنف، ولوعة وصبابة، وانقلب عشقه المبرح إلى لون كاسف من الوجد، وضرب شديد من أمر ضروب الحزن، مصدره العقل الحائر والوجدان المضطرب.. إذ كيف يعيش هذه الكتلة المجسمة من الرخام، وهي مما صنعت يداه؟ وأي أمل في هذا العشق الشاذ؟ لا ريب أنه ضرب من الجنون، ما له من ضريب!

ولج به هواه، فأحضر عصبة من الحمالين الأقوياء، نقلوا له تمثاله إلى ردهة الآلهة– كما كان يسميها– وهي صالة واسعة في الطابق الثاني من البناء الذي فيه ممثله، وقصد إلى أمهر الصاغة وتجار اللآلِىء، فاشترى ما وسعه من الحلي البالغة والجواهر النفيسة، وعاد فقرط الأذن، وقلد الجيد، وتوج الرأس، ثم هام في المروج الخضر، والحدائق الغناء، يجمع الورود والرياحين، كيما ينثرها تحت قدمي التمثال!

وتحولت الردهة إلى معبد من معابد البوذية المقدسة، بما عكف يحرقه من مقتنى الند، وفواح الرند، في مباخر المرمر الجميل المصففة حول قاعدة التمثال.

وتلف تلفاً شديداً من الغرام العجيب، فلم يكن يكتفي بالعبادة في الحب والخبوت بين يدي ذلك الصنم المنتصب للفتنة، بل كان يشركه في كل أمره، ويعرض

عليه جميع شأنه، حتى القراء! فطالما كان ينشده من دواوين الشعراء ما جاءت به القرائح وشدت به الألسن وتغنت بألحانه قلوب العاشقين!

معذور بجماليون! لقد تعب وراء الحب، ولكنه لم يلق هذه الغيداء الفاتنة، التي تستطيع التسلط على مشاعره، والهيمنة على فؤاده، وكان يتخيل روعة الجمال فلا يجدها مجتمعة إلا في هذا التمثال الذي نحته لهذه الأنثى، فعبده، وراح يتمنى على الآلهة الأماني، أن تنفخ فيه من روحها، وأن تهبه الحياة ونعمة العيش.

* * *

وبينما هو نائم في هدأة فجر اليوم التالي، إذا به يصحو فجأة على لغط شديد، وهرج عال في الشارع الذي يقع فيه بيته. فينهض إلى النافذة، ويرفع الستر، ويفتح أحد المصاريع قليلاً، ثم يحني رأسه ليرى. وإذا موكب زاخر من غوغاء المدينة يحملون تمثالاً كبيراً من تماثيل فينوس التي صنعها بجماليون، وإذا الدهماء ينشدون الأناشيد الشعبية، ويرسلون في غبشة الصبح أغانيهم (الشعبية) الجميلة.. وكان من عادة سكان أماذيس أن يحتفلوا بالربة فينوس ثلاثة احتفالات يفاجئون بها النائمين ثلاث مرات كل سنة، فلما عرف بجماليون أن الحفل حفل فينوس، أسرع فارتدى أبهى ملابسه، وجمع بعض باقات الزهور المبعثرة تحت قدمي تمثاله، وهرول على الدرج، ثم انفتل في الشارع، واندمج في صميم الشعب الذي يلهج بالصلوات والأدعية باسم فينوس. ثم ما هي إلا هنيهة، حتى كان بجماليون يهتف كما يهتف الأطفال والسذج، ويردد من الصلوات ما يرددون.

ولم لا؟ هل لحظة من الزمان هي خير من هدأة الفجر ترسل فيها الصلوات على أول آراد الصباح، إلى آلهة السماء، وأرباب الأولمب، فتسمع وتلبي؟

وكان كل همه أن ينتهي هذا الحشد الهائل إلى المعبد، حيث يستطيع أن يرتل دعاءه، ويتمتم بصلاته.

وقد انتظر حتى فرغ الكهنة من جميع الطقوس التي اعتادوا أن يقوموا بها في مثل ذلك اليوم، وأخذت الجماهير تنصرف هاشة مستبشرة، كأنما غمرتهم نفحات خالدة من فينوس. ولما لم يبق في المعبد إلا كهنته، وأفراد من الأتقياء الصالحين، يصلون صلاتهم، ويغمغمون بأدعيتهم، تقدم بجماليون في روعة التقي وخشوع الورع، ووقف خابتاً أمام المذبح حيث تصاعد ألسنة البخور المعطر، حاملة الأرج الشذي من لهب المحرقة إلى السقف... والسجف، فتكسب الهيكل جوه القدسي البديع. ثم ألقى في اللهب بحفنة من فتيت الكافور والمسك، وطفق يرتل هذا الدعاء الطويل: "فينوس الكريمة البارة، يا ربة الحب الطاهر، والهوى البريء، أيتها القديرة على كل شيء، المتصرفة في جدود العاشقين، وحظوظ المدنفين: أصغي إليّ، ولا ترفضي دعائي: منذ اهتديت إليك، وأنا عبدك القانت لك، الهاتف باسمك في الغدو، المصلي لك في الآصال، لا أني عن ذكرك، ولا يفتر لساني عن التسبيح لك، والنسك من أجلك، باسمك أقبل على فني، ومنك استلهم وحي العبقرية، فأنت لي قبل كل شيء..

ولقد أيقظتني صلوات الشعب لك من أحلامي الجميلة بك، فلم أطغ ولم استكبر، بل هرعت إليك، أتوسل بك، والتمس البركات منك فحنانيك يا فينوس!

حنانيك يا ربة الحب، وجابرة القلوب الكسيرة، والنفوس الحائرة!

أنتِ، من غير ريب، تعلمين ما ألم بي من برح هذا الهوى الطارئ وما تام قلبي من حب هذه الدمية التي صنعتها باسمك ونذرتها لك، فدلهتني، وشدهت روحي المبلبلة، وصارت لي أعذب الأماني وأعز الآمال. وهي بعد رخامة لا روح فيها ولا نأمة، أكلمها فما ترد، وأناجيها فما تجيب، وأغني لها فما تبتسم!

أنت قديرة يا فينوس! فانفخي فيها من روحك، وانشري الحياة في أركانها، وامنحيها النبضات والأنفاس.

حنانيك يا فينوس! وسلام لك من قلوب العاشقين!"

وما كادت صلاته تنتهي، حتى انهمر الدمع من عينيه يروي قدمي التمثال المنتصب في المحراب. فانبعث الشرر عالياً من المحرقة، حتى أضاء قبة الهيكل، والتمع في جميع أرجائه، وأقبل الكهنة والمصلون يباركون بجماليون ويهنئونه، لأن انبعاث الشرر هكذا، عقب الصلاة، هو في اعتقادهم دليل رضى الربة، وآية تلبيتها واستجابتها!!

ولكن مثالنا لم يشعر بقلبه يثلج، ولا بنفسه تهدأ، بل على العكس أحس كأنما الحياة تتدجى أكثر من قبل، ويحلولك كل شيء في عينيه وشعر بعد ذلك بقنوط قاتل ينفذ إلى صميمه، فيطفئ فيه ما رجى من الآمال البيض، والأماني العذاب! فتعثر إلى الباب غير آبه لما حوله من الآس المنضود في أنحاء المعبد، والزهر المبثوث في صحنه الرحيب، وما برح بين ونى وبطء حتى باب منزله، فولج متساقطاً على نفسه، وانبطح على أول سلاليم الدرج لا يحسن ولا يعي!

* * *

وغفا إغفاءة مريضة، فبدا له أن يحمل أرزبة هائلة، يهوي بها على رؤوس الدمى، ويحطم بها التماثيل المنتشرة في ردهة الآلهة.. إلا تمثال فينوس الجديد، المرصع باللآلئ واليواقيت! ففزع فزعة مروعة، ونهض يعدو إلى الصالة، يتفقد التماثيل.. فما راعه إلا أن يسمع صوتاً رقيقاً يناديه:

"بجماليون... بجماليون... أرق إلى هنا... هلم إليّ!!"

من؟ صوت من هذا؟ إنه صوت مرمري لا عهد لبجماليون به!!"

وقفز قفزات كان بها في الطابق الثاني، ونظر فلم يجد تمثاله الحبيب في المكان الذي غادره فيه... "... أين؟ ويحي! لصوص!"

ولكن الصوت الرقيق الرنان عاد يطن... ويرن "لا، ولكنها فينوس!" والتفت بجماليون فرأى غادة هيفاء في طبق تمثاله ونسجه، متكئة على الأريكة التي طالما وضعها أمام التمثال وأنشد عليها الأشعار؟!

"من أنت أيتها المعبودة؟"

"لست معبودة، ولكنني هبة فينوس لك! أنا جالاتيا تمثالك المكنون!"

"وكيف؟ أنا لا أصدق. هذه خديعة لا شك!"

"وكيف تخدعك السماء يا بجماليون؟ أتريد أن تكفر بآلاء فينوس؟"

"لا.. لا.. لا أريد أن أكفر.. وحاشاي.. ولكن كيف صرت أنسيه، ومن وهبك الحياة!"

"هذا سر فينوس. وهذه قبلاتك لا تزال مطبوعة على قدمي!"

"يا للسعادة!"

"انظر إلى هاتين الشفتين القرمزيتين، وهذين الخدين الموردين، وتينك العينين الزرقاوين. هل استطعت أن تموه تماثيلك بهذه الأصباغ الفينوسية؟"

"وأنظر إلى الأنفاس الحارة التي تتردد في صدري، هل وسعك مرة أن تبعها في إحدى دماك؟"

"حاشا. حاشا"

"إذن فهلم إليّ أحدثك حديثي"

"فدنا منها بجماليون المشدوه"

– بجماليون! لقد استجابت فينوس لدعائك، وقبلت صلاتك، وحضرت إلى هنا إذ كنت أنت في الهيكل تبكي وتنتحب، فمنحتني الحياة، وعلمتني من العلم ما لم أكن أعلم.

– "ولكني كيف بحق فينوس عليك يا جالاتيا"

– "كنت منتصبة كما وضعتني على تلك القاعدة الناصعة، فأحسست حدثتي تتحركان، وإذا بي أرى فينوس الجميلة أمامي، تأمرني أن أدلف نحوها، ففعلت، وكنت أحس كأن ثلجاً ينفذ من كياني، وأن حرارة تشيع في أركاني، وكانت فينوس تقول لي.. "تعالي.. تعالى، وكوني ربة هذا البيت، احميه واحرسيه، وانشري السعادة فيه! تعالي ألقنك دروس المحبة والحياة.."، ثم أنها نفثت في أذني نفثات تعلمت بها هذه الكلمات. وأسبغت علي هذا الثوب الحريري الذي لا بد أنك قد رأيته على تمثالها في الهيكل.. ليشهد لك أنها هي التي منحتني الحياة.. ومنحتك الحب!"

– "وماذا؟ وماذا يا حبيبتي جالاتيا؟"

– "ثم تقدمت إليّ فنولتني قبلة مشتهاة لن أنسى ما حييت أسرها، ودعت لي ولك بالوفاق الأبدي، والإخلاص السرمدي، لنكون آية السماء في هذه الأرجاء! وابتسمت ابتسامة أرق من أطباق الورد، ولم أعد أراها.."

وأتمت جالاتيا حديثها، فاستقر بجماليون في أحضانها!

ثيذيوس يقتل المينوطور

ويخلص أثينا– لعب يثير حرباً

كان الملك ايجوس، ملك أثينا، في شرخ صباه وعنفوان شبابه، زير نساء وأخا شهوات، وكان ذا نبرات تكاد تسعى به إلى حتفه.. بظلفه..

ذهب مرة يجوب ريف مملكته، فلمح وجهاً مشرقاً ينبثق من كوة كوخ في إحدى القرى، تتراقص حول ثغره الصغير بسمات هن رسل الحب، وتنطلق من عينيه النجلاوين نفثات تصرعن ذا اللب.. حتى لا حراك به..

وطرق الباب يستسقي، وما به ظمأ، فامتدت إليه ذراع عاجية لدنة تحملك كوباً من البلور، مفعماً برحيق الحب، وإن لم يحو غير الماء القراح!

وتناول الكوب ولبث لحظة يشرب ما فيه بعينيه، دون أن يمتد فمه إليه، ثم أرسل زفرة دفعت الباب فانفتح على مصراعيه، ودخل غير مستأذن فروى فمه وبرد قلبه، وبل جاحم الحب الذي زلزل أركانه.

ثم تزوجها، ومكث عندها شهراً كان عسلاً كله! ووصل إلى قاعدة الملك، وأم القرى، أثينا، بعد أن ترك وصاته المكتوبة الآتية: "في الغرفة التي ضمتنا لأول مرة نلتذ الحياة وننعم بطيب العيش، هنا، وفي هذا المنزل الصغير الذي اتسع لدنيا الآمال والأحلام، وتحت الحجر الكبير الملون، حيث كانت قدماي تحييان في سكرة الهوى قدميك، قد استودعت نعلي اللتين حملتاني إليك، وسيفي الذي فريت به رؤوس الأعداء حتى سعدت بك، فإذا وضعته غلاماً فسميه ثيذيوس، ونشئيه وطرئيه حتى يصلب عوده، ويشتد ساعده، فخذيه إلى الحجر فليرفعه، وليلبس نعلي وليمتشق سيفي، ثم ليمضي إلى أثينا، لا حافظ له إلا قلبه، ولا حارس إلا سيفه فإذا شاءت

العناية فإنه بحول زيوس العظيم ولي عهدي، وصاحب التاج من بعدي".

وتتابعت السنون وكانت أثينا تزهى كل سنة بعيدها الرياضي الفخم، فتلبس حلة من البهجة والإيناس، وتؤمها وفود الأقاليم المجاورة تتفرج بالألعاب الجميلة، وقد تشترك فيها، وكان لمينوس ملك كريت(*) ابن مفتول العضل قوي البنية حبيب الطلعة، كان يقدم إلى أثينا إبان عيدها الرياضي ليباري أبطالها، ثم يعود مشمولاً بحب الاثينيين وإعجابهم الشديد، ولقد كان يحدث ألا يكون للموسم بهجته المعتادة إذا تخلف ابن مينوس فلم يحضر إلى أثينا.

ومن غريب المصادفات أيضاً أن ينشأ ثيذيوس هذه النشأة الرياضية التي نشأها ابن مينوس، والتي كانت أمارتها تبهر الاثينيين وتخلب ألبابهم في موسمهم الرياضي.

ولم يكن الاثينيون يعلمون أن لملكهم ولداً، إن لم يبرز على ابن مينوس في الألعاب الرياضية، فإنه لا يقل عنه شأناً فيها. ولم يكن الملك نفسه يعلم عن ولده شيئاً، ولو قد علم عنه شيئاً لما سولت له نفسه الأثيمة أن يدبر غيلة ابن مينوس في حلك الليل، وفي طريقه المقفرة إلى المرفأ، حين آب بأكبر جوائز الموسم الرياضي في المصارعة والملاكمة والعدو ورمي القرص!

لقد أكلت الغيرة العمياء قلب الملك الجبان، وتلظى فؤاده بحقد أسود حجب بصيرته، فأرسل عصابة من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين، فذبحوا الشاب المسكين، ونبذوا جثته بالعراء، تنوشها الوحوش وسباع الطير!

واهتزت أثينا المضيافة، أثينا أم القرى، لهول الجريمة، ونقموا على القتلة الأشرار اعتداءهم الشنيع على ضيفهم المحبوب، وكادت تندلع ألسن الثورة حين استفاضت

(*) كريت أو كريد هي جزيرة اقريطش وقد آثرنا التسمية الأولى لسهولتها وذيوعها.

الإشاعات وراجت سوق الأقاويل، لولا أن وصل في صبيحة ليلة الجريمة، البطل الصغير ثيذيوس ولي العهد، فجأة، ومن غير سابق علم، ولا ترقب ولا انتظار!

ثيذيوس! ومن يكون ثيذيوس هذا؟!

"ولي عهد المملكة ورجاؤها، ومعقد آمالها

"وأين كان الشاب؟ وابن من؟ ومتى ولد؟"

"كان ينشأ في الريف، وهو ابن حسناء من أميرات الأقاليم، وولد منذ عشرين سنة.

"ولم لم تعلم به أثينا من قبل؟

"أراد الملك أن يفاجئ شعبه بهذا الخبر السار لولا اغتيال ابن مينوس؟!

"وهل هو حقاً أشجع من ابن مينوس؟

"ومن يكون ابن مينوس وألف بطل كابن مينوس إلى ولي عهدنا ثيذيوس؟

وهكذا راحت الجماهير يتحدث بعضها إلى بعض حديث ثيذيوس.

أما كيف وصل هذا الأمير الصغير، فإن أمه لما آنست فيه القوة واكتمال البنية، ولما رأت من تدفق ماء الشباب في وجناته، وسريان كهرباء الحياة في عضلاته، قادته إلى الحجرة التي لقيت فيها لأول مرة أباه، ثم ناولته الخطاب المكنون الذي يحمل وصاة الملك. وما قرأ الفتى ما جاء بالخطاب حتى تأكدت له الأماني العذاب التي كانت أمه تهتف له بها، فتقدم إلى الصخرة فرفعها بأقل جهد، ثم حمل السيف فقبله، ووضعه هنيهة على رأسه، ثم على عينيه، ثم على قلبه، كأنه يطبع به خاتم المحبة الأبوية على أعز جوارحه!

وربط النعلين العزيزتين على قدميه، وانهال على خدي أمه ويديها يقبل هذين ويلثم هاتين، ثم ودعها، وتزود من نصائحها، وانطلق ميمماً شطر أثينا.

وكانت الطريق إلى العاصمة صعبة شائكة، محفوفة بالمكاره، ككل طريق تؤدي إلى جنة أو نعيم! فاللصوص وقطاع الطرق والسفاكون يأخذونها من كل حدب، والسباع الضواري تعج في جنباتها، والغيلان والأبالسة تهمهم في جميع منعطفاتها.. ولكن هذا كله لم يثن من عزم ثيذيوس، فلقد قتل كل من تعرض له من لصوص هذه البرية المرعبة، وفرى رؤوس سباعها، حتى لقد فر الكثيرون أمامه يذيعون نبأ مقدمه في أثينا. فما وصل إليها حتى كان صيته قد سبقه إليها وشاع فيها. وما أن تقدم إلى أبيه الملك حتى عرفه ونزل من فوق العرش فعانقه وقبله، ثم عاد به فأجلسه بجانبه، وأرهف أذنيه يصغي إلى قصة حياته، ومجازفته في الطريق التي تكتنفها الأهوال إلى أثينا!

وأعلن السرور العام في المدينة، وطفقت النواقيس تدق في الهياكل، وأطلق سراح المجرمين من جميع السجون، وجعل الناس يتندرون بشجاعة ولي العهد وقصته العجيبة، حتى لأنساهم ذلك هول المأساة الدامية التي روعتهم وزلزلت قلوبهم.

وانتظر مينوس أوبة ابنه، بيد انه قلق لانقطاع أخباره، وساورته الظنون من أجله، وحسب أن ريحا عاصفا ثارت بمركبه في البحر الايكاري(*) فأغرقته، لولا أن أحد التجار الكريديين عثر بجثة القتيل فاحتملها إلى الملك، الذي تصدع قلبه من الأسى!

ولا تسل عما انتاب مينوس من الحزن، ما شمل كريد من الهم، حتى لم تبق فيها عين لم تذرف ماءها على ولي العهد.

(*) نسبة إلى ايكاروس (أسطورة سابقة).

واتصل بالملك ما كان من فعلة ايجوس ملك أثينا، فاستيقظ الناس صبيحة اليوم التالي على صيحة الحرب، تدوي في غبشة الفجر فتنقض المضاجع، وترن في الآذان فتتجاوب لها حبات القلوب! وما تطلع الشمس حتى تكون البطاح مائجة بجنود كريد البواسل، هائجة بالمتحمسين من الشبان والشيب، هرعوا جميعاً فدى للملك، ورياً لمجد الوطن، واثاراً لولي العهد!

وترامت الأخبار إلى أثينا، فاعتكرت أفراح البلاد، وسكن ضجيج الشعب، وسارع الجميع يستعدون للقاء العدو، فها هي ذي القلاع قد سهر عليها حراسها، والسبل منبثة فيها الجنود شاكي السلاح، والمرافئ تعج بالسفائن الحربية، وكل رجل في المملكة قد اضطلع بنصيبه في الذود عن بيضة الوطن!

وأقلع مينوس بأسطوله اللجب، وعسكره المجر، وفرسانه العديدين، مزودين بميرة ليس كمثلها ميرة، وذخيرة يا لها من ذخيرة... ومخر الأسطول لا تحول بينه وبين مطمحه عقبة، ولا يقف من دونه محمق ولا مجنون. ووصل الأسطول إلى أثينا، غادة هيلاس، وهدية الآلهة إلى فينوس، وعروس الأحلام الجميلة، فوجد الأسوار مخفورة، والبوابات مغلقة، والناس داخل المدينة مستعدين للدفاع عنها، فألقت الفلك مراسيها. واندفع الكريديون يحتلون السهل الواسع المحيط بالمدينة حتى ملأوه، وحتى لا ترى إلا خياماً تصل أقصى الشمال بأقصى الجنوب، وتربط أول الشرق بآخر الغرب.. جنود وضوضاء.. وصهيل ورغاء.. وعسكر كالجراد المنتشر لا تبلغ أوله عين، ولا يذهب إلى آخره خيال!

وصابر مينوس يحاصر المدينة أياماً طوالاً حتى قلت الأقوات داخلها وأخذ أهلها يشكون الجوع والجهد، وزاد في شدتهم أن نضب الماء، فعم البلاء.

ولم يكن أمام الاثينيين لا إحدى اثنتين: إما الموت داخل الأسوار صبراً، وهذا ما لن يكون، وإما الخروج للقاء المحاصرين ومناضلتهم، وذلك ما لا طاقة لهم به ولا

قدرة لهم عليه.

أمران أحلاهما مر، وأخفهما فيه الويل، وعقباه الدمار والبوار، وأجمع بعض عقلائهم على أن يذهبوا إلى ملكهم يرجونه في أن يذهب إلى الهيكل فيقدم القرابين إلى الآلهة حتى تأتيهم نبوءة السماء ووحي أولمب بما ينبغي أن يكون.. ولكن الملك أبى واستكبر، ثم قبل بعد إلحاح أعيان القوم أن ينوب عنه في هذا الشأن أحدهم.

وقصد قائم مقام الملك إلى هيكل فينوس فتقرب بالضحايا وعقر القرابين، وقبل الأرض بين يدي تمثالها المنتصب فوق المذبح، ولبث غير قليل..

وخشعت الأبصار وسكتت القلوب، وعم المعبد وجوم عجيب.

ثم انبعث الصوت القدسي الضعيف من خلوة الكاهن يقول:

"ليفعل الاثينيون ما يأمرهم به مينوس ملك كريت.. الويل لهم إن حاربوا!!"..

وهلعت الأفئدة.. وطاشت الأحلام!!

وتلقاها الملك كما يتلقى الإنسان حكماً عليه بالإعدام.. ولكن ما العمل؟ ولا حيلة لبني الموتى في دفع أحكام القضاء؟

وأرسل ايجوس إلى ملك كريد يعرض عليه الصلح، ويسأله عن شروطه.. فقال مينوس لرسل الملك:

"قولوا لايجوس، الآن عرفت كيف طعنت فؤاد مينوس تلك الطعنة النجلاء بقتلك ابنه وولي عهده.

ولقد جئناك نطلب ثمن هذه الفعلة الشنعاء، ولن تكفينا أثينا كلها ثمناً لها! أما وقد ذللت، فحسبنا أن نرجع بسبعة من خير شبابكم وأجمل فتيانكم، وسبع من أبكار الاثينيات وأبهى حسانها، ليكون الجميع غذاء حلالاً للمينوطور، على أن

ترسلوا كل عام في مثل هذا الزمن أربعة عشر آخرين من خيرة شباب أثينا وأكرمهم حسبا، فإن رضي الملك وسلم فدية هذا العام رحلنا عنكم إلى العام المقبل".

وسكت الملك وتحدرت من عينيه دموع غلاظ، وثار في قلبه هم قديم.

طلب مرعب ينم عن قسوة وغلظة! غير أن قتل ابن مينوس غيلة، في رحاب أثينا، وفي دجنة الليل، وبتدبير الملك، كل ذلك يبرر الغرامة الوحشية التي فرضها ملك كريت!

وكاد ايجوس يرفض هذا الهوان الذي طلب إليه أن يؤديه عن يد وهو صاغر، ولكن الشعب هاج هائجه وضج الرعاع يطلبون الخبز، أو تسليم المدينة أو.. دم الملك!!

فذل ايجوس المسكين وصغر، وقبل شروط مينوس مرغماً واختير من شباب المدينة سبع كواعب أتراب، وسبعة فتيان في ريعان الصبى، وشيع هؤلاء وهؤلاء إلى الأسوار بين بكاء الأمهات وعويل الآباء وآلام المحبين!

وهرع الكريديون إلى خيامهم فاقتلعوها، وإلى شراعهم فنشروها، وأقلعوا في الصباح الباكر بعد أن ألقوا على كبرياء ايجوس هذا الدرس المهول!

* * *

ومضت سنون وأثينا العظيمة تؤدي الفدية عن يد وهي ضارعة، حتى ثارت كبرياء ثيذيوس وفارت نخوته، وتقدم إلى أبيه الملك الشيخ، حين دعا النفير العام لتقديم الفدية، يضرع إليه أن يكون هو الفداء الرابع عشر من شباب هذا العام: "على الأقل يا أبي يكون في هذا بعض العزاء للاثينيين، وليثقوا أننا لا نذلهم، وأننا منهم وهم منا، وأننا آخر الأمر، نشرب بالكأس التي يشربون!"

وصعق الوالد حين تقدم إليه ولي عهده بهذا الطلب، ورفض رفضاً باتاً.. ويغلي

الدم في رأس البطل الشاب فيقول للملك: "إذن فأنا أحطم كأس الحياة التي أنعمت مذلة وهواناً، وسأريق مع سمها الأسود هذا الدم الأرجواني الذي لا أستحقه، ولا أشرف به.. أبتاه! لن تتحرك السفينة الحزينة حاملة ضحايا قسوتنا واستبدادنا حتى أحييها بحياتي، وأرويها بدمي، ليكون قرباناً لمن عليها من عشيرتي ولداتي.."

وقبل أن يفصل البطل الشاب، ناداه والده باكياً، ونهض فباركه، وقبل، والهم يمزق أحشاءه، أن يكون بين الضحايا..

وفي الحق أن ثيذيوس لم يكن يعرض نفسه للتهلكة، ولكنه كان واثقاً من شجاعته، مؤمنا بما وهبته الآلهة من جلد وبأس، وقلب لا يفله إلا الحديد، لأنه من حديد. ولقد صمم أن ينازل هذا المينوطور الخبيث، فإما قتله وعاد مرفوع الرأس، موفور الكرامة، ليعيش في وطنه منقذاً لأثينا، وإما قضى القضاء أمره فيه، وليس هو بأعز ممن راحوا ضحية هذا الوحش المخيف!

وقال لأبيه وهو يودعه، حينما ركب المركب السوداء التي يرفرف عليها علم الموت "أبي! لا تبك! أنك ملك، ودموع الملوك لا تذرف إلا في سبيل الوطن! إنني ذاهب إلى معركة أرجو أن يكتب لي النصر فيها! لقد فزت على عشرات من أمثال هذا الوحش ولما أكن بعد إلا طفلاً.. ادع لي أن أفوز به، فأريح أثينا العزيزة من شره"

* * *

وأقلعت السفينة تحمل هذه الفلذات الغالية من أبناء البلاد، ومخرت في بحر تلاطمت أمواجه، وزخرت أثباجه، وطم آذيه(*)، وانتفخت أوداجه، حتى وصلت إلى كنسوس حاضرة كريت. وهرع الناس من كل فج يستقبلون ضحايا المينوطور، وفي وجه كل منهم عبوسة حزن، وملء قلوبهم ثورات مكبوتة من الأسى، على هذا

(*) الآذي: الموج.

الشاب الناضر الذي أقبل إلى الموت من قرار بعيد!

وكانت في الجماهير فتاة غضة الأهاب، بضة الشباب، حلوة ناعمة، نهضت في مركبتها لمشاهدة الضحايا الاثينيين، فما كادت عينها تصيب نظرة من ثيذيوس، حتى أحست في أعماقها بنفحة السماء التي تسبق لفحة الحب!!

وترى من يكون هذا الشاب الأنيق والفتى الرقيق؟

"إنه يقبل في غير وجل، ويقتحم الجماهير في غير هيبة! أعبر بحار الموت قبل هذا؟

" لا شك يا فتاة أنه أمير إن لم يكن ابن ملك!

"إن الحمرة التي تطير من الورد إذا قطف، ما تفارق خديه، وهو مقدم على الردى!!!

"إن صفرة الموت تستحي أن تموه هذه الوجنات!؟

"أمن السماء هذه الزرقة التي تملأ عينيه؟..

"بل مثله لم يخلق إلا ليكون زهرة هذه الحياة الدنيا...

"أيها الشاب... لن تموت

وهكذا جعلت تتحدث تلك الغادة... الأميرة الجميلة بنت مينوس..!

وكأنما قرأت وصيفتها الأمينة ما دهى سيدتها من حب الفتى في كتاب عينيها، فقالت: "أتحس سيدتي بتعب؟"

"لا يا فتاة... ولكن انظري إلى هذا الفتى المتفتح كالزهرة!

"والله يا سيدتي إنه جدير بعطفك، خليق برحمتك...

"وما والعمل يا فتاة وليس لنا في إنقاذه يدان!

"هوني عليك يا مولاتي! إنه وأيم الله من سلالة الملوك! إن لم يكن ابن مليك! وهو بادي الشجاعة ظاهر الفتوة! وإن له لسيفاً طويل النجاد ما حمل أحد مثله، ولم أعهد قط أن من ضحايا المينوطور من جاء بذي غرارين من شنه... فلم لا ندبر معه قتل المينوطور!؟.."

"قتل المينوطور؟ إنك تهرفين! ومن يجسر أن يدخل والمينوطور في معترك؟

"لا عليك؟ نرشو السجان فيفلت الشاب في ظلام الليل، ونهديه إلى باب اللابيرنث(*) فينطلق إلى الوحش الغاط في نومه العميق، فيجذ رأسه بهذا الجراز الذي ترين!"

"يا له من تدبير! ولكن كيف يعود الشاب وأنت تعرفين من منعرجات اللابيزنث وشعابه ما تعرفين؟.."

"لا أسهل من هذا أيضاً! خيط طويل من أمراس الكتان يمسك هو بطرفه الأول، ونمسك نحن بطرفه الآخر، يهديه في ذهابه ويرشده في إيابه!!"

وطربت بنت مينوس لتدبير وصيفتها، فمنحتها قبلة شهية وخلعت عليها جائزة سنية... وانطلقتا تترقبان المساء..

وعرف ثيذيوس أنها ابنة الملك فاستطير من الفرح، وعرفت أنه ابن ايجوس، فكبر رجاؤها وتلألأت آمالها...

وقتل المينوطور، وفك أسار رفاقه ورفيقاته، وأقلعت بهم الفلك، حاملة جوهرة

(*) اللابيرنث هو التيه الذي بناه ديدالوس للمينوطور وقد حدثناك عنه في أسطورة سابقة.

جديدة غالية، هي ابنة مينوس... وربيبة كريد.

أما الملك! فقد صبر! وأرضاه أن يحرض ايجوس فيعتذر له ويصالحه!...

وهكذا حسم الحب هذا الخصام الطويل.

بندورا وسرقة النار المقدسة

توزع الآلهة تعمير الكون، فكانت الأرض من نصيب بروميثيوس بن يابيتوس، أحد ذراري التيتان العمالقة، الذين حبسهم أبوهم خشية جبروتهم ومخافة بأسهم..

وطفق بروميثيوس يفكر، حتى بدا له أن يجعل في الأرض أناساً يخلقهم على صور الآلهة، فاستعان أخاه أبيمثيوس فهداه إلى الحمأ المسنون أو الطينة البشرية. فخلقا منها الإنسان ×××، وذهبا إلى أيدوس(*) فنفخ فيه من روحه، التي هي الحياة، وقصدا إلى مينرفا فنفث فيه نفثتين، هما النفس والعقل.

وخلق بروميثيوس رجالاً كثيرين على هيئة آدم الأول، وجلس على أكمة عالية يشرف على عباده الصالحين!! ولشد ما كانت الكبرياء تشيع في أعطافه، كلما نظر فوجدهم يتحدثون بآلائه، ويسجدون له، حتى فكر في نعمة أخرى يسبغها عليهم فتكون أجزل النعم!

"النار! النار المقدسة تنفعهم وتلين لهم حديد الحياة! ومع أن بروميثيوس يعلم من أمر هذه النار ما يعلم، ومع أنه يعلم أنها محرمة على غير الآلهة، وأن كل من استباحها لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الإله الأكبر ونكاله، فقد ذهب إلى الأولمب وتغفل زيوس، ودس قبساً من النار في تضاعيف ثيابه، وعاد كالبرق إلى عباده المخلصين، يقدم إليهم هديته التي سرقها من أجواز السماء!

ونظر زيوس من علياء الأولمب، فرأى النيران تتأجج هنا وهناك في أديم الأرض، ففطن إلى السرقة المنكرة، وانقذفت من فمه المزبد رعود الغضب!

(*) هو كيوبيد إله الحب.

وارتجف الأولمب، وزلزلت السماء، وارتعدت فرائض الآلهة، وأمر الإله الأكبر فأحضر بروميثيوس مكبلاً بالأصفاد، ملطخا بالوحل، وعبثا حاول الدفاع عن نفسه، ثم حكم عليه فسيق إلى جبال القوفاز، حيث غل عنقه الضخم وذراعاه الكبيرتان، وفخذاه اللتان تزريان بفخدي فيل، في قنة عالية، وسخر الإله الأكبر رخاً عظيم الجثة، حاد الأظافر، كبير المنسر، فذهب إلى حيث بروميثيوس، ينوشه، ويمزق جسمه، وينفذ أظافره ومنسره في أحشائه حتى تبلغ الكبد، فيهرأه ويطعمه حتى يأتي عليه، وينصرف إلى غد.

فإذا كان الليل، وهبت الريح سجسجاً، التأمت جراحات الإله المسكين، ونما له كبد آخر، وينام حتى تشرق الشمس، فيعود الرخ ليبدأ ما انتهى منه أمس، وليأخذ في تعذيب بروميثيوس التعس، إلى أن تغيب ذكاء!!! وهكذا دواليك، أحقاباً وأحقاباً...

ويلبث الإله المنكود في هذا العذاب الطويل حتى يلقاه هرقل الجبار في أحد أسفاره، فتثور الشفقة في قلبه، وينقض كالصاعقة على الرخ، فلا يتركه حتى تزهق روجه، بعد صراع عظيم، ثم يفك أغلال بروميثيوس ويحرسه، حتى يقبل الليل فيشفى مما به، ويسير بين يديه حتى يبلغ أوطانه، حيث عباده الصالحون!!

وفرح الناس بإلههم وسروا بلقائه، وقدروا ما لقي في سبيلهم ومن أجل سعادتهم، فعنوا له واخبتوا.. وكانوا يحيون في بلهنية، غارقين في طراوة من العيش وسعة من الرزق، هواؤهم رخاء وماؤهم صفاء، لا يشكون متربة ولا يعرفون ضنكاً، ولا تلم بهم ملمة من مرض أو رجس. ولم يعرفوا الموت، ولم يدروا ما البكاء، فكأنما كانت حياتهم طوبى، ونعيماً مقيماً.

وعلم زيوس ما كان من أمر بروميثيوس وفرح الناس بأوبته إليهم، فغيظ غيظاً شديداً، وآلى ليكيدن لهم كيداً، وليرسلن عليهم من مكره ما لا طاقة لهم به...

ونظر زيوس فرأى أنهم مخلوقون على صور الآلهة، ولكنهم كلهم ذكران، "ومن الآلهة أنثيات، فلم لا أصنع لهم أنثى تذهب بحرثهم ونسلهم إن صح أن يكون لهم نسل؟..."

وأرسل دعوة عامة إلى جميع الآلهة فسعوا إليه من كل فج عميق، وأخذ يحدثهم حديث بروميثيوس، ثم أخبرهم أنه يريد أن يخلقوا له أنثى جميلة يودع فيها كل منهم سراً من أسراره: "لأنني سأرسلها هدية إلى هذا المجنون بروميثيوس ليشهد بعينيه ماذا تصنع بعباده الذين خلق.."

واقترح الإله أن يفرغ هيفستوس(*) إله النار والفن وابن زيوس، إلى ابتداع هذه الأنثى، فسواها من نفس الحمأ الذي خلق منه الإنسان، وجاءت آية من آيات الحسن، رقيقة كأنها صورت لتكون فتنة الأولمب.

واحتملها إلى زيوس، وأقبل الآلهة ينفثون فيها أسرارهم، ويستودعون نفحاتهم. فهذه فينوس تهبها من جمالها، وحيرا من ثرثرتها، ومينرفا من حكمتها، ولاتونا من استيحاشها، وديانا من رشاقتها، وكيوبيد من حبه، وأبوللو من شعره وموسيقاه...

أما هرمز الخبيث، فقد انتظر واستأني حتى فرغ الآلهة من إسباغ آلائهم، ثم تقدم، وملء وجهه ضحكة ساخرة فأودع الحواء(**) قلب كلب، ونفس لص، وعقل ثعلب!!...

ثم نفخ فيها زيوس من روحه، فدبت الحياة في أعطافها، ونظرت حولها فأبصرت الآلهة مشدوهين، مأخوذين بسحر جمالها، فولت مدبرة ولكن إلى غير مهرب.

(*) هو فلكان الروماني.

(**) الحواء: الأنثى الأولى.

وشرع الآلهة يتخيرون لها الأسماء، ثم سماها ربها "بندورا" وأومأ إلى هرمز فاحتملها كالطفلة المدللة، وذهب بها، هدية غالية من السماء إلى التعس بروميثيوس الذي رفضها غير شاكر وأباها غير حميد!

وكان لديه أخوه أبيمثيوس فكادت نفسه تذهب شعاعاً حين أبصر هذه الغادة الهيفاء، يرفضها أخوه هدية من السماء! وتقدم هو فضرع إلى هرمز أن ينزل له عنها، وأن يغفر لأخيه حماقته، وقلة بصره، وكفرانه الذي لا كفران بعده!!

ومع ذاك فقد نصح بروميثيوس لأخيه ألا يقبل هذه الهبة من الآلهة، وأن يرفضها، غير مشكورة، كما رفضها:

– "إنها فتنة يا أخي، بل هي خدعة من خدع السماء حري بنا ألا تنطلي علينا!"

– خدعة؟! خدعة ماذا يا أخي؟ خذ عيني فأبصر بهما، وقلبي فضحه على مذبح هواها.. ألا ترى إلى عينيها النجلاوين، وشفتيها القرمزيتين، وثدييها الناهدين، وفخديها المملوءتين، وساقيها الجميلتين؟..

– "بل بحسبي عيناي يا أخي! إني أستشف بهما فتوناً نفثته الآلهة في كل جوارحها، فحذار! إنها ستكون خرات هؤلاء المساكين الذين صنعتهم يداي!"

– "حسبك يا أخي وحسبي! هي لي من دونك، فتول عنا أو دع!"

* * *

وعاشت بندورا مع ابيمثيوس كما يعيش الآلهة في الفردوس.. حياة كلها مرح، وأياماً جميعها لذة وإيناس، يخلو إليها فتمتزج روحاهما وتختلط نفساهما، وتكون هي فتنة زوجها المسكين، تأسر لبه بموسيقاها الحنون: وتسحره بالزرقة العائمة في عينيها، وتبهره بكلماتها الغوالي في الحكمة والموعظة الحسنة!!

وتركهما زيوس حيناً من الدهر ينهلان خمر الحياة، ويعبان من عسلها المصفى، ثم دعا إليه هرمز، فحمله صندوقاً ثميناً، وأنفذه به إليهما... "وإياك أن تعبث به في الطريق، فإنه هديتي إلى بندورا، وفيه انتقامي من عباد بروميثيوس، فسر به إلى الفتاة، وأوصها به خيراً.."

وكان الزوجان يتراقصان على الحشيش الأخضر أمام قصرهما المنيف حين أقبل هرمز بالصندوق، يتعثر في مشيته، وقد بدت عليه وعثاء السفر، وعلق الثرى بأسماله البالية، فلفتت بندورا نظر زوجها إليه، وذهبا سوية للقائه والاحتفاء به، ولكن هرمز أبى ألا أن يذهب إلى القصر، ليسلم الهدية، وليبلغ رسالة السماء.. فسار الجميع حتى كانوا في المخدع الوثير، وجلس هرمز يستريح قليلاً، ثم قال:

"هاك يا بندورا العزيزة هدية الإله الكريم إليك، خصك بها من دون براياه أجمعين. وأحسبك في غنى عن أن أصفها لك، فها هي ذي أمامك تتكلم عن نفسها. لكن الإله الأكبر يشترط ألا تفتحيها إلا بإذنه، فلا تتعجلي، حتى يأتيك أمره. وإنه لقريب"

ونهض هرمز، وسلم وانصرف، ولا تزال بوجهه تلك الضحكة الساخرة التي كانت عليه، يوم استودع بندورا قلب الكلب، ونفس اللص، وعقل الثعلب...

وكان ابيمثيوس قد قدم إليه من ثمر حديقته الشيء الكبير، ولكنه لم يمد يده إليه...

* * *

وكان الليل قد قارب أن ينتصف، وكان الكرى قد لعب بطرفها الوسنان، فاستلقت على أريكتها الحريرية وغرقت في سبات عميق، ممتلئ بأحلى الرؤى، وأطيب الأحلام..

وخيل إليها أن في الصندوق أرواحاً سحرية تكلمها، وتنسج الأماني العذاب لها، وأن دنيا بأكملها تتفتح وتزهر حولها، فلما نهضت من نومها في بكرة اليوم التالي، أحست أن أملاً كبيراً يملأ قلبها، وأن رغبة ملحة تسوقها إلى الصندوق كلما ابتعدت عنه، وحدثت زوجها بما تجد، فعللها هو الآخر بالآمال وأخذ يهدئ من روعها الذي بدا اضطرابه بأجلى مظاهره... ودعاها إلى نزهة خلوية فأقسمت لا تغادر البيت، بل لا تغادر الغرفة التي تضم الصندوق الصغير، "الذي أحس أنه مغلق على قلبي ونفسي جميعاً...!" فرثى لها، وانطلق هو، لأول مرة منذ عرفها وحده، ينادم إخوانه الآلهة ويلاعبهم، وبندورا وحدها في مخدعها، تقلب الصندوق العجيب، وتتحدث إليه، كأنه يسمع ويرى.

وغبرت أيام وهي في حال من الهم لم تعهدها من قبل، وكانت تجلس وحدها حزينة كاسفة، تنتظر بشير الآلهة الذي يأذن لها بفتح الصندوق. ولكن هيهات!.. لقد طال ما انتظرت حتى نفد صبرها وعيل، ونهضت إلى الصندوق تقلبه، وهي مأخوذة بجمال صنعه ودقة زخرفته، وهذا الغطاء المزركش الذي انغلق على آمالها وأحلامها..

وحاولت أن تفتحه، ولو أغضبت بذلك السماء ومن فيها من آلهة وأرباب، ولكنها فشلت غير مرة، وضاقت بها الدنيا بما رحبت، فدفعت بالصندوق دفعة قوية على أديم الغرفة فانصدع.. ولما تناولته ثانية هالها أن وجدت بعض أربطة الغطاء قد تقطعت، ثم هالها أكثر أن تسمع هذه الأصوات، منطلقة من الداخل:

"بندورا! بندورا العزيزة! حنانك! خلصينا من هذا السجن السحيق! إننا نتعذب هنا... انقذينا يا بندورا فقد ضقنا بما نحن فيه... إننا لم نصنع شيئاً حتى نرسف في هذا الحيز الضيق.."

"ماذا؟...

ما الذي يتحدث هكذا في هذا الصندوق...؟

أنها أصوات حزينة مكلومة، وأني لا بد منقذتها!

ماذا انتظر؟ أمر السماء! هذا لا يهم!

انفتح أيها الغطاء..."

وضغطت الصندوق ضغطة هائلة فانفتح الغطاء، وسرعان ما انطلقت خفافيش سود ذوات مخالب حادة فملأت هواء الغرفة، وأهوت على بندورا المسكينة تعضها وتجرح بدنها الغض، وكلما وخزها خفاش لعين، انطلق قائلا: "أنا المرض!"، ويقول آخر: "أنا الفقر"، ويقول ثالث: "أنا الجوع!"، ويصيح رابع: "أنا البخل!". وخامس: "أنا القحط" وسادس: "أنا النفاق!". وسابع.. وثامن.. إلى آخر الرذائل التي تكظ الحياة إلى يومنا هذا؟!..

وانطلقت الخفافيش من الغرفة إلى القصر، فجرحت الخدم والخول، ثم انطلقت إلى الحديقة... وإلى الطريق حيث كان أبيمثيوس وأقرانه الآلهة، فأوسعتهم عضاً وقضماً وتجريحاً. وتركتهم يترنحون من الألم، وذهبت تفسد في الأرض، وتنتقم لزيوس الجبار من عباد بروميثيوس المخلصين، فكثرت الآلام، وعم الفقر، وامتلأت الأرض رذائل وأشجاناً!!...

وكانت بندورا قد أسرعت إلى الصندوق فأغلقته، حين رأت من أمر هذه الخفافيش ما رأت.

ولكن: وا أسفاه!!

إنها حين أغلقت الصندوق، حبست فيه الروح الطيب الوحيد، الذي خبأه فيه زيوس.... ألا وهو: "روح الأمل!"

وانبطحت بندورا على أرض الغرفة تئن وتتوجع وتشكو البرح الذي ألم بها، حتى أقبل أبيمثيوس فانبطح إلى جانبها يشكو شكاتها، ويألم لآلامها...

ولبثا يبكيان..

وكلما حدثته بندورا حديث الصندوق، تسخط الإله التعس وتبرم، وحدجها بنظرة فاترة، قائلاً "نصحتك فلم تصيخي...!"

وسمعا صوتاً ضعيفاً في الصندوق يقول: "بندورا! بندورا! لماذا حبستني وحدي، وأنا روح الخير... افتحي... افتحي.. أني سأشفيك من جراحك، وآسو آلامك وأوجاعك.. افتحي..."

ولكن بندورا كانت في شغل بآلامها فلم تنهض ولم تجب، ولكن أبيمثيوس تناول الصندوق ففتح غطاءه، فانطلق فراش أبيض جميل، هو روح الأمل، ما فتئ يرف لكل جرح من جراحات الزوج حتى شفاها جميعا، ثم شفى جراح الزوجة كذلك، وانطلق إلى عباد بروميثيوس يشفيهم ويأسو جراحهم، وما فتئ إلى اليوم، هذا الفراش الأبيض الجميل، روح الأمل، يشفي أوجاع المحزونين والمكلومين.

بورك الفراش الأبيض!

ولا بوركت خفافيشك السوداء يا بندورا!

الفهرس

أساطير الحب والجمال